



[Shero4jesus@yahoo.com](mailto:Shero4jesus@yahoo.com)

شیرو



البيزنطية في آخر ايامها يقاسون الاهوال مع كل حزب من حزبيها اللذان كانا يعرفان بالحزب السياسي الاخضر والحزب الازرق . وكان شعار الحزبان المصريين اللذان نحن بصددهما من القماش الابيض والاحمر (١) ويقول الجبرتي أن هذان اللونان قد اثرا في شعور اصحاب كل حزب تأثيراً شديداً حتى اصبح اصحاب كل حزب يكره لون علم الحزب الاخر الى درجة لا تطاق حتى انهم ما كانوا يسمحون لاهل منازلهم باستعمال لون علم الخصم حتى ولا في الادوات المطبخية عندم . وكبرت مسألة الاحزاب في نفوس المصريين حتى وصلت الى طبقات العمال واصحاب الصناعات الذين انقسموا ايضاً على بعضهم الى حزين حزب يقال له حزب السعديين والآخر حزب الحرمين وصاراً يتحاربان مع بعضهما وحمل الحزب الاول منهما علم الفقارية الابيض والحزب الاخر علم القاسمية الاحمر . وابتدأ العراك اولاً ما بين قاسم بك الذي كان شيخ البلد وقتئذ (أو محافظ القاهرة) وذو الفقار بك الذي كان مزاجاً له على اخذ هذا المركز منه وكانا كلاهما من الشركس ومن نسل رجل من اسراء المماليك

(١) كان علم الفقارية ايض اللون ومزاريقه برمانه وعلم القاسمية احمر ومزاريقه بجلبه . وكان لكل من هاتين الطائفتين صفات مختصة بها فالفقارية كاتب توفى بالكثرة والكرم والقاسمية بكثرة المال والبخل وبعضهم يقول أن هذين الحزبين ينسبان الى قاسم بك الدفتردار وذو الفقار بك الكبير سنة ١٠٥٠ هـ

المشهورين يدعى سودون كان عاتياً في عهد السلطان سليم الفاتح وحجر على نفسه داخل منزله وظل فيه كسجوناً باقي ايامه على ما رواه المؤرخون كي لا يعترف بالسلطان المشار اليه حاكماً على مصر . وفي اثناء السنين الاخيرة من القرن السابع عشر كان العراك والخصام قائماً على اشده بين رجال هذين الحزبين وانتهى بمذابيح وسرقات ونهب واحوال يطول شرحها يراها القاريء بالتطويل في تاريخ الجبرتي .

وفي اواخر القرن السابع عشر وفود الارساليات الدينية والتجارية من اوروبا الى مصر حتى اضطر الحال الى تعيين نائب عن اوروبا في العالم المصري . ولو أن هؤلاء النزلاء الاحرار الاوربيين قليلون لكنهم في الحقيقة اقوياء الجانب بقوة وتأثير الشروط الدولية حتى امكنهم التمتع بالضمائم التامة بين المسلمين على اموالهم وحياتهم الذي لم يكن يتمتع به احد من المصريين انفسهم فكان هذا الامتياز سبباً لرواج تجارة الاورباويين وصناعاتهم رواجاً عظيماً في مصر كما وان الفرمانات التي عبرنا عنها باختصار بقولنا شروط دولية تحتوي على معاهدات عظيمة الشأن معقودة بين سلاطين آل عثمان وبين ملوك دول اوربا الكبرى . واول معاهدة من هذا النوع تمت ما بين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر وان المعاهدة بين المملكة الفرنسية تمت في سنة ١٥٣٥ مسيحية

ولما اصبحت مصر جزءاً من المملكة العثمانية حوالي القرن السادس عشر كانت كل تلك المعاهدات وما تم بعدها تسري على مصر وهي البلاد



الجديدة التي ضمت الى الاملاك التركية . وقبل ايجاد هذه الامتيازات كان من المستحيل قطعياً على أي تاجر اجنبي أو ارسالية دينية أن تعيش في بلاد مصر . و فقط في عصرنا هذا أصبحت تلك الامتيازات الدولية شديدة الوطأة ومبتدله كثيراً وسبباً في تاخير نجاح البلاد المصرية . وفي اوائل القرن السادس عشر عينت كل من فرنسا وانكلترا قنصلاً جنرالاً يمثلها في القاهرة وكتب الميودي ماويه وكيل فرنسا السياسي الذي أتى مصر سنة ١٦٩٢ مسيحية كتاباً عظيماً عن احوال مصر في اواخر القرن السابع عشر واول القرن الثامن عشر للتاريخ المسيحي . لان هذا الوكيل السياسي تعين في السنة الثلاثين من عمره نائباً عن جلالة الملك لويس في مصر اكثر من ستة عشر سنة اجتهد فيها أن يعرف عوائد واخلاق المصريين لانه كان يسر بذلك كما انه اجهد نفسه في تعليم اللغة العربية مع أن اللغة التركية كانت اللغة الرسمية التي تتخاطب بها الطبقات العالية من المصريين اما العربية فكانت لغة عديمة الاهمية . ويتضح لنا من كتابة الميودي ماويه المشار اليه انه مدن القاهرة والاسكندرية ورشيد ودومياط اي ثغور البلاد المصرية اذ لم تكن محصنة في ذلك الحين بل كانت عرضة و فريسة لاي فاتح يأتيها . وقال ان البلدة الوحيدة التي لم تزل محاطة باسوارها هي المنصورة كذا كثير من بوابات مدينة القاهرة كانت باقية على عهدها لكن الاسوار التي بينها لا يمتد بها لانها كانت مهدمة واشبه بمحسون خربة . وقد قدر سكان القاهرة في ايامه بنحو ٥٠٠٠٠٠ نفس وقال انه

لا يظن أن عدد سكان مصر لا يزيد عن ٥٠٠٠٠٠٠ ٥٠٠٠٠٠ نفس وكانت حدود الديار المصرية وقتئذ في جنوب مدينة ابريم حيث كانت الحامية العسكرية هناك عبارة عن خمسة وعشرين أو ثلاثين عسكرياً وكان لثغر الاسكندرية مراقبان احدهما مخصص لدخول المراكب المسيحية واما الرفا الثاني الذي كانوا يسمونه الميناء الجديدة فكان مهتماً خرباً . ثم تكلم باستغراب عظيم عن بقايا مدينة الاسكندرية القديمة خصوصاً عن بقايا الاعمدة الجميلة التي كان لم يزل كثيراً منها قائماً بقرب الجامع الذي كان اصله كنيسة القديس اثناسيوس ثم قال ان البحر الابيض المتوسط هناك اخذ في النزول عن الارض بسرعة غريبة جداً حتى انه لاحظ أن المنزل الذي نزل فيه عند قدومه الى مصر سنة ١٦٩٢ مسيحية كان بينه وبين مياه البحر ثلاثون خطوة فقط فلما زاره سنة ١٧١٨ وجدته يبعد عن البحر بنحو سبعة عشر خطوة وقد بنيت منازل اخرى في الارض الخالية التي وجدت بينه وبين البحر

وقال انه بخلاف المسلة التي رآها منتصبه بجهة عين شمس رأى هناك ابو الهول مغطى بالرمال وقد كسرتة ايدي الناس الذين ينبشون الارض بقصد أخذ الكنوز المدفونة ويقول أن اصل حججه يمثل حجم ابي الهول القائم بجوار اهرام الجيزة ومنحوتاً في صخر ( حجر ) واحد مثله . وقال أن احدي المسلات كانت لم تزل قائمة بجهة المطرية ولكن اشجار البلم المشهورة في تلك الجهة قد ملكت بالسكينة



وواضح انه من منذ ثلاثمائة سنة مضت كانت بقايا واثار القصور والمباني القديمة تشاهد اكثر من هذه الايام ولكنها صارت تهدم يوماً حتى ضاعت عن النظر

وقال المسويدي ما يه أن احد رجال الانكشارية اشترى يوماً قطعة ارض متسعة لينشي فيها حديقة وبينما كان يهدم رية صغيرة في تلك الارض مساواتها بارض الحديقة اكتشف تحتها خمسة اعمدة اثرية جميلة جداً كل عامود من حجر واحد . غير أن هذا الانكشاري كان يجهل قيمة هذه الاعمدة الثمينة فلما وجدها ثقيلة اخذ يكسرها ويبيع قطعها لاستعمالها في الطواحين مع انها اجل واثمن الاعمدة المصرية التي اكتشفت الى الآن ورغماً عن تكسيرها وضياع رسومها الجميلة كان التجار الاورباويين يشترون القطعة منها بمائتي ريال وتعني كثيرون من امراء اوربا أن يشتروا هذه بانمان عالية جداً لكي يتمكنوا من تصليحها واعادة نصبها ثانياً . وقال ما يه انه بعد ذلك التزم جلالة الملك أن يعجل بشراء ونقل العامود العظيم الذي كان في الاسكندرية ويدعى عامود يومي قبل أن يكون نصيبه ما حل بهذه الاعمدة الجميلة التي عثت بها ايدي الاتراك المتبربرين

ومن تلاوة ما كتبه المسويدي ما يه يتضح أن الحكومة في ذلك الوقت ما كانت تسمح حتى لفنصل فرنسا الجنرال أن يتوجه برجاله الى اهرام الجيزة أو اهرام سقارة لمشاهدتها الا بكل صعوبة وكانت الطريقة لنيل الاذن بذلك هو أن يكتب اولاً الفنصل اخطاراً لاحد البكوات المماليك

ليرسل له هذا عادة رجالاً من قبله لحراسة القنصل والمحافظة عليه من الاشرار . ولما زار المسويدي ما يه هذه الجهات يومئذ شاهد اثار حفر كثيرة جداً في الارض الواقعة بين سقارة والجيزة حفرها العامة من المصريين والعربان للعشور على الكنوز . على أن هؤلاء العامة كانوا يعدمون لسوء الحظ كل ما يجدونه من الاثار بخلاف الذهب الذي كان هو جل مبتغاهم من الحفر مع انهم كانوا يستخرجون اثاراً ثمن منه بكثير ولكن لجهلهم المطبق كانوا يعدمونها سريعاً . وقد شاهد اشياء كثيرة منقوشة بالكتابات والرسوم الهر وغليفية البديعة وموميات متنوعة كان المصريون يحضرونها امامه من سقارة الى القاهرة ويكسرونها على زعم انهم يجدون كنوزاً ذهبية مخبوءة في داخلها . وقد كتب جنابه بدقة واعتناء عظيمين بين الفرق بين المصريين والأتراك بالنسبة لاعتبار تلك الاثار في نظر الجنسين فقال أن المصريين وخصوصاً الاقباط كانوا يميلون جداً للمحافظة على الاثار القديمة ويعتبرون العبث بها انتهاكاً لحرمة تلك الاشياء النفيسة . وقد استعمل جنابه نفوذ مركزه الرسمي وتحصل ايضاً على مساعدات كبيرة من الاقباط في المحافظة على تلك الاثار وقد شهد للاقباط بانه كان في مقدرتهم اتقاذاها من ايدي المسلمين التي تعيث بها على الدوام . قال وقد اضطرت الظروف مرة احد الاقباط ان يبيع عملاً قديماً كان موجوداً عند عائلته من نحو ثمانية سنة وكانت الظروف التي اضطرت له للمبيع قهرية جداً يتوقف عليها حفظ حياته من العدم ومع ذلك



فقد ظهر عليه عند المبيع من الحزن والندم ما لا يوصف ومما دل على غفلة نفس ذلك القبطي وشهامته فلذلك لم يجد من يتشكى من عمله هذا للحكومة التركية ولم يدفع لها شيئاً نظير هذا المبيع . وكان هذا التمثال عبارة عن امرأة رأسها وقدميها من صنف حجر المحاك الاسود وجسمها موضوع على قاعدة جميلة من الحجر الانخضر القديم المنزج باللون الابيض وكله مصنوع صنماً متقناً في غاية الجمال ارتفاعه خمسة اقدام وخمسة قراريط . وصاحبه القبطي اليأس قد اقسم يمينا على الانجيل امام المسيو دي مايه بان هذا التمثال تحصل عليه احد اجداده حينما كان مستخدماً مع الحاكم الذي فتح احد اهرام الجيزة ووجده بداخله وكان هذا الحاكم (وهو غالباً الافضل امير الجيوش) قد امر بتكسيده في الحال ولكن سكرتيره القبطي الذي رآه يقرب من تمثال مريم العذراء وعلم انه من صنع اسلافه تضرع الى مولاه المسلم بان يعطيه اياه نظير جعل من المال يدفعه فداء عنه فسمح له باخذه ودفع فديته مائة مجر (١) من ذهب واخذه في منزله وبقي فيه من ذلك الحين يتوارثه الاولاد والاحفاد ويحفظ به الابن بعد الوالد كتركة عزيزة مكرمة حتى وصل الى ذلك اليأس الذي قضت عليه الظروف بمجيئه بعد أن أصبح وجود هذا التمثال عنده مهدداً لحياته وحياة عائلته فاشتراه منه ذلك الوزير الاجنبي كما ذكر . ويتضح من كتابة المسيو دي مايه انه كان يوجد في ذلك العهد

(١) المجر كان في ذلك الحين يساوي خمسة واربعين غرشاً صاعاً مصرياً

بالبلاد المصرية شيء كثير من النواويس والنوايت المنحوتة من حجر الجرانيت او الرخام الجميل وعليها كثير من الكتابة الهيروغليفية المتقنة وكان كل تابوت عبارة عن قطعة واحدة محكمة الصنع وعدد كبير منها مطروح في طرقات واحياء القاهرة المختلفة عرضة للمارة وبعضها مستعمل بصفة احواض للماء في الطرق العمومية ومنها تابوت جميل استعمل اولاً بصفة حوض عمومي وسبي (بحوض العاشقين) واخر استعمل بصفة مستقى للخيل في منزل احد الضباط الانكشارية . وقد تكلم المسيو دي مايه بالايضاح التام عن انواع الانمار والفاكهة التي كانت توجد بمصر في ذلك الوقت فاذا هي مثل ما يوجد منها في هذه الايام تماماً ما عدا قصب السكر فانه لم يذكر عنه شيئاً وقد قال مؤكداً أن النخلة الجيدة كانت تعطي محصولاً يوازي قيمة عشرة ليرات انكليزية . ثم تكلم عن الحيوانات المختلفة التي كانت توجد ايضاً في البلاد المصرية فقال أن القط كان لم يزل محبوباً جداً عند المصريين ووصف القط المصري بان يستحق المحبة مع انه لا يحب القطة . واثبت أن القطط المصرية في سنة ١٧٠٠ لم تكن تمتاز فقط بعبارتها العظيمة في صيد الجرذان ولكن كان لها شكل جميل المنظر جداً لان شعرها كان مخططاً ومزقاً كالنمرور وما كان يخلو وجودها من اقباص (رسالة خاذه الملوكي) أي محل الوحوش الذي يشبه حديقة الحيوانات في هذه الايام . ومن المضحكات قوله (أن تلك القطط كانت لم تزل تقيم في المساكن والمستشفيات لاجل



صيد الجرذان). وكان التمساح يوجد بكثرة بالقرب من الجيزة ولكن يندر وجوده في الدلتا وقد قتل احدا لاهالي قبل مجيئه الى مصر يبيع سنوات حيوانا بحريا عند دمياط من الحيوانات المعروفة بجاموسة البحر

امضي المسيودي ما ييه زمنا ليس بالقصير يفكر في مشروع ايصال البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر الذي تم بعد ذلك بواسطة انشاء قناة السويس. وقد ظهر له سهولة انقاذ هذا المشروع العظيم ولكنه افكر بان النفقات تزيد عن المنفعة بكثير فعذر عنه. وقد بحث ايضا عن التجارة المصرية الاجنبية وقال انها محيت بالمره من سوء ادارة الاتراك ولم تجد في البلاد تجارة تذكر الا تجارة الرقيق التي كانت لها الحظ الاوفر في الرواج والانتشار حيث كانت تركيا وبعض البلاد الاوربية ايضا تاخذ الا لزم لها من العبيد بواسطة البلاد المصرية حتى نشأ عن ذلك صيرورة السودان خرابا بلقعا خاليا من السكان واصبحت قفارا بعد ما كانت عامرة بالحرث والغرس وكان العربان يصطادون السكان باساليب شتى ويأتون بها للبيع في الاسواق المصرية وكانت كل وسائل النقل محصورة في الابل. قال وكان الاتراك يجلبون الى مصر اشخاصا كثيرين من الرقيق الابيض الاورباوي يأتي به التجار من الاقاليم التركية. واقل ثمن كانت تباع به الرأس الواحدة من الرقيق الابيض بمائتي ريال فاكثر ورأى المسيودي ما ييه بنفسه بنات صغيرة تباع الواحدة منهن بسعر خمماية وتسماية جنيه انكليزي وكان الطالب كثيرا في مصر على الاولاد الجميلة التي

يتشرب بياض وجههم بالحمار ليربهم الحكام المسلمين بصفة ممالك لهم وكان نادرا جدا جلب البنات والاولاد من الجنس التركي بل كان التجار يجلبونهم من اولاد المسيحيين ويدعون انهم اتراك فيشب هؤلاء الصبية على المبادئ الاسلامية وقل ما كانوا يخجلون من الرق ولا يعدونه عارا عند بلوغهم سن الرشد بل بالعكس كانوا يفتخرون بانهم اتوا البلاد عبيدا ارقا فاصبحوا اشرافا وسادة فيها بينما اولاد العرب الاحرار أو الالهالي المصريين الذين تنحصر فيهم فقط بعض المعارف والعلوم الضرورية كانوا مهانين وينظر اليهم بعين الاحتقار ولو كانوا مسلمين

وكان الاقباط دائما اقل جهلا واكثر معرفة من جميع انواع المصريين. ولكن المسيودي ما ييه الكاثوليكي الشديد التعصب لمذهبه لم ينصفهم تماما بوصف ما كانوا عليه من حسن الصفات وسعة الاختبار بل كان يعا كسهم في حريتهم الدينية ولا يبيدي معهم اقل تساهل في شيء باعتبار انهم تابعون لكنيسة منشقة ومهرطقة في عرفة. وقد كتب يشكو بحدة وغل قائلا انه لا يوجد في كل الدنيا شعب عيد وصلب في خطائه وتمسكه بمبادئه القديمة مثل هؤلاء الاقباط المنشقين فان اعظم وامهر واحزق المبشرين الكاثوليك كانوا يشتغلون فيما بينهم سنين عديدة بلا فائدة ولا نتيجة تذكر. ولكنه مع ذلك اعترف صريحا بان الاقباط كانوا يستقبلون اولئك المبشرين بكل ادب ومحترمون غيرتهم وخدمتهم ويقابلون شفقتهم عليهم بالشكر والامتنان ومع ذلك كله



كان يستحيل بالمرّة زحزحت اقل واحد منهم عن ترك مذهبه أو تغيير معتقده مطلقاً ولذلك تعزّر على جميع المبشرين الكاثوليك جذب قبلي واحد للمذهب الكاثوليكي رغماً عما بذلوه في ذلك من المساعي الهائلة قال السيودي ما يه أن هؤلاء المسلمين المبشرين قصدوا مرة مباشرة توزيع صدقات على فقراء الاقباط حتى يستميلوهم الى سماع تعاليمهم فاوجدوا لهم محلاً وجمعوا عدداً كبيراً من الفقراء والباثسين واخذوا يوزعون عليهم الصدقات ثم يباشرون الوعظ بينهم حباً في جذبهم الى المعتقد الكاثوليكي بلا نتيجة وتصادف تعيين رئيس جديد للارسالية الكاثوليكية بمصر فامنع الصدقات عن هؤلاء الفقراء فامتنعوا عن المجيء لسماع الوعظ فلما ارسلوا يطلبونهم الى سماع الوعظ امتنعوا وقالوا (مفيش فلوس — مفيش كنيسة —) وبذلك لم يبق مع اولئك المبشرين الكاثوليك بصفة دائمة غير نفر قليل جداً ولم يعتنق مذهبهم غير الذين اخذوهم من والديهم وهم اطفال من اولاد الفقراء وروبوهم من منذ نشأتهم على المذهب الكاثوليكي وبدون هذه الوسطة ما كان يمكنهم تحويل قبلي واحد عن معتقده الاصيلي الارثوذكسي. ومن الغريب أن السيودي ما يه ورفقا في المعتقد لم يوجهوا فكرهم للطرق التي كان يمكنهم النجاح فيها من هذا القليل لانهم لو فكروا في الاهتمام بالوعظ بين المسلمين كان يمكن لهم النجاح اكثر من نجاحهم مع الاقباط اخوانهم في الدين! ومن المعلوم أن الغرض الحقيقي من ارسال الارساليات المشيخية والرومانية الى مصر في هذه

الايام مبني على ايصال التعاليم المسيحية الى المسلمين للدين وليس لمعاكسة الاقباط في معتقدهم بصرف النظر عن أن مدارس هؤلاء المرسلين مملأه من الاقباط أو المسيحيين المصريين وهؤلاء لا يدخلونها الا بطريقة الترغيب التي تفوق كل الطرق واهمها التعليم المجاني. واما في عصر السيودي ما يه فان هذه طريقة ما كانت تؤثر على الاقباط ولا تحلهم مطلقاً على ترك كنيستهم الاصلية

وخلاصة ما يؤخذ من اقوال السيودي ما يه أن الارساليات الدينية قد جربت كل الوسائل في اغراء الاقباط على اعتناق المذهب الكاثوليكي وكلها ذهبت ادراج الرياح. واخيراً تأكد اصحابها انه لا توجد غير طريقة واحدة يمكنهم من النجاح في هذا العمل وهي انهم يتحايلون على اهل اولاد القراء وياخذونهم منذ طفولتهم ويفصلونهم عن قومهم انفصال تاماً ويربونهم على مذهبهم وذكر السيودي ما يه أن بعضاً من هؤلاء الاطفال ارسلتهم احدي الارساليات وهم حديثي السن الى روميه فتعلموا هناك سنيناً طويلة وشقوا على المذهب الكاثوليكي ولكن عند عودتهم الى وطنهم ادركوا غلطهم وعادوا ثانية الى كنيستهم الارثوذكسية واستعملوا العلوم التي حصلوا عليها في رومية في تحسين حالتهم اللاهوتية وافادوا بها كنيستهم وقال ايضاً أن الاقباط علاوة على تعصبهم لمذهبهم فانهم يكرهوننا حتى انهم يستعملون جملة في آخر شتائمهم أو سبابهم بقولهم في اخر الشتيمة (يا افرنجي) واذا تباحث معهم — في موضوع اعتقادهم



بوجود طبيعتين لسيدنا يسوع المسيح يستحيل عليك تفهيمهم الحقيقة .  
فان سألهم قائلاً : اما كان سيدنا يسوع المسيح انسان تام ؟ ، يجيبونك  
: نعم . . . ومع كل ذلك لا يمكن لاي شيء في الوجود أن يفويهم ويفريهم  
على الاعتقاد بوجود طبيعتين للرب يسوع

وقد اظهر هذا الفصل تألماً كثيراً من عدم سهولة الحصول على  
الاطفال الاقباط منذ ولادتهم حتى يمكن تربيتهم على المعتقد الكاثوليكي  
فقال ولو أن هؤلاء الاقباط على العموم بؤساء وفقراء ومضغوط عليهم  
ومضطهدين من الحكام المسلمين لاجل دينهم ومع ذلك يستحيل اغواؤهم  
على التفريط في اولادهم ثم قال انه في سنة ١٦٩٩ مسيحية وصلني امر من  
جلالة امبراطور فرنسا بانتخاب ثلاثة من اولاد الاقباط وارسلهم حالاً  
الى فرنسا لكي يتعلموا فيها وشدت علي حكومة جلالة الامبراطور  
بضرورة انتخاب هؤلاء الاولاد من العائلات الطيبة وشرح بعد ذلك الطرق  
التي بذلها في طلب تنفيذ هذا الامر والحصول على الاولاد المطاوعين  
وكيف وسط في ذلك جميع الدوائر الرسمية واصحاب المقامات العالية وانتهى  
بقوله انه قد استحال على اغراء اقل قبطي من عائلة طيبة على التفريط في  
ابنه لهذا الامر النافع لمستقبله وبعد الجهد الشديد والسعي المتواصل بضع سنوات  
لم يمكنه الحصول على ولد واحد من عائلة بائسة ومن افقر الناس وكانت  
نتيجة تلك المساعي فراغ كل مدارس المرسلين من اولاد الاقباط  
حتى أن الذين في فقر مدقع منهم انقطعوا عن المجيء لاختد الصدقات

والاحسانات كالعادة خشية من اخذ اولادهم بغير رضائهم وهكذا الذين  
كانوا يتضورون جوعاً تحوا بالمرّة عن التردد على المرسلين لهذا الامر  
عنه وختم المسيو دي ماييه كلامه في هذا الموضوع باستغرابه الكامل  
من هذا الرفض قائلاً انه بموجب هذه الحقائق نعرف كيف تؤكّد لبابا  
رومية عدم صحة القول الذي قيل له بكل جرأة وعلى غير صحة أن بطريرك  
الاقباط سبّح للمرسلين الايطاليين باخذ اولاد من الاقباط لتعليمهم  
في رومية

وكان البطريرك القبطي في المدة التي مكثها المسيو دي ماييه في مصر  
الانبا يوحنا السادس عشر ومن الواضح انه لم يعترف باعمال ووجود  
المرسلين الايطاليين في مصر بل كان يفرض عدم وجودهم بالمرّة في البلاد  
كما كانوا لا يعترفون به ايضاً ( ١ ) . ويقول المسيو دي ماييه انه عقد مخابرة  
رسمية بينه وبين البطريرك يوحنا بشأن المعمودية التي ادهش امرها ذلك  
لوكيل السياسي الفرنسي واسار في مخابرة بضرورة تأجيل عماد الطفل

( ١ ) يوحنا السادس عشر الملقب بيوحنا الطوخي هو الذي اعاد استعمال  
الرسامة والتدشين بزيت الميرون المقدس الذي كان قد بطل استعماله من مدة ٢٠٠  
سنة . ويقول نبيل المؤرخ اعتماداً على تقرير برناتي الى سوكر يوس ان هذا البطريرك  
هو الذي اصدر امراً بان اولاد الاقباط يلزم عمادهم في اليوم الثامن من ولادتهم  
تدل اليوم الاربعين . ولكن ذلك يخالف ما كتبه دي ماييه عن هذا الموضوع  
بعد أن قابل البطريرك بنفسه وتباحث معه عنه



حتى تشفى والدته من النفاس وتستطيع حضور الاحتفال بتعميده في الكنيسة. وقد كان من النادر أن يمارس امر العمد مرتين في السنة كالقاعدة القديمة اذ كان يحتفل بالعماد احتفالات عظيمة جداً في كل الكنائس. ولم يبال البطريرك بنفيظ وغضب قنصل جنرال فرنسا بل دافع عن عوائد كنيسته وكثب له صريحاً بايضاح يقول « اعتقد أن هذا الطقس الديني لا يمارس بالاعتبار والتقديس التام في الكنيسة الرومانية لانه لا يوافق الطريقة الجارية بين الكاثوليك الرومانيين الذين يمارسون العماد في المنازل الخصوصية عوضاً عن الكنائس » غير أن هذا السفير الفرنسي اظهر ذات الحقد والغضب في قوله من أن الختان ايضاً قاعدة عامة عند الاقباط ثم تكلم عن عوائد الاحتفالات الغريبة عند الاقباط وهي التي لم يكن لها ذكر في توارينج اخرى غير تاريخه فقال توجد في اقليم البهنسا الكائن على مسيرة يومين من القاهرة قرية يسميها العرب هناك بير الجرنوس (أو ابار النبوة) وللاقباط في ذلك المكان بئر مقدسة ومن تلك البئر يستطيعون أن يتنبأوا بعلو فيضان النيل سنوياً أنه ذلك في ليلة معلومة من كل سنة يجتمع حولها كثير من الاقباط وقيمون سرادقا عظيماً فوق هذه البئر ثم يأتي شيخ القرية او حاكمها وحوله خلق لا يحصى لهم عدد ويساعد في اقامة معالم الاحتفال ثم يؤتى بحبل قطني متقن الصنع معقود في نقط متوازية منه خيط ابيض وازرق ثم يدلونه في البئر حتى يمس طرفه الماء وبعده توضع مائدة على فوهة البئر يقيم عليها الاسقف

قداساً حبرياً عظيماً ثم ترفع المائدة من فوق البئر ويفحص الحبل المدلى فيها فمقدار ارتفاع الماء الذي غطى الحبل يعتقدون تماماً أنه هو مقدار منسوب ارتفاع النيل في تلك السنة اي انه اذا كان ماء البئر غطى مقدار ١٦ ذراعاً من طول الحبل فإن ارتفاع النيل يكون ١٦ ذراعاً الخ

وبالرغم عن تحامل المسيودي مايبه على الاقباط واحجافه بهم لم يستطع أن يخفي اعجابه العظيم بمهارتهم في الاشغال. وقال ان من بين اديرتهم التي لا تحصى يوجد دير يبعد عن القاهرة مسافة سبعة أو ثمانية اميال داخله ثلاث كنائس قديمة مبنية الواحدة امام الاخرى وبها ترميمات جميلة جداً حتي أن الناظر اليها لا يعتقد الا انها كنائس جديدة<sup>١</sup> والرهبان في تلك الكنائس يرتلون مزامير داوود النبي ليلاً ونهاراً دون انقطاع ولكن الذي يستحق الاعجاب هو نقطة تبعد عن ذلك الدير بمسافة قصيرة في الجبل على مقربة من خرائب صومعة قديمة هناك. وتلك النقطة هي منزه من اجل وازهى المنزهات في العالم اجمع كما وان هناك مغارة منحوتة يميناً داخل الجبل عمقها من عشرين الى ثلاثين قدماً وعرضها اكثر من ٢٠٠ خطوه والخطوة خمسة اقدام وطولها من الغرب الى الشرق يزيد عن ثلثماية خطوة وهذه المغارة العظيمة المنحوتة في وسط الصخر الصلب بلا اعمدة ترفع سقفها ويرى داخلها مشاهد البحر الاحمر

(١) يقول المسيودي مايبه انه رأى هذه الكنائس بنفسه ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها انه لم يبارح جنوب سقارة



ويمكن لما أتى راهب أن يمشوا معاً داخلها بسهولة وفي أشد أيام قيف  
الصيف الشديد يكون الهواء داخل هذا الدهليز العظيم بارداً لطيفاً  
ومستجباً جداً

وقد حدثت مشاغبات في عهد هذا البطريك ببلاد الحبشة أوجدها  
المرسلون الكاثوليك هناك واضطرت البطريك أن يرسم مطرانين لتلك  
البلاد لأن أولئك الرومانيين الكاثوليك قد أوجدوا بمساعيهم الفاسدة  
متاعب عظيمة وقلقل جمة بين الشعب والامبراطور ليقوموا حرباً أهلية  
غير أنه ما جاءت سنة ١٦٨٠ حتى كان الإلقباط ثلاثة مطارنة في الحبشة  
أولهم الابا خرستودوس وقد شاحه ملك الحبشة بسبب كاهن يدعى  
شنوده وثانيهم الاخنشوده الذي لم تكن قد تمت رسامته اصولياً في  
مصر وهذا قد شاع اطاعة لمطالب الابا مرقص الذي لم يكن  
تحصل على رسامة رسمية من مصر حتى سنة ١٦٩٢ مسيحية . اما فرنسا  
فارسلت ثلاثة وفود الى الديار الحبشية لينصبوا شباك المكائد في  
الكنيسة الوطنية الحبشية في أيام البطريك المذكور الذي توفي سنة  
١٧١٨ وكانت الارسالية الاخيرة في سنة ١٧٠٦ بعد أن حرض الملك  
لويس التاسع عشر اليسوعيين على ارسال طبيب يدعى دي رول الى  
تلك البلاد بطريق السودان ليدرس الطريق التي ينوون اختراقها في  
سيرهم اليها . فلما وصل دي رول الى السودان اسره السودانيون ثلاثة  
(١) من مطالعة كتاب امبراطور الحبشة الاتي يعلم بالتفصيل ما تم من امر

ثم قتلوه امام ملك سنار الصغير الحقير الذي يظهر انه كان ذو سيادة ونفوذ  
غير ثابت على ممالك السودان الجنوبية لان الممالك السودانية الشمالية  
كانت قد خربت من مدة وتسلط عليها عدد كثير من زعماء المسلمين  
واغلبهم من العرب تجار الرقيق الذين اوجدوا مظالم وفظائع في هذه المملكة

الطيب دي رول فانه عند قدومه الى سنار حجز بها ثم أرسل رسولا لتحقيق  
ارادة الامبراطور في أمر هذا الطيب وقد وصل دي رول تعليمات سرية من  
مقتضاها أنه اذا كان قادماً بصفة سائح للاعمال الخيرية فلا بأس من السماح له  
بدخول الحبشة . وأما اذا كان من اليسوعيين فلا بد من منعه المجيء الى الحبشة  
بكل الوسائط الممكنة معها كانت الحالة . والكتاب الاتي مأخوذ من مجموعة  
المسيو دي ساسي العربية : —

من السلطان تكلا هيانوت ابن السلطان آدم سجويد ابن السلطان علاف  
سجويد . كتب هذا المکتوب الملك الكلي الاحترام والامبراطور الكلي العظمة  
والجلال سيد الشعوب . ظل العناية الالهية بين رجاله . الكلي المجد والعزة بين  
الملوك والسلاطين الذي يؤمن ويعترف بديانة يسوع . الكلي القوة والجبروت  
بين الملوك المسيحيين . حامي حى الايمان الذي تحت حمايته حدود الاسكندرية  
الذي جعل أساس العدل متساوياً بين المسلمين والنصارى . الذي من نسل  
داود النبي وابنه الملك سليمان ملك اسرائيل الذي وضع الرب الاله طريق  
الخلاص . السلطان تكلا هيانوت ابن السلطان آدم سجويد ابن السلطان علاف  
سجويد . فليدم شخصه مقدساً الى الابد . ولتدم مملكته السامية محفوظة في  
العز والعظمة الى الابد . وليدم رجالها وجيشها الذي لا يقهر امين  
الى رفيع المقام عظيم الاحترام العالم السامي المسيو دي رول الفرنسي —



وقد اعتق ملك سنار الديانة الاسلامية . بالرغم عن ذلك قد بقيت جماعات كثيرة من المسيحيين منتشرة في كل ارجاء السودان ولها عدة كنائس أيضاً ونفوذها الاسمي يومئذ كان متصلاً تقريباً الى حدود مصر الجنوبية كما يتضح لك ذلك من الحادثة الآتية : — . عندما قتل الدكتور دي رول المتقدم ذكره قد اصدر المسيودي ماييه فرماناً رسمياً في القاهرة يأمر كل الرعايا الفرنسيين النازلين في الديار المصرية أن يطردوا كل بربري أو أي رجل آخر في خدمتهم يكون من رعايا ملك سنار وان يطردونهم من بيوتهم في ظرف ثلاثة ايام وان لا يستخدموا مثل

السوري الآتي اليها في قلبنا كما يأتي بشخصه فيحفظه الله من كل عارض ويرفعه لاهل الدرجات امين . أما بعد فان ترجمانك المدعو الياس الذي ارسلته اليها قد وصل الى بلاطنا وكان وصوله موافقاً لدينا وسمحنا له بالدخول امامنا . وقد علمنا منه انك مرسل لنا من قبل اخينا ملك فرنسا وانك حجزت في سنار . فبناء على ذلك اني اكتب الان الى السلطان بادي الذي لا يحجز عليك ويسمح لك بالمجيء الى هنا . وان لا يهينك بل يعاملك بالشرف والاحترام وان لا يزعجك ولا يتعبك بل يعاملك بالحسنى والاعتبار انت وجميع من معك لانه يوجد مشابهة بينك وبيننا في الدين والايمان مثل رسولك الياس السوري . جميع الحاضرين معك بصفتهم سفراء أو تجار من قبل اخينا ملك فرنسا أو نائبيه في مدينة القاهرة هكذا شددت على سلطان سنار أن يعامل كل الذين برقتك المتحدين معنا في ذات المذهب والعقيدة وبذات النوااميس وبذات الايمان . لاننا نحب الدخول في عقود الصداقة والاتحاد وفي مباحلة المباحة مع الجميع وفقط نتجنب الذين

هو لاء القوم عندهم ومن يخالف هذا الامر يصير الزامه بدفع غرامة مالية قدرها ثلاثمائة جنيه . وكان البرابرة في تلك الايام كما في ايامنا هذه يعتبرون أحسن الناس مرافقة للخدمة المنزلية في بلاد مصر ولذلك وقع ضرر ذلك الامر الصارم الذي اصدره المسيودي ماييه على رعايا ملك فرنسا وليس على رعايا ملك سنار ولكن ظل أمر المسيودي ماييه هذا معمولاً به في مصر ومتبعاً بين الفرنسيين فيها مدة مائة سنة

وقد وصف المسيودي ماييه بالتطويل الظروف التي اوجبت ارتداد ثم استشهاد الاب كليمنت ركوليه القس القنصلي الفرنسي في القاهرة الامر الذي اثر تأثيراً عظيماً على الناس وقتئذ . فقال ان ابناء جلدته اهتموه بسؤ التصرف في الاموال المخصصة للاعمال الخيرية والصدقات فالتزم ان يهرب ويلتجئ لقوة الحكومة التركية في القلعة ثم ابلغ

يعترفون بعقيدة ويتبعون ناموساً ضد ناموسنا وعقيدتنا مثل يوسف (١) ومن في معيته الذين طردناهم حالا من البلاد عند مجيئهم لاننا لا نحب دخول مثل هؤلاء القوم في بلادنا ولا نسمح لهم يتعدون حدود سنار كي لا يتمكنون من ايجاد النزاع والفوضى بيننا . أما عنك فقد سمحنا لك بالقسودم اليها ونؤكد لك بهذا انك سترى ترحيباً واستقبالاً عظيماً فكن اذن في طمان ولا تخف . والعبارة الآتية مكتوبة في ذيل الكتاب عند الامضاء : — يسوع ابن مريم — آدم سجويد ابن علاف سجويد من نسل سليمان ابن داود ملك اسرائيل

( ) يقصد بذلك المرسل اليسوعي الاب يوسف برندنت الذي كان ارسل للبعثة لتغيير عقدة أهلها وقتل قبل وصوله غندار عاصتها



الحكام عزموه على اعتناق الديانة الاسلامية وكان ذلك في ٢٣ ابريل سنة ١٧٠٣ . فكتب المسيودي ماييه جواباً لذلك الاب شديد الهجة ينصحه فيه بالرجوع الى صوابه ويرجوه العودة الى حضن السفارة الفرنسية وأكده انه سيعاقب الذين سبوه واتهموه وافتروا عليه واستحلفه بكل عزيز ومقدس عنده ان يرجع قبل ان ينتهز المسلمون فرصتهم ويحتفلوا باسلامه . وقال له يمكنك ان تعتذر بانك كنت سكراناً في طلبك الاسلام وانك ما كنت تمي ما تقول واقترح عليه انه يمكنه ايضا ان يتدخل في تخليصه من ايديهم اذا تمسك بذلك العذر

فرد عليه القسيس جواباً وجيزاً غير مقنع . ومع ذلك في يوم ٢٥ ابريل سنة ١٧٠٣ احضروه امام الباشا الوالي الذي سأله اذا اراد أن يكون كما كان نصرانياً . ولكن المسلمون ما كانوا يسمحون لمثله أن يرجع عن عزموه فامسكوه في ٢٨ منه وختنوه بالقوة واوجدوه في غرف مفروشة بالرياش الفاخرة وعيتوا العبيد لخدمته واكدوا له انهم سيزوجونه باجل النساء طراً ولكنه لم يقبل ذلك ولما رأوه أنه التقى بالعمامة التي اتوا بها اليه على الارض بكل عنف وظل مصمماً على عدم اسلامه اخذوه وضربوه ضرباً مبرحاً حتى صار اقرب الى الموت منه الى الحياة ثم طرحوه في السجن . فاجتهد المسيودي ماييه غاية جهده في انقاذه من ايدي المسلمين ولم يفلح وفي يوم ٨ مايو وصله جواب من ذلك القسيس يرجوه فيه أن يتركه حتى يكفر عن غلطته بالاستشهاد . وقد اقترح احد كبار

المسلمين المتعصبين وجوب تقطيع ذلك القسيس ارباً ارباً . وان يفصل أعضاء جسده مثل يده أو ارجله في ظرف ربع ساعة عن جسده وهكذا يعذب حتى يموت . ولكن الاورباويين كانت قد قويت شوكتهم في البلاد واصبحوا لا يسمحون لاحد أن يعمل مثل هذا الصنيع مع احد ابناء جنسهم . ولو لم يكن الباشا يخاف قيام اوباش المسلمين عليه لكان عفى عن موته . على انهم قطعوا راس هذا الاب يوم ١٧ مايو سنة ١٧٠٣ وسلموا جثته الى المسيودي ماييه السفير الفرنسي فدفنها باحترام في مقبرة الخندق . ويقول المسيودي ماييه انه لهذه المناسبة وصلته تعزيات حارة واشترك معه في الحزن كل رجال الكنيسة اليونانية والقيبطية وامرت الكنيستين شيعيها بالصوم ثلاثة ايام تكريماً لذلك الشهيد

وكانت علاقة المسيودي ماييه مع الاتراك اكثر وداداً وصداقة مما كانت مع الاقباط . ولكنه لم يستطع أن يخفي اعتقاده من أن الاتراك هم الذين عليهم وخدمهم تقع مسئولية خراب وشقاء البلاد . فانهم من الباشا الوالي فما دونه الى اصغر موظف في خدمة الحكومة لا يهمهم الا جمع الثروة والاموال باية طريقة كانت على حساب الحكومة سواء خربت البلاد أو عمرت . ولا يراعون في ذلك حقاً او عدلاً أو امانة أو رحمة . ولم يكن يسمح الباب العالي في الاستانة لوالي مصر أن يقيم فيها اكثر من سنة مالم يقدم رشوة عظيمة للسلطان وكثيرون من الولاة افلحوا في مسعاهم بهذه الطريقة وتمتعوا ببقائهم ولاية على مصر اربعة سنوات . وكان الوالي يجتهد أن يجمع لنفسه



من الثروة أكثر من الجزية السنوية التي تدفع للسلطان . ويقول المسيو دي مايه بسباطه : وعلاوة على كل ذلك فانه اذ نفشي وبأفي البلاد مدة السنة التي يكون الوالي حاكماً فيها . فقي بحر الثلاثة أو الاربعة اشهر التي يبقاها عادة الطاعون في البلاد يكون الباشا قد جمع في اثنائها ثروة عظيمة . فاذا اتفق ومات جابي اموال الحكومة في احدى البلاد يبيع الباشا وظيفته لمن يقدم رشوة أكثر من غيره حتى انه في غالب الاحيان كانت تباع هذه الوظيفة في ظرف اسبوع لثلاثة أو اربعة من الطالبين بالنسبة لسرعة وفاة الذين يشترونها بالتعاقب بسبب نفشي الطاعون

ويقول المسيو دي مايه أيضاً ان الخمس القوات التي دون الوالي (سناجق) (القوة الحربية العظيمة) كانوا دائماً يفترون الشعب ويمتصون دماءه . ولم يكن وقتئذ يوجد أي واحد من الاهالي له ثروة خصوصية ولو فرضنا ووجد احد له ثروة قليلة كان يتعين عليه أن يستمد للدفاع عنها سجداً وبخلاف ذلك لا يمكنه حماية عمله واشغاله وثروته الخصوصية بدون أن يضع نفسه تحت حماية اصحاب هؤلاء القوات الخمسة الذين كانوا يقيمون بالتسلسل هكذا : الاغوات المصطفين . والعساف . والسباهي . والباشجاو يش . والآنكشاريه . واذا اتفق أن احداً من الاهالي استأنف شكواه لمن اختاره من هؤلاء القوات من حادث وقع معه أو سرقة حصان له فكان لا ينال هذه الاثمن غال فان ذلك العظيم لا يكتفي بثمن الحجابة الاولى بل يطلب منه أموالاً أخرى بحجة صرفها في تحقيق قضيته الجديدة ومعاقبة عدوه . وعلاوة على

ذلك فاذا مات ذلك المسكين المحتمي بعظمة ذلك العاتي فيكون لحاميه الحق في وضع يده على كل متروكاته من مال وعقار ولا يترك لارملته وایتامه إلا جزءاً قليلاً من تركته . وكان هؤلاء الطغاة حيلاً كثيرة يسلبون بها أموالاً من الفريسيين نظير تجارهم بالعلاقات التي كانت توجد بينهم وبين بعض النساء الوطنيات كما يقول المسيو دي مايه

ولكن عملهم هذا أصبح عبئاً ثقيلاً على الفريسيين حتى ان أصحاب المصارف المالية منهم هجر كل علاقة مع النساء . ولم يكن يوجد موظفاً تركياً من اكبر الى اصغر واحد يقبل صرف اقل شيء من ثروته التي جمعها بطرق غير محملة على ما يري البلاد المصرية ويزيد في اتساع نطاق تجارتها واشغالها العمومية . مع أنهم كانوا يرسلون سنوياً مبالغ عظيمة لمدينة مكة وللسلطان في القسطنطينية . ولذا فان الاراضي كانت تقل مساحة المزروع منها سنوياً . أما تطهير الترع ومجاري النيل فكانت مهجورة وان كانت ترمم فلا يرمونها الا بالبحرة القهرية واعمال الطرق والشوارع الخ فكانت شيئاً غير معروف بالمرّة والحكمة قوات المذكورة كانت تعيش من سلب ونهب الاهالي . ومع كل مظالمهم فما كانوا يحامون عن المصريين اذا هجم عليهم العرب البدو وداروا فيهم سلباً ونهباً وكان اكبر العلماء ورؤساء الدين من المسلمين معرضين ايضاً كغيرهم لهذه التعديات الظالمة . وفي سنة ١٧٠٩ مسيحية وقعت حادثة عظيمة جرت فيها الدماء انهارا مدة يومين داخل الجامع الازهر لاختلاف الاراء في من يليق تعيينه لوظيفة شيخ لذلك



الجامع وكان كل من الطرفين المتخاصمين يحمل البنادق والاسلحة وكسروا  
ابواب وقناديل الجامع قطعاً صغيرة وجرح وقتل كثير من الطابة وفي  
آخر اليوم الثاني أحضر محافظ القاهرة قوة عسكرية طردت العصبيتين  
المحاربتين وأخرج جثث الموتى من الجامع ونفى أحد الشيوخ الذي  
اتضح أنه زعيم الثورة وسجن أيضاً اثني عشر شخصاً الذين كانت لهم  
اليدين في إقامة ذلك الحرب داخل الجامع

~~~~~

## الفصل التاسع والستون

استبداد البكوات المماليك

نشبت الحرب اظفارها في سنة ١٧١٠ بين الدولة العلية وروسيا فصدرت  
ارادة سلطانية بسحب الجنود التركية من مصر وترك نحو ثلاثة الاف  
منهم لتأييد الاحتلال التركي بهذه العساكر التي كانت مكروهة جداً عند  
المصريين . وقد نشأ عن سفر أكثر هذه الجنود ازدياد عصابات الساب  
والنهب في القاهرة وضواحيها وزيادة الشعب بين الاهالي وتمردهم على  
الحكومة وخاصة بالظر لفساد الاحكام ومظالم الحكم حتى نشبت في  
البلاد حرب اهلية من نفسها السنة التالية . فترع حاكم الصعيد بجيوشه الى  
القاهرة ليشارك في هذه الحرب . ووقعت معركة هائلة بينه وبين الثائرين

في القضاء الكائن بين القلعة وجامع السلطان حسن وتحول هذا الجامع  
الى طاييه وحصن تحصيناً منيعاً . وتحول أيضاً جامعاً طرلون والمؤيد  
الى حصون . ومما يؤسف عليه أن اعظم وانحر الجرامع في القاهرة تحولت  
في تلك الايام السوداء الى معقل وحصون للحروب والكفاح بدل جعلها  
اماكن عبادة وصلاح

غير أن حاكم الصعيد لم يفلح في قمع الثورة فدارت الدائرة عليه فهزمت  
جيوشه وجيوش الباشا الوالي الذي كان امراء القاهرة يريدون خلعه وقد  
لعبوا بمصالح البلاد يومئذ الاعيان كثيرة محزنة . فمن ذلك انهم اطلقوا النار  
على منازل باقي الامراء خصوصاً فامتد لهيبها الى منازل السكان  
المسلمين ودكاكينهم وهكذا احرقوا جزءاً عظيماً من القاهرة وباقي المنازل  
التي سلمت من الحريق نهبها وسلبها عساكر امراء . فصار كل من  
السكان يجتهد في الهرب من المدينة بحياته فتركت مرسحاً للشقاء اياماً  
كثيرة لعبت فيها ايدي الجنود . والذين تجلدوا وبقر في المدينة بقصد  
حماية ممتلكاتهم سقطوا في مخالب اعداء آخرين قاهرين جبارين هم العربان البدو  
الذين استدعاهم الامراء الفقاريون لاعادة سلطتهم حيث انتشر هولاء البدو  
في انحاء المدينة وصاروا يسرقون كل ما تصل اليه ايديهم ويقطعون مجاري  
المياه عن السكان حتى صيروهم على وشك الموت من شدة الظماء

ومع استدعاء البدو الى داخلية البلاد لم ييطل النزاع والخصام من بين  
الاهالي والامراء في القاهرة فقط كما ولم يمكن صد غارات البدو عن



سلب أي بلد يمرون عليها فقد نهبراً مدناً كثيرة وسلبوا جميع ممتلكات أهلها خصوصاً مدينة اخميم فانهم اوصلوها للخراب التام وقتلوا معظم سكانها . وقد كانت كل مدينة مسيحية تقريباً معرضة للخراب اكثر من غيرها وهذا هو السبب في قتل اكثر سكان اخميم وخراب غيرها من المدن الاخرى التي كانت مأهولة بالاقباط بهذا الشكل المريع . وفي اواخر ايام الفتنة وقعت معركة حربية كبرى قرب قصر النيل قتل فيها الامير عواظ (١) رئيس حزب الامراء القاسميين . وكيفية قتله أن حاكم الصعيد الذي كان يقود الجيوش لمحاربة الامراء وضع كميناً خلف دعامة قنطرة القناة الكبرى ثم تظاهر بالانهزام والهروب من امام عساكر الامراء فبعثته نخرج الكمين من محله واسخن فيها قتلاً وصوب حاكم الصعيد قوساً على عواظ بك نخر في الحال قتيلاً . فالتحق حزب القاسميين ابنة اسماعيل رئيساً عليهم في الحال وكان صبيها في السادسة عشرة من عمره ومشهوراً بجماله وشجاعته . وعندئذ عقدوا هدنة مع حاكم الصعيد لمدة ثلاثة ايام . وبعدها عادت الحصرمات فتجددت بين الامراء بدرجة اشد من الاولى ودامت كذلك الى أن تبدد شمل حزب الامراء الفقاريه وتلاشت قواهم بالكلية واصبح الشاب اسماعيل ابن عواظ سيد البلاد

١ صحة هذا الاسم وهجائه عواض واسكن اصبح يلفظ عواظ اخذاً عن اللغة التركية وقد ترجمه احد المترجمين السوريين لاحد الانكليز هوارد فغير معناه

المصرية والمتصرف فيها بامرهم . ثم عينت الدولة العلية واليا جديداً من قبلها على مصر . اصبحت المادة يومئذ أن تعين الولاة من القسطنطينية يتم مرة في كل ثلاث عشرة سنة وكان تعيينهم رسمياً فقط بينما كانت اعمال البلاد في يد اسماعيل بك حاكمها الفعلي . وقد عين اسماعيل بك المشار اليه جميع اصحابه كتاباً على اقاليم مختلفة واعطاهم الوظائف العليا في القاهرة وانبغ العدل ولكنه كان قاسياً مع الرعايا على السواء وطهر ضواحي المدن والبلدان من البدو الضارين حولها . ولم يشعر مصريو ذلك الحين بزمن ساد فيه الامن والطمانينة كمصر اسماعيل بك . ومع كل ذلك ما كانت يده القوية وسلطته النفذة تاعدانه على تمكين السيدات المخدرات من السير في الطريق بدون خرس قوي حولهن . وقبل قتل اسماعيل بك بسنة خرج جماعة منهم في يوم شم النسيم كالعادة للنزهة في ضواحي العاصمة راكبات حميراً فقبل وصولهن الى كبرى شبرا احتاط بهن جماعة من المماليك وهم بحالة سكر وعربده وسلبوهن حليهن بعد تمزيق نقابهن . وقد وقع كل ذلك على مرأى من الضابط المعين للمحافظة على الامن في تلك الجهة ولكنه بقي ساكناً حتى جردهن هولاء المماليك القساة من جميع ملابسهن ولم يتركوا لهن ما يسترن به عورتهم ثم جاء اليهن هذا الضابط مظهراً استعدادهم لحراستهن من كل تعد مع انهن كن في حالة لا تطاق من الضيق والحجل حتى انهن يقين انه يتوسلن للمارة لاعطائهن ولو قطع خرق بالية تستر عورتهم حتى يرجعن الى منازلهن . فتامل ??



ومن التحقيق الذي صار في هذه المسئلة اتضح أن أولئك السيدات لم يكن يهوديات ولا مسيحيات كما كان يتصور الناهيون بل اتضح أنهن من العائلات الشريفة وزوجات لرجال من الطبقة العليا من المسلمين . قال المؤرخ تفصيلاً لهذه الحادثة . أنه لما ذهبت السيدات المشار اليهن ثاني يوم الحادثة لرفع مظلمتهن للبasha والي وطلبن منه رد ما فقدنه من مجوهرات والماس وغيره بمقتضى كشف قدم له منهن استحضر البasha الضابط وعسكريين من رجاله الذين كانوا في نقطة الحادثة وهددهما بالعذاب البدني أن لم يعترفا صريحاً بما تم . فخوفاً من العقاب الصارم اقرا بجميع ما حصل بالتمام . وقالوا دفاعاً عن نفسيهما أن اشترا كهما في الجريمة كان من قبيل الطاعة لضابطهما والرضوخ لاوامره العسكرية وعززا اقوالهما بان اهالي الناحية كانوا شاهدين السلب ولم يجسر احدهم على المداخلة ولكنهم لما عرفوا أن السيدات من الطبقات العليا اظهروا استعدادهم للشهادة . فقبل البasha عذر العسكريين بعد اعترافهما بالحقيقة وراحهما اما رئيسهما الضابط فنفاه الى ابو قير . بعد أن استقطع جزءاً عظيماً من راتبه بصفة عقاب له .

على اثر هذه الحادثة اصدر البasha والي منشوراً اذاعه في جميع انحاء المدينة بمعاينة كل من يتعدى على النساء اللواتي يسرن في الطرق العمومية وهدهن عقاباً صارماً وحذر النساء كذلك من الخروج الى خارج بوابات المدينة ومنعهن ايضاً من ركوب الخمر ( كذا )

وقد بذل اسماعيل بك قصاري جهده في وضع حد لعصابات السلب

والتلصص التي كان ياتونها اتباع الرؤساء العسكريين وكثيراً ما كان يرد الاشياء المسروقة والمنهوبة الى اصحابها بعد استخلاصها منهم .

وفي شهر رمضان كان يدع باب منزله مفتوحاً بعد غروب الشمس لكل من يريد دخوله لتناول طعام الافطار فيه ابتغاء مرضاة الله . وكان يدهش الناس بشجاعته في ترك القاهرة وذهابه لزيارة اصحابه ذوي الوظائف المختلفة في الاقاليم . مع أنه لم يكن أي امير قبله يتجاسر على مبارحة القاهرة دون أن يكون معه جيش عظيم خوفاً من القتل غدراً . وفي الواقع أن كل المماليك الامراء كان نصيبهم القتل المتتابع بطرق مختلفة ولم ينج من ذلك ايضاً اسماعيل بك اذ قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر قتله غدرآ الامير ذو الفقار رئيس حزب الامراء الفقارية . فتوفي عن ابنة وبعد وفاته ولد له ولدان من زوجتين ولكنهما لم يعيشا ذكراً حميداً لايهما اكثر من بضعة اشهر . ومن اعمال اسماعيل بك انه بنى جامعين كبيرين احدهما جامع سيدي ابراهيم بدسوق والثاني جامع سيدي علي بمليج ورسم جامع الازهر بالقاهرة وقاد بنفسه قافلة الحج ست مرات الى مكة وكانت سنة قتله أي سنة ١٧٢٣ افر نكية حزناً وطنياً عند جميع المصريين . وفي سنة قتله قام رجل تركي يخطب بين المسلمين لاصلاح العقائد الاسلامية وتنقية الدين الاسلامي من العقائد الدخيلة المحيطة بالدين فاوجد شعوراً عظيماً لاصلاح الدين والتف حوله خلق كثير وصار يسوع خطبه الوف من المسلمين في جامع المؤيد . وكان يفند في خطبه العوائد الذميمة التي



الصقت في العبادة والديانة الاسلامية ويطعن على الخصوص في عبادة المشايخ وشفاعتهم ويقيم الادلة الساطعة على أن آثار أو بقايا المشايخ والاولياء لا تأتي بالعجائب البتة . فانزعج شايخ الاسلام في الازهر لخطب هذا الرجل واصدروا منشوراً دينياً في الحال بحر مون فيه اتباع مبادي ذلك الزعيم الخطيب واكدوا مثبتين في منشورهم أن المشايخ والاولياء يمكنهم اتيان العجائب بعد موتهم . وطلبوا من الحكومة معاقبة ذلك الخطيب .

فاحضر بعضهم صورة من هذا المنشور للخطيب المصلح بينما كان يخطب في الجامع . فلما اطلع عليه قال ملنا سامعيه انه يمكنه أن يقنع العلماء ويتغلب عليهم بالبرهان الساطع امام قاضي الاسلام الا كبر وطلب من سامعيه أن يكرنوا في جانب فتحمس القوم وتجمهر واصابحين بالاخلاص له فخرج من الجامع وحوله ما يشوف عن الف نفس وكروا مهرولين بشعب عظيم الى بيت القاضي . فاجتهم القاضي أن يماطلهم وهو في حالة خوف وفرع عظيمين على امل انه يدبر فهم اخيراً ولكنه ما كاد يظهر الانحراف عن ميلهم حتى اهانته الرعاع وكادوا يعدمون الحياة لو لم يتخلص منهم بكل صعوبة وهرب الى محل حريته .

وفي يوم الثلاثاء التالي اجتمع الخلق اكثر من المرة الاولى في جامع المؤيد ليسمعوا خطيبهم فلم يجدوه وذاع فيما بينهم خبر مؤداه أن القاضي منعه عن الخطابة بالقوة فهاج المحتشدون وجاههم من الاولياء وقصدوا المحكمة

الشرعية وقبضوا على القاضي بالقوة فانكر بالسكينة معرفته بامر شيخهم فبروه الى الباشا الوالي الذي يظهر انه خاف أيضاً وانزهل من هيجانهم فامضى لهم امراً بالتصريح لهم بما يرغبون اتباعه فحملوا شيخهم الخطيب على اعناقهم وخرجوا به متصرين مهلين الى جامع المؤيد حيث القى عليهم خطبة حادة ومهيجة جداً . وفي هذه الاثناء كان الوالي الباشا قد ارسل الى كبار امراء الفقارية والقاسمية يخبرهم بان الاهالي اهانوه وانه سيتترك البلاد ويعود للقسطنطينية .

وما كان الامراء يتوانون عن التداخل في المشاجرات المماثلة لهذه بحجة قمعها والضرب على المتخاصمين فدعوا رجالهم لحمل السلاح وساروا للقبض على الخطيب وسامعيه الذين قد وصلهم خبر قدوم الامراء قبل تحركهم اليهم فلما وصل الامراء ومن معهم لم يجدوا أحداً في الجامع فزحفوا نحو قلب المدينة وهم يضربون بالعتي ويقبضون على كل من يجدونه في داريتهم وبهذا انتهت الفوضى واد النظام كما يقول الجبرتي . واختفى الخطيب المصلح بعد هذا وقال بعضهم انه قتل واخرون انه هرب من الديار المصرية . وفي أوائل سنة ١٣٤٠ هـ تنبأ أحد العرافين الاقباط واسمه

غير معروف بان العالم سينقضي بعد يومين فانتشرت نبوته كالبرق بين الناس مسلمين ومسيحيين . وانتشار هذه النبوة في القاهرة كان بقوة عظيمة وبسرعة فائقة فلما تعرف عند الشرقيين (١) وايضا انتشرت في (٢) يظهر أن اذاعة الاخبار كانت تمارس في قديم الايام بواسطة حمام الزاحل .



كل الاقاليم ولم يبق حديث للناس الا هذه النبوة واتقلاب الدنيا وصار كل واحد يودع جاره ويستعد لمقابلة الانقلاب الرهيب وتقاطر الفقراء الى شواطئ النيل يغتسلون بمياهه ليطهروا انفسهم . وبعضهم يقيم الولائم والاعياد والمسرات وداعا للعالم وبعضهم يتركون منازلهم ويطوفون هائمين في الحقول وبعضهم يوقعون انفسهم في انزعاج لدرجة الجنون وبعضهم يمارسون التوبة عن خطاياهم ويصلون . أما الشيوخ والامراء ولو ان بعضهم بلا شك جارى القوم في رعبهم فانهم اجتهدوا بان يرجعوا الناس الى صوابهم ويحرضوهم الى العودة الى ممارسة صوابهم واشغالهم اليومية كالاعتاد ويؤكدون لهم ان تلك النبوة كاذبة بلا مراء فلم ينجحوا وذهبت مساعيهم ادراج الرياح . وما كان جواب الناس لهم وهم في غاية الاندهاش الا ان النبوة حقيقية بدليل انها صادرة عن اليهود والاقباط . وكان المسلمون معتقدون بنوع اخص ان الاقباط لا يخططون في نبؤاتهم لانهم يذكرون الظواهر الفلكية قبل حدوثها . ولهذا كان العامة لا يترددون في خوف هذا النبوة بل يأتون بالادلة على صدقها من نبوات الاقباط في سالف الازمان . ولكن المؤرخ لم يذكر نوع هذه النبوات التي اوردوها . وأخيراً قبضوا على الرجل القبطي الذي نطق بالنبوة وجاءوا به امام أحد الامراء فابى انكار ما قاله والرجوع عما اذاعه وقال للامير القني في السجن لغاية يوم الجمعة فاذا لم يتم ما تنبأت به في ذلك اليوم أي يوم الجمعة يمكنك ان تذبخي

فزاد هذا الاصرار في انزعاج الناس وتولاهم اليأس لدرجة شديدة في ساعة واحدة . فلما جاء يوم الجمعة كان جميع الناس في انتظار الساعة الاخيرة كل لحظة من ذلك اليوم ولما دنت ساعة غروب شمس ذلك النهار ولم تظهر آية علامة من السماء تدل على الانقلاب حلت على أحد العلماء روح الحذق والفتنة فقال - ان النصارى قد سبقوا واخطأوا غير مرة فلماذا لانضيف لهم خيبة نبوتهم هذه المرة الى خيبتهم السابقة ثم قال بخشوع ان ارواح سيدي احمد البدوي وسيدي ابراهيم الدسوقي اشهر الاولياء الاطهار توسطت في تأخير خراب العالم فاجاب الله شفاعتهم وقبل بتأجيل يوم الاخرة الى أجل غير مسمى . فطمن الناس بعضهم بعضاً وباركوا انفسهم بمزيد الشكر والامتنان قائمين لبعضهم ( أيها الاخوة انا لم نزل احياء ) أراد الله ان يكون ذلك الحادث تجربة نافعة لنا

وكانت هذه الحادثة على ايام البطريك انبا يوحنا السابع عشر الذي اخلف انبا بطرس السادس سنة ١٧٢٧ الذي اخلف انبا مرقس السابع . وبعد وفاة اسماعيل بك اتكست البلاد فغادت الى حالتها الاولى من عدم استتباب الامن والسلب والنهب . والامير ذو الفقار الذي قتل اسماعيل قد ذبح هو أيضاً بعده بضع سنين وما كان يمر شهر تقريباً الا وتسمع ان أميراً قتل أميراً آخر . وكيفية قتل الامراء بعضهم بعضاً انه كانت عندهم العادة ان يدعو الامير صاحبه الامير الاخر الذي يريد الغدر به الى وليمة هو واتباعه في منزله وبمجرد حضورهم للضيافة يعطي صاحب الدار علامة



لخدمته فيقومون حالاً بذبح الضيوف وزعيمهم . وقد حصلت حادثة  
محزنة من هذا النوع لا بأس من تخصيصها بالذكر هنا لهذه المناسبة : —  
ذلك أنه في سنة ١٧٣٦ مسيحية قد أمر الدفتردار بذبح أحد عشر من  
كبار المماليك الأمراء في ساحة منزله بعد دعوتهم الى ولاية على مثل  
ما تقدم — وسبب تمثيله بهم ذلك التمثيل المريع ان كبير المقتولين كان في  
ذلك الحين زعيم الأمراء الفقاريين وقد رفض ترقية أحد الأمراء القاسميين  
الى وظيفة سنجق . ولكن عثمان بك ذو الفقار وهو من الهوياء المماليك  
الذي كان مدعوا لولاية الدفتردار ضمن الاحد عشر مملوكا المنقصود والغدر  
بهم قد تمكن من الهروب بنفسه من ايدي القاتلين الذين لما رأوا ان هذا  
المملوك أفلت من ايديهم خافوا ان يعود للانتقام حالا منهم بعد جمع رجاله  
فهربوا خائفين واختفوا في جامع السلطان حسن فابى رجال الجامع قبولهم .  
فتمكنوا من الدخول بوسيلة أخرى وهي أنهم اشعلوا النار في باب الجامع  
حتى احترق ودخلوا الجامع واختفوا فيه فكانت هذه الحادثة كلها اساسا  
لمعارك دموية عظيمة دامت بلا انقطاع طول القرن الثامن عشر فالنزم  
الأمراء باعادة تحويل الجوامع الى حصون وطواحي حربية ومنازل  
خصوصهم كانت تنهب وتسلب على الدوام وكانت الشوارع دائما ملانة  
بجثث القتلى . وعلى أثر ذلك عزل الباشا الوالي من قبل تركيا وعقب خلفه  
بخل هذه الحالة مدة قصيرة ساد فيها السلام في القاهرة نوعا إلا أنه  
في ردهة هذا السلام ضربت بالوباء وشتد لدرجة ان مات به ١١٣ شخصا

من بيت واحد لاجد الأمراء وكانت الجثث تنقل ركاما للدفن ليلا  
وفي اثناء ذلك كان قد حضر ، يتشارد بوكوك الى الديار المصرية .  
والامتيازات الاجنبية جمعت البلاد في حالة أمن للساحين الاورباوين  
أكثر منها للمصريين التعساء أنفسهم . لان المصريين وقتئذ ولا سيما الأمراء  
المماليك كانوا على علم تام بان قتل شخص واحد من رعايا الدول الاورباوية  
قد يكون خطرا عظيما على القاتل فعلا عن عدم الفائدة من قتله . فكانوا  
يفضلون مقابلتهم بعذب الحكم . وكان المصريون يطربون عند ما يعلمون  
سهولة النفس والاحتيايل على هؤلاء الاورباوين في كل المواضع والاحوال  
التي لا يلاحظونها أو يمر فونها شخصيا . وفي ذلك الحين أرسلت الحكومة  
الهولندية أحد قبودانات بحريتها للسياحة في الديار المصرية ليقدّم تقريرا  
عن تلك البلاد الى حكومته فحضر وكتب عن مصر كتابا تاريخيا لكنه  
ليس ذا قيمة تاريخية تذكر . اذ عرف الضباط الترك في الحكومة المصرية  
وقتئذ ان الاهالي أربوه وصرفوا فكره عن أي قصد غير لائق يجوز  
ان يحدثه ولو أنه ساو في النيل الى ان وصل للنقطة الموجرد فيها بوكوك .  
وقد ألف عند عودته بعض اجزاء عن تاريخ رحلته الى صعيد مصر .  
فيظهر انه لم يعلم ولم يدرس شيئا عن البلاد أكثر مما يدرسه سائح هذه  
الايام عنها في بحر اسبوعين . أما الكتاب الذي ألفه الدكتور بوكوك  
عن أحوال مصر فانه ذو قيمة حقيقية . ولو أن أغلب كتابته فيما يختص  
بالاقياس وما هو في دائرة معلوماتهم كان يكتب بناء على أساس



الطريقة المعتادة المضرة بالمؤلفين وأثلاث وهي ارتكابه في معرفة أحوال  
الاقباط على المترجمين المسلمين أو المبشرين الكاثوليك الذين يكرهون  
الاقباط ولا يسامحونهم لاختلافهم لكنيستهم وبطريركهم الوطني . ولما  
وصل الدكتور بوكوك الى ميناء الاسكندرية من أوروبا سنة ١٧٣٧  
جعل أول وجهته زيارة كوسماس بطريرك اليونان في رشيد . وكان وقتئذ  
على كرسي الكرازة المرقية البطريرك يوحنا السابع عشر . ولكنه في  
طول مدة سياحته في داخلية القطر كان دائماً يتصاحب ويجتمع مع المسلمين  
والكاثوليك الفرنسيين الذين كانت ارسالهم ومراسلاتهم الكريمة الدينية  
على طول نهر النيل تحت الحماية البريطانية . وزار مدينة المحلة الكبرى  
التي قالوا له أن فيها خمسمية نفس من الاقباط . ثم شاهد بقايا الهيكل العظيم  
هناك . ثم عاد للقاهرة ومكث بها يوماً ثم سافر الى الفيوم وبعدئذ . افر الى  
اغالي النيل . وفي عصره كان الديران الأبيض والأحمر بجوار سوهاج لا  
يزالان معروفان عند الاقباط باسم دير انبا شنودة ودير انبا بشوي . ولما  
وصل الى ارمنت تعجب مندهشاً غاية الاتدهاش من مشاهدة بقايا  
الكنيسة النفيسة التي كانت هناك وهي من اقدم الكنائس المصرية . ولو  
انه اثناء اقامته في الديار المصرية كانت حاشتها هادئة ولم تقع فيها معارك ولا  
محاربات بين المماليك فانه لاحظ انه عادة القتل بالسهم كانت متأصلة كثيراً  
بين كل جميع طبقات الاثراك وكانت عادة مألوفة جداً يصعب كتابة أي  
ملاحظة تاريخية عليها وكانت لفظة ( تركي ) ليست ذات معنى ولا أهمية

حتى بين الاثراك انفسهم . ولا حظ أيضاً ان كل الاقباط كانوا يعرفون  
القراءة والكتابة أما باقي انواع الاهالي من الامم الاخرى فقلما رأى  
واحداً منهم يعرف القراءة والكتابة . وذكر في تاريخه ان رجال الترك  
الانكشارية كان يعهد اليهم جباية ضريبة الانفس من المسيحيين الوطنيين  
فقط ( الاقباط ) وهذه الامة التعيسة قد وقعت في حالة اردأ من ذلك  
وهو أن احد كبار الاثراك في القسطنطينية تمكن بواسطة دفع رشاء  
ثقيلة للسلطان من الحصول على هذا الامتياز ولما ناله صار يحصل من  
هؤلاء الاقباط البؤساء اضعاف ما كان يحصله منهم الانكشارية . وساح  
الدكتور بوكوك أيضاً في اوروشليم وقبرص ومضى الايام الاخيرة من  
حياته بوظيفة اسقف ميث

ومن سنة ١٧٣٦ الى سنة ١٧٤٣ مسيحية كان اقوي رجل في النفوذ  
في البلاد المصرية هو عثمان بك ذو الفقار . والفضيلة الوحيدة التي تدون  
له في التاريخ بالمدح انه ما كان يقبل الرشوة أو يعيل البها على الاطلاق .  
وأما باقي اعماله فكانت مثل باقي أعمال موانئه — وهي ميله للانتقام  
والخيانة وعدم الرحمة والعفة

ولما لم يعد يتحمل الشعب وخصومة مظالمه القاسية لم يقتلوه بل  
نفوه الى القسطنطينية فاستقبله السلطان بالاحترام وبذل مساعيه لاعادة  
ممتلكاته واملاكه وامتنعته التي بمنزله في مصر اليه بعد أن سلبت كما هي  
العادة في ما يتم لمثله عند قتله لكن لم تفلح هذه المساعي السلطانية



وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية عرض أحد الباشوات المدعو محمد  
اليدقسي مشروع اصلاح للديار المصرية فابتدأ اصلاحه بمنع شرب الدخان منعاً  
قطعياً عند الاهالي . فكان يرسل ضباطه بمساكرهم ثلاث مرات يومياً  
يطوفون في الشوارع في القاهرة وكل من يجدونه يدخن يعاقبونه عقاباً  
صارماً . فاستدعاه السلطان بعدئذ بسنتين قبل انه لم يفلح بايجاد اصلاح  
يذكر غير ابطال شرب الدخان . وبعدئذ قام شيخ من العلماء واجتهد في  
اصلاح حال مواطنيه فصار يخطب فيما بينهم بحضور بعض الامراء  
ويبين لهم شرورهم وينههم عن الخطايا ويبين للناس الشرور التي ياتونها  
الامرأ حتى هؤلاء عليه وسلطوا عليه اتباعهم لقتله . فهرب وامتنع بعدئذ  
عن الخطابة ضد الامراء حتى مات موتاً طبيعياً

وأعظم نقطة تاريخية مؤثرة في ذلك الحين هي الخيانات الدموية  
العظيمة التي تعودها الازراك لخدمة مآربهم . ويظهر انه ما كان يوجد  
اي عهد أو قسم يمنعهم من اتيان هذه الفعال الذميمة . مع ان المين أو  
القسم أو العهد بالوطنية العمومية هو الرابط الوحيد الذي يوقف ويمنع اي  
شخص انكائزي الجنس من ارتكاب اي جريمة ضد ابن جنسه

وفي سنة ١٧٤٥ مسيحية تلقى محمد رغب الباشا لوالي وقتئذ على مصر  
من قبل تركيا تعليمات سرية من السلطان بضرورة القضاء على عائلات  
الفاطمي والدمياطي وهما من اشد المماليك قوة وبطشاً . فسمى الباشا سرّاً  
في تنفيذ هذه التعليمات ودبر مذبحه عظيمة لكل البكوات المماليك من

تلك العشائر عند دعوتهم الى اجتماع عمومي في ديوانه بحجة النظر في  
شؤون البلاد . فلما دعاهم لم يجب هذه الدعوة بك أو أمير بدون ان  
يكون مسلحاً أو غير مستعد لدفع اي غدر أو جناية مما كان جارياً في تلك  
الايام . وبالرغم عن هذا فانهم لم يحضروا الى الديوان حتى قطعت رقاب  
ثلاثة منهم أما ياقهم فدافعوا كل عن نفسه وتمكنوا من الهروب من القلعة  
وجمعوا اتباعهم وكروا راجعين للقلعة وقامت على أثر ذلك حرب اهلية  
أخرى انتهت بقتل عدة امراء وهروب الآخرين الى الصعيد . وفي  
سنة ١٧٤٨ تولى على مصر باشا آخر اسمه احمد ولما حضر للقاهرة اقتصر  
على خدمة العلم وعزم على الاستفادة بزيادة العلوم باجتماعه بالعلماء المصريين  
فاحاط نفسه بكل المشايخ وعلماء الكليات فأتضح له اهمهم لا يعرفون من  
العلم شيئاً وانهم اضاعوا وقتهم فقط في العلوم النحوية والحيل والخداع  
اللاهوتية . فحجر كل هؤلاء الشايخ والعلماء وصرفهم من حضرته وحجز  
عنده فقط الشيخ عبد الله الشبروني شيخ الجامع الازهر وقتئذ ليخرجه  
اذ ربما كان نظره فيه غير صحيح وحكمه عليه بجهله كباقي المشايخ قبل  
التجربة قد يكون خطأ . فلما ظال هذا الشيخ في صحبة الباشا مدة من الزمن  
اختبره فيها تماماً وجده لا يقل جهلاً عن الذين طردهم وصار الباشا يطلب  
بعدئذ مكرراً من هذا الشيخ رئيس الجامع الازهر قالاً أين اذا العلماء  
المصريون الذين كنت اسمع عنهم كثيراً في تركيا . فكان الشيخ يرضن  
عليه بتفهيمه ان الشيء القليل من العلوم والمعارف الباقية لذلك الحين في



مصر يمكن معرفتها من الاقباط . واجتهد الشيخ في البحث بلطف ولو عن رجل مسلم واحد تناسب معارفه . طالب الباشا التركي وأخيراً أثر رئيس الجامع الازهر على رجل يدعى الشيخ حسن وهو من أصل حبشي والد المؤرخ المسلم الشهير الشيخ الجبرتي والمعلم لعلم الفلك في الجامع الازهر فارشد الباشا الوالي عنه .

وفي اثناء النصف الاول من ذلك القرن كان الاقباط متروكين في حالة سلام منهم وعليهم بينما كان المسلمون في حالة مخاضات شديدة فيما بينهم . ولم تستيقظ فئرتهم اي ( الاقباط ) وصنائعهم من رقادها الطويل بعد تلك الصدمة العظيمة التي اصابهم بها الفاتح العثماني حينما سحقهم وكاد يمحىهم من الوجود بواسطة الخطف والسلب والنهب المتواصل ضدهم

وقد تألم الاقباط كثيراً ايضاً من اخوانهم الاقباط المسلمين بسبب سطو البدو الدائم عليهم وبسبب جيوش الامراء الطوافة في البلاد . ولم يكن يسلم من الاذى في القاهرة اي رجل يمتلك اي شيء بسيط يستحق السلب سواء كان هذا الرجل يهودياً او قبطياً

وفي سنة ١٧٣٣ م ( ١١٤٦ للهجرة ) كان لكاشف كل اقليم بناء على فرمان صادر له من السلطان الحق في فرض ضريبة مالية على كل نفس قبطية او يهودية من سكان اقليمه . فقسم كشاف لاقليم الانباط واليهود الى ثلاث درجات بطريقة موجبة للاسف بنسبة الوسائط التي يتخذونها

مهم في ارغامهم بالدفع . فقرضوا على الطبقة الاولى دفع ٤٢٠ بارة عن كل نفس . وعن الطبقة الثانية ٢٧٠ بارة وعن الثالثة ١٠٠ بارة عن كل نفس (١) . ولكن من عهد قتل الاب كليمانت لم تعد الحكومة تعرض مسيحياً للقتل بسبب دينه ولم تصدر اوامر بهدم الكنائس . وعلاوة على ذلك فان المسيحيين ( الاقباط ) اصبحوا بالتدريج لازمين للحكومة بحيث لا تستغنى عنهم في وظائفها وذلك بالنسبة للجهل المتزايد وعدم الامانة بين بعض الطبقات من المسلمين .

وفي سنة ١٧٣١ مسيحية كان للمرسلين الكاثوليك تسعة مراكز جنوبي القاهرة وهي : — في اتينو وفي اسيوط وابوتيج وصدفا واخيم وجرجا والاقصر واصوان وحتى في دير النوية . لاننا علمنا انه في تلك السنة ارسل البابا كليمانت الثاني عشر اوامر مشددة لرؤساء تلك الاماكن الكاثوليكية كي يبذلوا كل مساعيهم للحصول على اولاد من الاقباط وارسالهم للتعليم الديني في رومه . فالاولاد الذين امكن لهؤلاء الوكلاء الدينيين ارسالهم للتعليم في روميه كانوا من والدين كاثوليكين ولم يتمكنوا مطلقاً من الحصول على ابن أي رجل قبطي من الكنيسة الوطنية سواء كان

(١) قيمة العملة المصرية كانت تتغير بحسب تغير سلاطين آل عثمان ولذا يصعب جداً تعيين قيمة هذه المبالغ بالعملة الانكليزية . وقال بوكوك في تاريخه عن مصر انه في سنة وجوده فيها ( سنة ١٧٣٧ ) كان الكيس في مصر يساوي ٢٥٠٠٠ ميدي والميدي يظهر انه يساوي ٢ ونصف بنس اي ٥ مليم



بطريق الاغراء أو التهديد ولم يقبل أي قبطي أصلي بالتسليم في ابنه بتأثير تلك الاغراءات الفارغة . وقد علمنا بمحادثة مسير اولئك الاولاد عند ترحيلهم لرومية ذلك انه كان معهم في السفينة الراكبين فيها في طريقهم الى القاهرة من الوجه القبلي بعض من السياح الفرنسيين والانكليز في النيل فلما وصلت السفينة الى مدينة انسينا قيل أن السياح المذكورين نزلوا يتفرجون على خرائبها القديمة فاسرع الاقباط الكاثوليك المتوجهين الى رومية وقدموا أنفسهم للمرسل الكاثوليكي في تلك المدينة وقتئذ وحضروا الصلاة معه في كنيسة

وكتب البابا المذكور الى البطريرك القبطي يوحنا السابع عشر بواسطة الكردينال بلوجا ومرسل اخر لها السلطة في مخبرة البطريرك القبطي باسم البابا — اذا امكنه يحسن به تسهيل الطرق اللازمة للخضوع هو وكنيسته لكنيسة رومية فكانت نتيجة تلك المخبرات بلا ثمرة كالمعتاد ولما جلس بنديكت الرابع عشر على الكرسي البابوي بعد كليمانت — انكر كل دعوى باعتراف الكنيسة الرومانية بوجود اتحاد مع الكنيسة القبطية . وعوضاً عن أن يرسل بطريرك الاقباط رأساً عين مطراناً كاثوليكياً (وهو الاول من نوعه) واعطى له حق التشريع في الدير المصرية . واصل ذلك المطران قبطني اسمه اثناسيوس وكان تعيينه سنة ١٧٤١ واتخذ اورشليم مقراً له واستمر فيها ومنها عين كاهناً يدعى يسطس ماراغليك بصفة نائب عنه في الدير المصرية . وقد ارسل البابا بنديكت سنة ١٧٤٥ م لهذا النائب

تعليمات طويلة طالبها اتباعها وتنفيذها . وكان في ذلك الحين رفائيل الطوخي من اهالي مديرية الجيزة الذي كان أخذه الكاثوليك صبياً وعلموه في روميه قد أتم دراسته الدينية فعينه البابا أسقفاً لمدينة أرسينو حيث يظهر انه لم يسمح له البابا بالاقامة طويلاً فيها <sup>(١)</sup> لانه بالذنب الى معارفه العظيمة قد استدعاء البابا الى روميه ليعايد في تأليف بعض كتب مختلفة باللغة القبطية من ضمنها اجرومية في اللغة القبطية وكتب طقوسية للخدمة الكنائسية . وفضلاً عن هذا فقد ترجم عدة كتب يونانية ولاينية الى اللغتين القبطية والعربية .

وفي سنة ١٧٤٣ مسيحية أرسل ملك الحبشة الى بطريرك الاقباط يطلب منه رسم مطران جديد للاحباش بدل انبا خريستودولس الذي توفي . وكان الوفد الذي عزم على السفر الى مصر حاملاً طلب ملك الحبش مؤلفاً من ثلاثة رجال . أحدهم مصري الاصل اسمه جرجس واثنان حبشيان أحدهما اسمه ليكانيس والاخر كاهن اسمه ثيودورس

وفي ذلك الحين كانت سواحل البحر الاحمر كلها في أيدي المسلمين ولم تكن الحبشة قد استرجعت بعد أي ميناء من موانئها القديمة على ذلك

(١) في السنين الاخيرة من القرن الثامن عشر كان الكاثوليك قد تمكنوا من الانتصار قليلاً في أعمالهم اذ امكنهم اغراء اسقف جرجا القبطي لاعتناق المذهب الكاثوليكي . فأصبح هذا الاسقف في حالة اضطهاد شديدة ليس من الاقباط فقط بل ومن المسلمين ايضاً فالتزم بالهروب الى روميه وأقام فيها حتى



البحر . فلما وصل الوفد الى مصوع قبض عليهم حاكمها المسلم وسجنهم  
وأخذ منهم غنوة نصف أموالهم التي كانت معهم لينفقوا منها في سفرهم  
الى مصر وهددهم بالموت أو اعتناق الاسلام . فاخفى جرجس المصري  
ولا يعرف للان ما اذا كان قد قتل أو دبر طريقة هرب بها ونجا من  
السجن . أما ليكانيوس فبعد عذاب شديد سلم أخيراً بمطالب الحاكم  
واعتق الاسلام . أما تيودوروس الكاهن الحبشي فهو الوحيد الذي  
اطلق لحال سبيله لان الحبشة كانت قد شمرت بما وقع لوفدها فدفت  
عنه فدية للحاكم المسلم واستمر في سفره حتى وصل القاهرة سالماً وحده .  
ولما بلغ الخبر للبطريرك القبطي لم يتمكن هذا من ارسال مطران جديد  
للحبشة الا في سنة ١٧٤٥ . ولما وصل المطران الجديد للحبشة مع الكاهن  
الحبشي وقع له ما وقع للوفد عند مجيئه فطرحا في السجن . ولكن  
تيودوروس الحبشي اجتهد في اختراع حيلة يهرب بها زميله المطران وقد  
تمكن فعلاً من تهريبه ولكنه وقع هو في خطر الموت لاتيانه ذلك الامر  
على ان المتأذير شاعت ان تنجيه اذ بينما كان الاستعداد جارياً لقله ادركته  
فدية من ملك الحبشة فتركه حاكم مصوع ووصل الحبشة سالماً .

وكانت قدم الكاثوليك قد ثبتت جيداً ذلك الحين في البلاد المصرية .  
ولو انهم لم يغروا كثيراً من ابناء الكنيسة القبطية للدخول في مذهبهم  
لكن قد تبعمهم كثيرون من السوريين المقيمين في مصر وغيرهم من ابناء  
الكنيسة اليونانية وكانت لهم كنائس كثيرة خاصة بهم امتلات بالذين لم

تبعمهم من قبل ولكنهم كانوا بلا شك يحسبون مرتدين عن مذهبهم الاصيل .  
فلما سمع السلطان بتزايد النفوذ الارمني في البلاد المصرية بواطة تلك  
الكنائس اللاتينية جزع وقلق باله . فأمر بطريرك الكنيسة اليونانية  
في مصر بأن يمنع اعضاء كنيسة من الصلاة في كنائس اللاتينيين وفرض  
على ابناء الكنيسة اليونانية ضريبة مالية قدرها الف كيس بالتضامن اذا  
خالفوا ذلك الامر . فما كان من السوريين الا انهم دفعوا هذه الضريبة  
للسلطان واستمروا على صلواتهم في كنائس الكاثوليك . واتخذ احد امراء  
المصريين هذه المناسبة فرصة سانحة لما ربه فسجن أربعة من مبشري  
اللاتينيين وفرض عليهم دفع مبلغ عظيم من المال بصنفة فدية لهم اذا أرادوا  
الخروج من القطر المصري

وقد كان الاقباط ممنوعين عن الحج الى اورشليم من عدة قرون  
فكان هذا المنع مصدر حزن دائم للمتدينين منهم . ففي سنة ١٧٥٣ م (١١٦٦  
للهجرة) عزم الاقباط على تجديد المساعي في هذا السبيل واجتهدوا  
للحصول على غرضهم بالرشوة مهما كلفهم ذلك من المال . ومن كبار  
الاقباط الذين كانوا يسمعون في ذلك سكرتير احد كبار الامراء فهذا  
تعهد بالمخاطبة مع ذوى الشأن بالنيابة عن امته . وبمساعيه اقنع شيخ الجامع  
الازهر بالاذن للاقباط بالحج الى اورشليم مقابل اخذ رشوة قدرها الف  
دينار (٧٠٠ جنيه انكليزي) اذ أصدر فتوى شرعية صرح بها للاقباط  
ان يحجوا ويعودوا وهم في امن وسلام بدون ان يتعرض لهم احد من



المسلمين. صدرت هذه الفتوى وبلغ الامر الى الاقباط فطارقوا دهم فرحاً وهموا بالتجهيز للحج بأسرع من البرق. واتفق اخيراً بينهم على ان نقطة المقابلة التي يجتمعون فيها للمسير معاً في قافلة واحدة للحج تكون في شرقي مدينة القاهرة. فكانت هذه النقطة تنص بمئات من الاقباط يومياً وجهزوا العطايا والندور التي سيقدها ونها عند القبر المقدس واعدوا التخروانات لحمل النساء والاطفال واجروا لهم حرساً من البدو لمراقبتهم في الطريق. فانتشر خبر حج الاقباط في جميع الانحاء فاستقبله جميع المسلمين بعين الحق والاحتقار وحنقوا على الشيخ عبد الله الشبروني شيخ الجامع الازهر لتصرّحه لهم فلما رأى هذا نفسه مهاناً من المسلمين للفتوى التي اصدرها بذلك سلك طريق الرقة والملاطفة معهم فلم يفلح ووبخوه على الرشوة التي اخذها فانكر في بادئ الامر اخذه للرشوة ولو انه في الواقع اخذ علاوة على مبلغ الرشوة المتفق عليه مبلغاً آخر بصفة (بقشيش) اذام. فلما رأى ان انكاره للرشوة غير مقبول اتخذ له وسائل أخرى لاعادة كرامته بين المسلمين. فاستدعى طلبة الازهر وجمع خلقاً عظيماً من الارباب وهيجهم بتعريض ديني على الاقباط الحجاج وانتهى تحريضه بامرهم اياهم بأن ينقضوا على قوافل الاقباط السائر بن آمنين في طريقهم الى الحج ولم يحتاج هؤلاء الارباب طبعاً الى تكرار القول او الاشارة بل قام جمع هائل منهم مسلح بالصي والحجارة وساروا حتى انتفضوا فجأة على الاقباط فضربوهم بالنايات والحجارة وسلبوا مؤوناتهم وذخائرهم وكل ما معهم وسبوا

نساءهم. ولم تنفع بعدئذ مساعي كبار الاقباط في رد المسلوب والمنهوب او اخذ تعويض بل ذهبت كل النفقات العظيمة التي انفقها الاقباط هباءً منثوراً

## الفصل السبعون

علي بك الكبير

سنة ١٧٥٥ مسيحية ١٤٧١ للشهداء و١١٦٨ للهجرة

كان الامير الذي خرج له بأس عظيم من عصابات القتالين وهو علي بك الكبير واحد معتوق احد الامراء الكبار وبعد موت سيده قتلاً بالطريقة المعتادة كان هو نفسه في خطر الموت الى امد غير قصير. وقد جمع ثروة طائلة حينما كان في حيازة سيده المتوفي صرفها في شراء الممالك أو اسرى الحروب ليحصن بهم نفسه وقت الهجوم عليه من الاعداء. فلما آن الوقت الذي حان هجموا عليه فعلاً وبعد معركة دموية هائلة في شوارع القاهرة هزم علي بك وفر هارباً الى الصعيد مع بعض البكوات الممالك الذين اعتصبوا معه. وبعد أن جمع من الصعيد قوة من الرجال تستحق الذكر نزل ثانياً الى القاهرة وهزم الامراء خصومه في معركة دموية عظيمة وظل يطارد هم حتى اوصلهم الى طنطا وبوصلهم لهذه المدينة لم يكونوا في أمن لان قوة علي بك كانت



قد ازدادت فهاجت طامطا ايضا يبطش شديد . وقد حفر اثنين من  
الامراء الخنادق حول المدينة تحصيناً لها ومنعاً لهجوم الاعداء عليها غير  
أن احد هذين الاميرين قتل والتجأ الامير الثاني الى الجامع الاحمدي  
مختبئاً فيه فلما انهكه الجوع واصبح على وشك الهلاك سلم نفسه للاعداء  
فدبحوه بعد ذلك بقليل .

ومن ذلك الحين انفراد علي بك بتولي الحكم على القطر المصري  
واستبد فيه مدة عشرة سنوات غير انه لم تحدث في تلك المدة قلاقل  
تذكر الا في سنتي ١٧٦٣ و ١٧٦٥ حيث قامت ضد الامير المذكور فتنة  
عامة ادت الى نفيه بضعة اشهر وكانت مدة حكمه كلها رعب وفرع حيث  
أن جيوشه لم تكن مخلصه له والبكوات المماليك الاخرين كانوا مقاومين  
له من جهة اخرى ونشاء عن ذلك أن الناس كانوا يذبحون بالعشرين  
أو الثلاثين دفعة واحدة من الذين كان هذا الامير يشك في اخلاصهم له  
أو يسيء الظن في سلوكهم والخوف منهم على هلاكه ولذلك حذر على غيره  
من الامراء مشترى المماليك الاصاغر الذين كان البكوات يأخذون منهم  
رجال حروبهم ثم وضع يده على كل ممتلكات الذين نفاهم أو قتلهم واستخدم  
طليبا من اتباع الكنيسة اليونانية ليدس السم لخصم له لم يتمكن من  
الهجوم عليه وقتله علناً لكن حيلته هذه لم تفلق ايضا .

وكان كل رجل غني سواء كان مسلماً أو قبطياً معرضاً في ذلك الوقت  
المظلم للهلاك والتعذيب والسجن حتى يسلم كل ما يملكه الى الحاكم .

ونذكر من الذين نالهم الحيف كاتباً يهودياً في جرك بولاق مات تحت  
العصا والكرباج بعد ما دفع ٤٠٠٠٠ قطعة ذهبية فدية عن نفسه . وفي  
سنة ١٧٧٠ فرض ضريبة خصوصية على جميع سكان القطر المصري على  
السواء بخلاف الضرائب الاخرى الموجودة والتي ما انزل الله بها من  
سلطان والتي كان الناس يثنون منها ويتأوهون حيث اضطرت كل قرية  
أن تدفع ٢٠٠ ريال . ولم يقتنع الاقباط من المسلمين بما كان يدفعه اخوانهم  
الاقباط من المسيحيين بل الزمواهم بدفع ١٠٠٠٠٠ « مائة الف » ريال  
زيادة على هذه الضريبة واليهود ٤٠٠٠٠ ريال . ورأى علي بك أن مدير  
الضريبة المصرية الرجل المسلم قد جمع ثروة طائلة فنفاه واستولى على  
جميع ما يملكه حتى ملابسه واسلحته وكتبه

واجتهد السلطان اكثر من مرة أن يقتل حياة ذلك الامير القوي  
فارسل في عام ١٧٦٨ امراً الى والي مصر حينئذ يطلب منه فيه رأس علي  
بك فشرع جواسيس علي بك بذلك وحذروه فلم يتخذ فقط الحذر بل  
ارسل فريقاً كمن لسفير السلطان القادم من الاستانة وقتله في مكمن  
واخذ منه ذلك الفرمان السلطاني وفي اليوم التالي عقد مجلساً من المماليك  
البكوات وقرأ عليهم هذا الفرمان ثم قال لهم واني اؤكد لكم اني اذا قتلت  
كما شاء السلطان حدثت مذبحة عامة تقتلون فيها جميعاً ولهذا يجب عليكم  
أن لا تعترفوا قطعياً بسيادة السلطان الحالي بل انتخابوا سلطاناً غيره منكم  
كما كان في العهد السابق . فأمنوا جميعاً على اقواله وبعدها استدعى



الوالي وامر في الحال أن يترك الديار المصرية فساfer الوالي حالا واعلن  
علي بك استقلال الديار المصرية تحت سلطته . وفعل كذلك رجال سوريا  
مع واليهم التركي واعلنوا استقلالهم مثل علي بك وكان سلطان تركيا وقتئذ  
مشغولاً في حربه مع روسيا فلم يتمكن من اتخاذ الوسائل القوية ضد  
سوريا ومصر . ولكنه ارسل يأمر والي دمشق بتجنيد الجيوش اللازمة  
لقمع العصاة في سوريا فنفذ ما امر به ولكن قام ضده الشيخ الظاهر  
الذي كان حاكماً على عكا وقتئذ ومعه ٢٥٠٠٠ الف مقاتل علاوه على  
سنة الآف ارسلهم الى شمال سوريا فضرب والي دمشق وقهره . اما علي  
بك فقد جرد جيوشه ضد قبائل البدو الهوارة الذين غزوا صعيد مصر  
وتسلطوا عليه وكانوا اسياداً لكل المنطقة الواقعة ما بين اسيوط واصوان  
بضع سنوات فقهرهم علي بك واخضعهم لسلطته وبذلك اصبحت مصر  
كلها من الشمال الى الجنوب خاضعة تحت سيادته ولم يكتف بذلك بل  
قام وهجم فجأة على رجل كان زعيماً للبدو في الجهة الغربية لشواطئ النيل  
وقتلهم هو وزعماءه البالغين اربعين شخصاً . وبذلك انتهى كل ما كان يخشى منه  
علي بك . وبالرغم عن معاملته الشديدة للاقباط وقسوته عليهم فان الرجل  
الذي كان يثق باخلاصه ويعتمد عليه كان قبطياً يدعى المعلم رزق رقا من  
وظيفة سكرتير الضربخانة المصرية الى مدير حساباتها . وقد كان المعلم  
رزق هذا على شيء من العلم وخصوصاً علم الفلك الذي مهر فيه واصبح  
من رجاله المعدودين . وقد جاءت خبرته هذه فرصة عظيمة للمستتر بروس

السائح الانكليزي الشهير الذي اخترق افريقيا الى بلاد الحبشة . ذلك أن  
بروس المذكور لما أن وصل الى ميناء الاسكندرية عام ١٨٦٨ اصدر المعلم  
رزق الاوامر اللازمة بعدم التعرض له في طريقه وبأن يدخل كل ما  
يحملة مجانيا بدون رسوم عليه . وراى الرجل بهذا الجميل الذي اعتبره من  
حسن حظه ولما وصل القاهرة ارسل هدايا تقيده للمعلم رزق الذي لم  
يقبل تلك الهدايا بل ردّها مع رسول وزوده بمثلها واعطاه خطاباً لطيفاً  
للمستتر بروس يرجوه فيه أن يزوره بعد أن يستريح من عناء السفر  
ليستعمل الآلة الفلكية لاغراضه العلمية وقد تحصل له ايضاً على براءة  
حماية من علي بك بعدم التعرض له مطلقاً طول اقامته بالديار المصرية  
كما انه بتوصية منه تمكن ان يقضي ايامه في حصن باليون حيث خصص  
له البطريرك بضع غرف تحت امرته في ذلك الحصن وبعد أن اقام بضع ايام  
هناك ابتدأ في سياحته فساfer الى الصعيد في باخرة نيلية . فلما أن وصل  
من اصوان الى الاقصر اتجه نحو القصير وسار عن طريق البحر الاحمر  
الى بلاد الحبشة ثم عاد من الحبشة الى مصر براً بان سار في مجاهل افريقيا  
حتى وصل الى اراضي السودان التي كانت في ذلك الحين مهجورة وغير  
ماهولة وفي حالة انحطاط شديد كما كانت كذلك دائماً . أي بعد ان قامت  
دولة زنجية اسلامية وسحقت الدولة المسيحية التي كانت تحكم البلاد من الجنوب .  
وبعد ان بسط ولاية ذلك الملك الزنجي مؤسس تلك الدولة وبسطوا نفوذهم  
على جميع الاقطار السودانية من سنار . وقد صادف ذلك السائح العظيم عقبات



شديدة في طريقه من حيث احتقار الاحباش له وعدم اهتمامهم بامرهم  
وبهمته فضلا عما ناله من الدم الشديد والقدح الذي ما بعده من مزيد  
ومع كل ما لاقاه فقد وقع هو ايضا في خطأ فوق المؤمل من نبوغه  
ويظهر ان ذلك الخطأ لم يلاحظه عليه احد وهي انه لم يكتشف ابدأ عمل  
الكنيسة القبطية الاصل في بلاد الحبشة

ومع أن بطريرك الاقباط كان يزوده دائماً بجوابات التوصية التي  
لا يستطيع بدونها السير قدماً واحداً في سياحته وهو آمناً على حياته  
ومع انه كان يتكلم باخلاص ويشكر الذين ساعدوه واظهروا له العطف  
من ابناء تلك الكنيسة فان ما كتبه في تاريخه كله كان على الكنيسة  
اليونانية لانه كان يعتقد أن مرقس بطريرك الكنيسة اليونانية  
الارثوذكسية هو الذي تتبعه كل الديار المصرية وبلاد الحبشة ويظهر انه  
لم يسبق له المعرفة بان هذا البطريرك قبرصي بدليل انه لم يقض الا زمناً  
قصيراً من حياته الى هذه الديار المصرية

وما وصل المستر بروس من سياحته هذه الطويلة الى مصر حتى كان  
علي بك الكبير قد سقط من شاطئ عظمته التي اقترب عدة جرائم عظيمة  
في سبيل الوصول اليها. على أن سقوط علي بك وهلاكه لم يرجع الى  
مساعي سلطان تركيا الذي كان استعد علي بك لمحاربه بعد ما بنى القلاع  
والاستحكامات الحربية في الاسكندرية ودمياط ولا الى انتقام احد  
الامراء البكوات الذين شتمهم هنا وهناك ونفاهم بل يرجع الى ما اصابه

من خيانة احد مماليكه الاخصاء المسمى محمود ابو الذهب (١) الذي كان  
اشتراه صغيراً ورباه مع عبيده ولما أن اشتد ساعده اعتقه ورقاه مع امثاله  
فشب على اخلاق سيده وطباعه كثر النزوع الى العلاء ميالا الى الخيانة.  
وقد رقي اولاً الى وظيفة سنجق ثم عينه علي بك قائدا للجيش الذي  
انتصر به مراراً في سوريا والحجاز ودفعه هذا النصر وهو في سوريا الى  
تأليف مؤامرة من الضباط الذين اتحدوا معه على عصيان مولاه علي بك  
وبدلاً من أن يسير مع معسكر الجيش للحرب انقطع في الطريق ورجع  
ثانياً الى مصر ورفض العودة الى ميدان القتال. فلما أن رأى علي بك  
خيانة ابو الذهب ولاحظ أن الجيش كله في جانبه لم يتجاسر لمعاقبته علناً  
بل أصر على قتله غدرآ بان امر بمحاصرة منزله ليلاً فلما شعر بذلك ابو  
الذهب خرج سريعا في مقدمة اتباعه واخترق صفوف المحاصرين وفر  
هارباً الى الصعيد حيث اتحد في الحال مع البكوات وجيوشهم الناقين  
على علي بك الذي ارسل وراءه تجريده عسكريه لمطاردته لكن رجالها  
جميعاً خانوه واتحدوا مع رجال محمود ابو الذهب الذي كان يرشي الناس  
باليمن والشمال من بضع سنين ولم يعد منهم الى القاهرة الا نفر قليل من  
الذين ثبتوا على الولاء له واخبروه بما كان من امر رفقائهم. فجرد

١ دعي ابو الذهب لانه لما رقه مولاه علي بك الكبير لوظيفة سنجق كانت  
عطايه وانعاماته للشعب الذي يهنه بالعملة الذهبية بعكس اقرانه الذين كانوا ينعمون  
على الناس بالفضة وظل طول حياته ينعم بالذهب



حملة عسكرية أخرى وظل يجند الجيوش ويرسل وراء أبو الذهب تجريده بعد الأخرى بقيادة قائد يدعى علي بك ليقابل أبو الذهب ويصالحه أما علي بك نفسه فتحصن مع باقي جيوشه عند دير البساتين الذي اخذه من الأقباط وجعله حصنا حريباً ثم بنى المعاقل والحصون والطوابي من نهاية ذلك الدير الكائن على شاطئ النيل حتى آخر سفح المقطم ووضع المدافع الكبيرة في ذلك الخط الحربي العظيم بين تلك الحصون العظيمة ولكن مع كل تلك الاستعدادات والاستحكامات الحربية فإن أبو الذهب نزل لمحاربتة وتغلب عليه وهزم جيوشه التي خائته أغلبها وانضمت إلى جيوش أبو الذهب فلما رأى علي بك ذلك خامره اليأس وتيقن أن آخرته قد دنت فلما جاء الليل هجر مركزه بعد أن أسرع في جمع ذخائره وكنوزه وممتلكاته الخصوصية وأمواله وفر هارباً من القاهرة إلى سوريا فحل أبو الذهب دون أن يضطر لعمل حربي أو لرفع سلاح لأن الأهالي وباقي الأمراء والمماليك كانوا من أعوانه كما تقدم ولكن مع سروح هذه الفرصة لأبو الذهب وامتلاكه البلاد المصرية بهذه السهولة فإن أول أعماله كانت سلب وحرق دير البساتين الذي كان متخذة علي بك خصمه مأجلاً له ثم دخل القاهرة دخول الفاتح القاهرة وسار يقطع رأس كل رجل يشتبه في ولائه لعلي بك وأمر بجمع كل العملة التي ضربها المعلم رزق من أيدي الجمهور وضرب خلافها باسمه وبعد أن استقر على أريكته كتب لسلطان تركيا أنه خلص البلاد من علي بك وأكد له أنه

سيظل حاكماً لها وخاضعاً لسيادته وعبر عن ميله واستعداده لقبول والي جديد على مصر من قبل الباب العالي ثم أمر بعض البكوات المماليك بكتابة جواب لعلي بك في سوريا يرجونه فيه الرجوع إلى مصر واكدوا له بأنهم يخونون محمد أبو الذهب وينضمون معه حالما يعود أما علي بك فقد تجددت له قواه الحربية في أثناء ذلك بواسطة مصدرين عظيمين وهو في سوريا أولهما أنه أقام الخبائرات بينه وبين دولة روسيا (ولا يخفى أن الروسين هم الأعداء اللداء الطبيعيين للأتراك العثمانيين) فأقرضته روسيا قوة الحرب والطوبخية «المدافع وما يختص بها» ثم الذخائر الحربية وثلاثة آلاف من العساكر اللبنانيين وثانيهما أنه عقد محالفة جديدة مع الشيخ الظاهر والي عكا كما أن أحد قواده قام بتجريدة حربية وأعاد افتتاح طبرية ومدينتين على شاطئ سوريا بخلاف ياقا وغزوه والرملة ولیدا وعاد منتصراً لعلي بك الذي تنازل عن هذه البلاد بعد افتتاحها إلى الشيخ الظاهر والي عكا.

فلما وصل إلى علي بك ذلك البلاغ والدعوة الكاذبة من المماليك المصريين حول حال وجهته جيوشه إلى مصر وسار بهم حتى وصل إلى الصالحية وهناك التقى بجيوش أبو الذهب فانتصر علي بك في أول معركة قامت بين الجيشين ولكن مماليكه الخائنين ظهر منهم نوع التراخي فلم يثق بهم وخدمهم مع جيوش أبو الذهب الذي لما انس من نفسه انهزاماً في المعركة الأولى وقف بين جيوشه المصرية يخطب متحمساً



ويحرضهم على الاستقلال في الحرب استقتالا وحماساً دينياً لانه كان يقول لهم أن الله لا يسمح لعللي بك الذي هجر الدين الاسلامي ودخل في مخالفة مع النصارى الكفار أن ينتصر عليهم وعلاوة على هذه الخطب الحماسية الدينية فانه تمكن بواسطة الدسائس والخدع والرشوة مع ابراهيم بك ومراد بك المساعدين العظيمين لعللي بك واتحد معها على عصيان سيدهما والانقلاب عليه وقت الحرب والانضمام مع الجيوش المصرية . فعلاوه على الرشوة العظيمة التي اخذها مراد بك من ابو الذهب اشترط عليه ايضاً انه اذا خان علي بك وانضم معه يعطيه الست نفيسة زوجة علي بك وهي امرأة شركسية الاصل بارعة في الجمال . فقبل ابو الذهب بهذا الشرط ولما التحم الفريقان في الحرب خان اليكان علي بك وانقلباً عليه بانضمامهما الى صفوف ابو الذهب فلما رأى جيش علي بك ما كان من امر مراد بك و ابراهيم تفهقروا وهرب ولكن استمر عشرة من المماليك الذين ظلموا على الولاء لعللي بك في الدفاع معه باستقتال عظيم حتى تطلب عليهم رجال ابو الذهب وذبحوهم عن اخرهم وجرح علي بك ايضاً جرحاً مميتاً فحملوه الى القاهرة حيث توفي فيها بعد سبعة ايام . وقيل أن ابو الذهب ارسل الى اطباء الدين ارسلهم لعيادته أن لا يشفوا علي بك من جر

مات علي بك الكبير بعد تلك الاعمال الحربية والسياسية العظيمة ومن عظيم اعماله الاصلاحية المباني العظيمة الكثيرة العدد التي شيدها في البلاد المصرية من العشرة سنوات حكم فيها . واخص اعماله من هذا

النوع في بولاق حيث شيد سوراً عظيماً وسوقاً كبيراً جاً . منظر لك السوق رديئاً لانه حال بين مناظر الحدائق الغناء التي كانت هناك ويقول الجبرتي انه من اقبح المباني التي شيدت . وفي النصف الاخير من ذلك العصر شيد الامير عبد الرحمن عمارات كثيرة عظيمة اذ قد بنى ورمم ثمانية عشر جامعاً كبيراً في القاهرة . منها جامع المغربلين وجامع السيد السطوحية قرب باب الفتوح وجامع سيدنا الحسين وجامع السيد زينب ولكن هذا لم يتم بناؤه الا بعد وفاة علي بك والامير عبد الرحمن يوضع سنوات . ثم جامع السيد سكينه . واخر يدعى جامع السيد عيشه . وجامع ابو السعود الجارحي وجامع الشريفين الكردي وجامع الشيخ الحنفي وثلاث جوامع اخرى لم يتبين اسمها في التاريخ ضمن الجوامع الجديدة التي تشيدت . وشيد ايضاً الامير عبد الرحمن كثيراً من المدارس والسبل « محال عمومية للشرب » هذا ما عدا الجسور والكباري والمنازل الخصوصية .

ولكن كل هذه الاعمال العظيمة لم تشفع له لدى الجبرتي المؤرخ العظيم الذي وصمه بوصمة البخل الشديد الذي لا يطاق وهي الخلة التي جعلته يجمع كثيراً من الاموال بطريقة غير شرعية وهو كان المخلص الوحيد لعللي بك الكبير ولكن علي بك لما رأى نفسه قوي الجانب وفي امن من بطش اعدائه ومن معاكسة حزب عبد الرحمن له قابل اخلاصه بالنفي الى الحجاز . ولكن عاد فاستدعاه من الحجاز سنة ١٧٧٦ م حيث



كان قد طال عليه مدة النفي واصبح رجلاً عجوزاً فتوفي بعد عودته للقاهرة ببضعة ايام .

ولما استتبحت الاحكام والبلاد في يد محمد بك ابو الذهب استدعى كثيراً من الامراء المماليك الذين كان تقام علي بك وصرح لهم بالعودة لحالتهم القديمة واعطاهم امتيازاتهم التي كانت قد سلبت منهم . ولكن لم يتمتع بالقوة العظمى التي كان تتوق نفسه اليها في البلاد من بضع سنين . وفي سنة ١٧٧٥ م غزا سوريا التي كان معظمها باقياً تحت يد الشيخ الظاهر . فهجم على يافا واخذها عنوة وذبح سكانها كالغنم عن اخرهم يهودياً ومسلماً ومسيحياً على السواء وسب النساء واعطاهن فريسة باردة لعساكره ووزع عليهم ايضاً الاطفال كزقيق . فهالت هذه الفعالة الدموية المفزعنة كل البلاد السورية . فترك الشيخ الظاهر مدينة عكا بعد أن امر السكان باتخاذ الوسائط والشروط التي يمكنهم اتخاذها مع ابو الذهب وايس عكا فقط التي سلمت لجيوش ابو الذهب الفاتحة بل سلمت له ايضاً كل المدن الاخرى بدون مقاومة بالكلية . فارسل ابو الذهب الى رجاله في القاهرة يأمرهم بتزيين القاهرة وانارتها بالانوار احتفاءً به لانتصاراته في الشام . ولكنهم بعد أن اقاموا الزينات الباهرة تلقوا اخباراً بأنه مات في الشام واعتقد المصريون عقب وفاته بان موته كانت لشدة فرحه بنجاحه وانتصاراته .

مات محمد بك ابو الذهب وترك مصر في يد ثلاثة من كبار المماليك

البكوات لانه من عهد أن صارت البلاد في يده الى أن مات كانت الباشوات ( الولاة ) يحضرون ويؤوبون من ولي القسطنطينية بدون سلطة ولا نفوذ لانهم لم يكونوا الا عبارة عن العوبة في يد المماليك يمثلون بها عظمة السلطان العثماني ويجعلونه راضياً عن البلاد بسلطته الاسمية وجزية السنوية . اما المماليك الثلاثة الذين تولوا البلاد فهم اسماعيل بك الذي عهد له حكم البلاد المصرية مدة غياب ابو الذهب في فتوحاته السورية . ثم ابراهيم بك محافظ القاهرة ثم براد بك الذي ارتقى الى وظيفة القائد العام للجيش المصرية على اثر وفاة ابو الذهب وكل هؤلاء البكوات كانوا من خدام وعبيد علي بك الكبير وخانوا سيدهم كما تقدم واصل الملوك الاول اسماعيل بك غير معروف اما الاثنان الاخران فمن اصل شركسي .

ولم يمض وقت طويل على هؤلاء الثلاثة الا وقام النزاع والخصام بينهم فانشقوا على بعضهم بان أحمد مراد و ابراهيم ضد اسماعيل بك وبعد مناوشات ومعارك حربية بينهم كانت نتيجة تلك المعارك وقوع التماسه والشقاء بطرق متعددة لا تحصى على الاهالي الابرياء . ثم قامت معركة هائلة هزم فيها اسماعيل وخلا الجو للاميرين الجرکشييين . فهجر اسماعيل البلاد ولكنه عاد اليها بعد بضعة شهور بعد أن جدد تواد وهجم على اعدائه فما اكذب الا انه زاماً ساحقاً في الصحراء الواقعة على مقربة من حلوان . ثم هرب واختفى في احدى الغاور الكائنة في سفح القطم



وظل مختبئا فيها ثلاثة ايام اما اعداؤه مراد وابراهيم فزها بيته وجميع  
ممتلكاته وقتلا جميع من في بيته وظلا يهربان ويسلبان من الاهالي في طول  
البلاد وعرضها مهزأين بقوة السلطان بدليل انها قدما اليه التقارير الضافية  
يثبتون فيها أن الاموال التي تستحق لمصر من الباب العالي تزيد عن  
الجزية السنوية التي تدفعها له وفي المدة بين عامي ١٧٧٧ و ١٧٨٠ م كانت  
الحكومة الفرنسية ارسلت الميسور سونيني للسياحة في البلاد المصرية  
وكان الغرض من بعثته هو اختبار حالة البلاد العلمية والسياسية لان  
الحكومة الفرنسية كانت تفكر وقتئذ في الحملة التي ارسلتها بعدئذ  
بقيادة قائدها العظيم نابوليون بونابرت . ولو أن المستر سونيني كان بلا  
شك من فطاحل العلماء الا انه عدم خبرة وحالة اخلاقه الشخصية لا تؤهلانه  
للسياحة والبحث في مصر وفضلاً عن ذلك فانه كان يصدق كل شي ويقال  
له ولو كان الكلام مما لا يقبل التصديق سيما ما يكون ضد المصريين  
وعلى الخصوص الاقباط منهم . وكان ذو تحزب شديد ومغرض جداً  
للمماليك الظالمين المستبدين . ولو انه التزم أن يكتب في تقاريره أن هؤلاء  
المماليك هم المسؤولون عن خراب وانهيار البلاد . وصرف معظم اقامته في  
مدينة رشيد التي كانت المدينة الوحيدة التي يتمتع فيها الاوروبيون بحرية  
اكثر من كل بلد اخرى في مصر . اما في القاهرة فبالكد ما استطاع  
أن يظهر نفسه خارج بوابة حي الفرنسيين بالنسبة لحاله المدينة المزعجة  
المرتبكة ثم قام في حملة من رشد الى وادي النطرون . وبعدها قام في حملة

اخرى من القاهرة الى الصعيد مسلحاً بخطاب من مراد بك . (١) وهو  
متنكر بصفة طبيب فبكل صعوبة بهذه الحيلة امكنه أن يواصل سيره  
حتى مدينة الاقصر على امل ورجاء أن يصل الى الحبشة عن طريق  
السودان . ولكن لما انتشبت حرب اهلية في الصعيد التزم أن يعود  
الى القاهرة . وذكر في تاريخه أن كل الاورباويين في القاهرة يستخدمون  
البرابرة في منازلهم ما عدا الفرنسيين الذين حذرت عليهم حكومة  
فرنسا ذلك من عهد ما قتل الميسور دي رول سنة ١٧٠٦ م .

ولما رأى السلطان عبد الحميد الذي ارتقى العرش العثماني سنة ١٧٨٤ م  
أن الجزية المالية حتى لم تسدد له من مصر القائم بأمرها مراد بك قصد  
الداخلية في الامر والنظر في هذا التقصير . وما كان يعتني أو يلتفت الى  
مضايقة مصر العمرانية أو مركز نائبه على مصر الذي اصبح صفراً بل  
كل عنايته والتفاته هو للحصول على الجزية المالية ولذلك عزم على محاربة

(١) ذكر الميسور سونيني في تاريخه عن مصر انه بعد أن طرد اسماعيل بك  
منفيًا احب مراد بك أن يقتل احد اصحاب اسماعيل كان قد التجأ متحصناً في  
القلعة فاستحضر مهندساً انكليزياً اسمه روينسون وطلب منه أن يحرق له القلعة  
فابى المهندس الانكليزي ذلك ونحجج في اعتذاره أن مثل هذا العمل يحتاج  
لمهاريس ( آلات ساحقة ) وبومب ولا يمكنه استجلاب هذه الادوات من جهة  
اقرب من مدينة البندقية . فمراد بك عوضاً عن يقطع رأس هذا المهندس كما كان  
يفض الميسور سونيني اطلق سبيله واعطاه الف سكويين والسكويين قطعة عملة ذهبية  
على عصر جمهورية البندقية تساوي خمسة واربعين غروش صاغ مصري



مصر وضربها .

قبي سنة ١٧٨٦م (١) (١٢٠٠) هـ واذا بالجيش التركي وصلت الى الاسكندرية بقيادة حسن باشا فلما شعر بها الاميران مراد و ابراهيم بك هما الي صدها فقامت بين الفريقين معركة دموية هائلة دارت فيها الدائرة على المملوكين الذين فرا الى الصعيد وتركوا حسن باشا اثرآ بجيشه الى القاهرة بدون مقاومة (٢) فتسلم وخضوع الاهالي الابرياء بكل ارتياح لم يخلصهم بالاسف من بواعث البؤس والتعاسة التي حاقت بهم بطرق مختلفة من جنود الجيوش التركية التي كانت تترك كل بلد تمر عليها خراباً

(١) في اوائل سنة ١٧٨٦ كان الباب العظيم لجامع السلطان حسن قد تم بناءه وافتتح باحتفال ديني عظيم وهدمت الدكاكين والمخاض التي كانت بنيت امامه وقد كان هذا الباب مبنياً من منذ خمسين سنة ولكن لما قتل الاحدى عشر اميرا من طائفة القفارية سنة ١٧٣٦ م قد حرق القائلين باب هذا الجامع العظيم ليختبئوا فيه من اعين المنتقمين

(٢) اعلمت الحكومة الروسية ان سلطان الدولة العلية قاصد ارسال حملة حربية الى مصر او عزت الى فصلها في الاسكندرية بتعليمات سرية ان يبعد بمحاولة مع البكوات الممالك ضد الدولة العلية . ففي الحال ابتداء القنصل بفتح المخابرات بين مراد بك و ابراهيم بك في هذا الصدد ولكن هذان المملوكان رفضا كل مداخلة اورباوية فلما انها كفوا لمقاومة الدولة العلية وحدها بعد ان يتما استعداداتها الحربية لكن لما وصل حسن باشا التركي بجيشه الى الاسكندرية فجأة كانه قد سبق السيف العزل

تبعاً في طريقها الى القاهرة وكان الفلاحون سعداء الحظ في تلك البلاد لانهم هم الذين يتمكنون من الهروب قبل وصول الجيش التركي الى بلادهم راضين بالنجاة بانفسهم مقابل ترك محصولاتهم وممتلكاتهم وزراعاتهم ضحية لتلك الجنود

وقد دخل حسن باشا بجيشه الى القاهرة في اول اغسطس سنة ١٧٨٦م وكانت اول اعماله مصادرة كل ممتلكات المملوكين العاصيين وبيع كل شيء لهما في المزااد العمومي حتى نساؤهما الخوصية ثم ارسل وراءهما حملة تركية الى الصعيد . وبعد وقوع مذبحة دموية عظيمة من الجانبين وخراب الصعيد كله هربا الى السودان . وعادة الحملة التركية الى القاهرة

وقد مكث حسن باشا محتلا البلاد بجنوده مدة سنة اعاد في اثنتائها اسماعيل بك الى قوته الاصلية وجعله شيخ البلد . ثم حاكم عدد عظيم من الممالك المشهورين بكثرة المشاغبة في البلاد . وبذا تمتعت القاهرة بالامن في شوارعها طول مدة اقامته فيها . لكن هذه البلاد التعيسة الحظ لم تتقدم للامام الا قليلا جداً بعد هذا النظام الذي اتاه حسن باشا . فقد حل بالبلاد وقتل طاعون المواشي بوطئه عظيمة اذ قد تفق به كل مواشي القطر المصري تقريباً وقد زاد الحكم الطين لاهالي اذ عوضاً عن أن يخففوا الضرائب مراعاة لمش هذه الظروف قد زادوها اكثر مما كانت



وقد تألم الاقباط كثيراً وذلك كما هي العادة اذ دائماً يكون لهم القسط الاوفر من كل مصيبة تحمل بالبلاد . فانه مع مشاركتهم اخوانهم المسلمين في مصائب طاعون المواشي فان حسن باشا القائد التركي اوجد لهم طريقة اضطهاد منتظمة . وانهم بعد وفاة ابو الذهب قد انقضت فصل راحتهم وهناؤهم واول ما امر به حسن باشا هو اعادة كل القوانين الخبيثة المفسدة القديمة وتنفيذها عليهم كما كانت في العصور الاولى وكان يترقب لهم بل ويبحث عن طريق يتدخل فيه سبباً لمضايقتهم وسلبهم ونهبهم . وانزل كبار الاقباط الذين ارتقوا للمناصب العالية في عصر علي بك الكبير الى وظائف صغرى جداً واضاع قوتهم ونفوذهم . ونهب منازلهم ومنازل اولادهم . واغتصب ممتلكاتهم وهدم<sup>(١)</sup> عماراتهم . وعلاوه على بعت انواع الاضطهادات القديمة من قبرها لم يكتف حسن باشا بذلك بل اوجد لهم اهانات كثيرة . منها انه اطلق منادين في الشوارع انه لا يجوز لاي قبطي أو يهودي أن يركب دابة على الاطلاق ولا يقتني له عبداً أو جارية

( ١ ) لم ينبج من هذا الاضطهاد الا المعلم ابراهيم الجوهري الذي كان باسكتاب المالية لانه بذكاه جعل نفسه من العموم ومحترماً في عيني المسلمين والاقباط معاً . ولما كانت احكام البلاد في يد ابراهيم بك ارتقى ثانياً الى درجة عظيمة من المقام وتأثيره الادبي على الحكم المسلمين تمكن من السماح للبطريرك باعادة بناء الكنائس والاديرة واهب كثير من اراضيه وامواله للكنيسة القبطية ولما توفي مشي في جنازه ابراهيم بك احتراماً له .

ومن ذلك الحين فصاعداً لا يجوز أن يسمى احد من هذين العنصرين باسم من اسماء الانبياء أو الرسل المذكورين في التوراة وكل من يكون اسمه من هذا القبيل يلزم تغييره في الحال . فغير الاقباط الذين لهم معاملة مع المسلمين اسماءهم باخرى . ومن ذلك الحين صار الاقباط يسمون انفسهم امام المسلمين الذين يعاشرونهم ويعاملونهم باسماء ويعرفون فيما بينهم باسماء اخرى . واما الان فاسم القبطي الاصلي اصبح علماً فقط للعائلة واعظم الاقباط اتخذوا اسماء والقبائل تركيه

وقد نفذ حسن باشا بقوة بطشه هذا الامر في ايام قليلة فقط وصار يقتصب كل الجوار والعبيد الذين عند الاقباط اذ صرح لمساكره ان يهجموا على منازلهم ويطردوا بالقوة الى خارجه كل جارية او عبد يخدمونه فيه . ولا بد ان يكون ذلك درساً طبيعياً خاصاً للاقباط . وجمع حسن باشا كل هذا الرقيق في فرقة عظيمة وساقهم الى القلعة حيث عرضهم للمزاد العمومي . واشترى المساكر اغلب هذا الرقيق وجعلوا القلعة سوقاً للرقيق يبيعون فيه العبد او الجارية بثمن فادح لكل من يطلب المشتري .

ثم امر حسن باشا بحصر عدد الاقباط وعدد بيوتهم وكل ممتلكاتهم وفرض عليهم ضريبة ٥٠٠ كيس نقدية يدفعونها للحكومة وزاد عليهم ضريبة الانفس مضاعفة اذ الشخص القبطي الذي كان يدفع ضريبة ديناراً عن نفسه (لا فرق بين رجل وامرأة كبير او صغير) الزمه ان



يدفع دينارين ثم الاقباط الذين كانوا مستخدمين في دوائر كل من مراد بك و ابراهيم بك وهما الاميران العاصيان للذان حضر لتأديبهما قد زاد عليها الضريبة ضعفاً آخرآ. لانه في ذلك الحين كان دائرته واسعة وكل دائرة من دوائر كبار الاسلام لا يستخدم في ديوانه وحصر اشغاله وحساباته الا الاقباط لما هو مشهور عنهم من الاجتهاد والذكاء والامانة ولذلك بلغت ضريبة الاقباط الذي كانوا مستخدمين في دائرتي مراد و ابراهيم ٧٥٠٠٠ خمسة وسبعين الف ريال وكان ذلك في زمن البطرك يوحنا الثامن عشر. الذي لم ينج هو من اضطهاد حسن باشا اذ أمر هذا القائد بضبط خزينته واخذ امواله. ولكن لحسن حظ البطرك ان السلطان ارسل في خريف سنة ١٧٨٧ م (١) يستدعي حسن باشا من مصر ليقود حمله عسكريه في الحرب بين روسيا والدولة العلية. فقام حسن باشا لاوروبا وترك البلاد في يد اسماعيل بك بدون منازع له ولا معارض. لان عبيد باشا الوالي الجديد من قبل الدولة العليا كان وجرده كعدمه. وكانت

(١) في أوائل هذه السنة وقع الاقباط أيضاً في مصائب عظيمة جديدة. وذلك انه تصادف مرور عبيد باشا والي الدولة مع اسماعيل بك في حي من أحياء المدينة تصادف انه لم يعرفه من قبل فسأل اسماعيل بك وهو راكب بجانبه ما اسم هذا الحي فما كاد اسماعيل بك يجاوبه بأن اغلب هذا الحي مأهول بالمسيحيين الا واصدر عبيد باشا امره بهدم بيوت هذا الحي في الحال فتدارك كبار الاقباط الامر قبل تنفيذ الهدم ووعدوا بدفع ٣٥٠٠٠ خمسة وثلاثين الف ريال دفع السوريون منهم سبعة عشر الفا والباقي دفعه الاقباط

قوة اسماعيل بك في الحقيقة محصورة جداً في حد معلوم لان الاميرين مراد و ابراهيم كانا لا يزالان عاصين (١) وواضعين يدهما على صعيد مصر لغاية شمال المنيا

وظلت احوال الضيقات والمرائر والشدائد العظيمة تتوارد بضعة سنين. اذ يقول الجبرتي ان في ذلك الوقت. كان دولاب الاعمال وحركة الاشغال العمومية واقفة بالمرة وكنا نشعر بتماسة اكثر مما رأينا طول ايام حياتنا. من ذلك ان الطرق تخربت وما كان يوجد نقطة واحدة في أمن من السلب والنهب والبطش بالمارة اذ لو لم تقع تلك المصائب بواسطة الامراء الممالك يمارسها العرب البدو. وهكذا كانت الحال في جميع انحاء القطر اذ لم يكن احد يأمن على حياته او ممتلكاته. وحتى قافلة الحج الى مكة لم تنج من رجال الخطف والنهب. وكان اسماعيل بك يجتهد عبثاً في تقوية مركزه باستجلاب الجنود الالبانية والرومية من بلاد الدولة العلية فان هذه الجنود الغريبة كانت تزيد بزور جديدة في الشقاق والنزاع بين الالايات المختلفة في الجيش

(١) يقول الجبرتي في تاريخه انه في سنة ١٧٨٩ وصل لتركيا سفير هندي من قبل السلطان حيدر الهندي يطلب من سلطان العثمانيين مساعدته في حربه ضد الانكليز في الهند فقال له السلطان عبد الحميد ان يذهب الى مصر ويطلب رجال القرعة منها. ويقول الجبرتي لما حضر هذا السفير الى مصر وصار يعصم الذين يريدون التجند معه لم يتبعه كثيرون من المصريين كما كان ينتظر



وفي اوائل ربيع سنة ١٧٩١ م ( ١٢٠٥ هـ ) اصبحت البلاد بوباء عظيم لانه كان كثير الوقوع في هذه البلاد التيمسه في بحر المصريين السابع عشر والثامن عشر. وقد مات اسماعيل بك بالوباء بين الالوف الذين ماتوا به. فبموته خلى الجو لرجوع الاميرين مراد و ابراهيم الى القاهرة وكان قد اختلف الامراء الباقيين بالقاهرة فيما بينهم على من هم يخاف اسماعيل في اماره البلاد. فدخل الاميران مراد و ابراهيم القاهرة في يونيو أو يوليو من تلك السنه واعترف بهم الباقيون والشعب انهما اسياد البلاد الاصليين واصبحا حاكمي البلاد ثم رأيا ان عائلتيهما هلكتا وممتلكاتهما قد بيعت ووضعا ايدهما على ممتلكات الامراء الذين ماتوا بالوباء وتزوجا بارملاتهم وحازا عبيدهم وجواربهم. وأمر الجنود السوريين والالبانيين الذين استحضروهم اسماعيل ان يغادروا البلاد حالاً في ظرف ثلاثة ايام. وفي تلك السنه ايضاً لم يرتفع فيضان النيل لدرجة تذكر بالمره فمجز محصول البلاد عجزاً عظيماً وكان ذلك زيادة تعاسة وشقاء للاهالي. فصار مراد بك و ابراهيم بك يطوفان شوارع المدينة ويقبضون على التجار الذين يبيعون الغلال باسعار فاحشه للاهالي تخفيفاً لاحوال المجاعة فلم يجد ذلك نفعاً لانه بعد أن يذهب الاميران الى سبيلهما من امام التاجر يعود لبيع الحبوب باسعار فاحشه جداً. اما الاميران فقد خزن لا تقصها اشواناً لانه بالغلال من الوجه القبلي لكن كانت هذه الغلال مخزونه في منازلهم ولا يفرطون للبيع أو للتصديق منها للاهالي الذين يموتون

جوعاً. ولذلك يقول الجبرتي سادت في طول البلاد وعرضها احوال الظلم والاستبداد وعدم العدل.

وفي سنة ١٧٩٣ هجم العرب مرة ثانية على قافلة الحج وقتلوا اغلب الحجاج ونهبوا ما يمتلكون. فقامت ثورة عامة من المصريين على الاميرين لانهما لم يقوموا بايقاف ذلك العداء فانقلب عليهما المصريون عموماً مسلحين وغير مسلحين ولم يتمكن الاميران من الخلاص من هذه الثورة الا بعد أن استكتبوا كبار مشايخ الاسلام باتعام اصلاح طريق الحج وتأمينه على الحجاج ووضع حد لتلك السرقات والنهب والسلب وارسلا المرتبات المعتادة الى مكة حتى لا يعدد للعرب سبيلاً للاعتدى على الحجاج. ولكن بالاسف لم يدم العمل بهذا القرار الا مدة شهر فقط وعاد بعده السلب والنهب اكثر مما كان اولاً. وكانت حالة مصر الاجتماعية في نهاية القرن الثامن عشر ارباً من كل حالاتها في القرون التي تقدمت هذا القرن من بعد الفتح الروماني. اذ اندثرت صناعاتها وكادت تجارتها وانتكست حالتها الى حالة الهمج والبربرية التي ذهبت بتمدن السودان وذهبت ايضاً بارض مصر الخصبة وتمدن مصر التاريخي ولكن بفضل الاورباويين الذين كانوا فيها وقتئذ وبفضل تعاضدهم بالامتيازات الدولية التي لدولهم تمكنوا من استبقاء شرارة الحياة التجارية الضعيفة التي كانت باقية لمصر لانهم لم يكونوا غير مرتاحين لتلك الحالة الآيلة الى الدمار. وان الفرنسيين الذين كانوا وقتئذ يطمعون بغزو وفتح بلاد كل العالم نسوا أن القرصه قد اصبحت



والوقت قد دنى في احتلال مصر



## الفصل الحادي والسبعون

دخول الفرنسيين

سنة ١٧٩٨ مسيحية و ١٥١٤ للشهدا و ١٢١٢ للهجرة

وصل بونابرت العظيم الى مرفأ الاسكندرية في اول يوليو سنة ١٧٩٨ بسبعة وثلاثين الفا من رجاله ولما رسي بدراعه خارج المرفأ أرسل قارباً للداخل المنيا يستقدم فيه القمل الفرنسي للمداولة معه قبل الابتداء في اعماله الحربية . فلما ذهب اليه القمل اخبره انه في ٢٨ يونيو اي قبل وصواه يومين كان الانكليز تحت قيادة نلسن هنا في مياه الاسكندرية يبحثون على أسطول الفرنسيين . ولما وجدوا انه لم يشعر بهم احد في الاسكندرية اقلعوا مسافرين ثانياً للبحث على الفرنسيين في بحر الروم . ومع ذلك مدة وقوف الاسطول الانكليزي في مياه الاسكندرية كان تمكن الاميران نلسون في الاسكندرية من مقابلة السيد محمد كريم محافظ القاهرة وحذره من الخطر القادم المصدق به من الفرنسيين . ولكن حكام مصر المسلمين لا ارتكانهم واثمانهم وهي

الخلة المتولدة فيهم من الجهل بتقدير الاحوال والظروف قد رفضوا كل محالفة او مساعده من جانب الانكليز

اذ قال محافظ القاهرة ومن كان حاضراً معه في الاسكندرية من الحكام المسلمين للاميرال نلسون ان البلاد ملك السلطان فلا يمكن للفرنسيين او غيرهم ان يمسوها بشيء . فما كان من الاميرال الانكليزي الا انه انسحب من الاسكندرية باسطوله . ثم أرسل السيد محمد كريم الى القاهرة يخبر رجالها بما كان . فقبول هذا الخبر هناك بذات الاحتقار وعدم التصديق الذي قبول به في الاسكندرية . وصار الامراء يتباهون معتزين بمظمتهم الفارغة جبراً امام الناس قائلين ان كل الاورباويين موماً لا يمكنهم الوقوف امامهم لحظة واحدة في ميدان القتال وان واجهوهم في معركة لا يكون نصيبهم الا الحق فقط تحت حوافر خيولهم (خيول الامراء)

وبعد سفر نلسون بثلاثة ايام ظهر الاسطول الفرنسي في ميناء الاسكندرية لاجل الناظرين . فاندش حاكم الاسكندرية وأرسل رسالة مستعجلة مختلفة المعنى كثيراً الى مراد بك بالقاهرة يقول له فيها (مولاي: ان الاسطول الذي اقترب لنا تماماً اراد كثير العدد جداً وغير ممكن معرفة اول بوارجه الحربية من اخرها فاستحلفك بالله وانيه ان أرسل لنا بعض رجال من جيشك .)

فلما وصلت هذه الرسالة الى مراد بك ركب وتوجه توجاً الى منزل



زميله ابراهيم بك ( وهو مستشفى القصر العيني الآن ) واخبره بما كان  
 فعقدوا مجلساً منهم اومن رجال الحكومة . فصرفوا وقتاً طويلاً في لوم  
 واتهام بعضهم بعضاً في اهمالهم لوصول الخطر لهذه الدرجة واخيراً اتفقوا  
 على ان يراد بك يقود جيشه ويسير به متجهاً نحو الاسكندرية على شاطئ  
 النيل الايسر ليقابل جيش الفرنسيين و ابراهيم بك يحتل بولاق بجيشه  
 ويحفظ معه قوة عظيمة للدفاع عن القاهرة اما ابو بكر باشا الطرابلسي  
 والي الدولة العلية ارسل رسولاً سريعاً الى القسطنطينية يطلب المدد .  
 وفي اثناء ذلك كن مركز جميع المسيحيين في القاهرة اورباويين  
 ووطنيين حرجاً جداً وحياتهم في غاية الخطر . وذلك لان المسلمين  
 اجتمعوا في ديوان الحاكم وقرروا ان اول الوسائط التي يتخذونها عند  
 اقتراب الفرنسيين هي قتل كل مسيحي في القاهرة في مذبحه عمومية .  
 وقليل من المسلمين الذين كانوا يعرفون سوء عاقبة هذه السياسة وصعوبة  
 هذا العمل الفظيع في مثل هذه الظروف ولكن كان الامير ابراهيم بك  
 اكثر تودداً للمسيحيين من زميله مراد . فوعده بالاستمرار على حمايتهم  
 وحافظت زوجته على كثير من العائلات الاورباوية . اما الاقباط فكان  
 المسلمون يسبونهم ويأمنونهم كل يوم بطريقة عنيفة ويهددونهم بالنهب  
 والنهب في اول فرصة . ثم هجم المسلمون على كنائسهم وادبرتهم ومنزلهم  
 بالسلاح ويقول الجبرني انه بكلمة واحدة من الحاكم المسلم اصبحت كل  
 البلاد المصرية في لحظة واحدة مرسحاً للسرقات والمذابح بعد ولا يحصى

ونزل بونابرت بجيوشه الى البر في الاسكندرية بدون ادنى  
 مقاومة ولا كفاح . وتسلفت جنوده في الحال اسوار الطواحي المتهدمة  
 وحصنها تحصيناً تاماً جعلها امنع من العقاب .

اما الحكام المسلمون فظلموا داخل تلك الطواحي يقذفون النيران  
 من فتحاتها مدة قليلة ولكنهم سلموا للفرنساويين بعد ظهر ذلك  
 اليوم بلا شرط ولا قيد وتركوا امرهم للمنصورين عليهم يفعلون بهم  
 ما ارادوا لكنهم ما فعلوا بهم الا خيراً .

اما السيد محمد كريم فسلم نفسه لبونابرت بعد ان يتقن بفشله  
 وخذلانه فعيته جاكماً اهلياً للمدينة تحت امره القائد كبير الذي تركه  
 بونابرت مع ثلاثة آلاف عارب بصفة حامية للاسكندرية . وتأسس  
 في الحال مجلس بلدية مؤلف من بعض الاعيان وكبار التجار وانزلت  
 المطابع من السفن الى البر وجهزت لطبع الاعلانات والمنشورات  
 والقوانين والاوامر باللغة العربية وهي التي كان يصدرها نابليون  
 بونابرت مدة اقامته في القطر المصري . وكان معنى تلك المنشورات  
 تقريباً من معنى واحد وملخصها الحض على مساعدة المصريين المضرمي  
 الحقوق كي يتنفسوا الصعداء وتخرس الطبقة الواعية من المصريين للقيام  
 بمساعدة منقذهم ( الفرنسيين ) من الاستبداد وجور المالك .  
 وبهذه المنشورات أيضاً تاكيدات عظيمة بار الفرنسيين هم في الحقيقة  
 ونفس الامر مسلمون حقيقيون وبها ايضاً تهديدات بالعقاب الصارم الذي



يقع على من تظهر عليه اقل مخالفة أو معارضة (١). وقد تكلم بالتفصيل  
اتمام عن هذه المنشورات الثلاث المؤرخون العظام الذين كتبوا عن  
الاحتلال الفرنسي لمصر وهم المستر ريم في كتابه (مصر الفرنسية)  
وعبد الرحمن الجبرتي في كتابه (تاريخ مصر في عصر الفتح العثماني)  
والمستر باتون في تاريخه (تاريخ الثورة المصرية)

وقد برح بونابرت مدينة الاسكندرية في ٧ يوليو من تلك السنة  
زاحفاً بجيشه الى الرحمانية وقد تعب رجال جيشه جداً من العطش وشدة  
الحرارة طول ذلك اليوم — ولما وصل الرحمانية ارسل الجنرال دوجوامع  
اورطة من الجيش الى رشيد لحماية الاوربيين هناك الذين كانوا في خطر  
عظيم. وبعد وصول الجنرال المذكور لرشيد ونجاحه في مأموريته  
استأنف بونابرت السير بجيشه زاحفاً الى القاهرة فكانوا كلما مروا على  
قرية وجدوها خربة خالية من السكان الذين كانوا يمجرونهم باقتراب

(١) من اعظم غلطات نابليون في السياسة اعلانه عن نفسه انه مسلم  
ومصادقته للمسلمين بمجرد وصوله للديار المصرية — فانه لم يصدقه أي فرد من  
المسلمين في اعترافاته بالاسلام بل ادى هذا الاعتراف الى أن المسلمين مزجوا  
رعبهم من الفرنسيين بنوع من الاحتقار — وكان هذا الاعتراف بالاسلام من  
نابليون نازعاً ثقة المسلمين خاصة في كل ما يختص بالفرنسيين وعادماً كل  
الثقة والامانة في عموم الافرنج وهذا الاعتقاد من المسلمين كان لنا اول مساعد  
ذوقية عظيمة في معاملتنا للشرقيين ومن اعظم زلات نابليون ايضاً الزامه كل  
الخاضعين له بلبس الوردية الحربية المثلثة الالوان.

الفرنساويين يحملون كل ما يمكنهم حمله من ذخائرهم ويهربون هائمين على  
وجوههم وقد صادف جيش بونابرت صعوبات وآلام قاسية جداً لشدة  
احتياجه للمؤونة.

وتقابل الفرنسيون عند شبراخيس بمراد بك ومعه ٤٠٠٠ من  
المماليك الراكيين ووقعت بين الطرفين موقعة هائلة انتهت بانهزام  
مراد بك وانسحب متقهقراً نحو القاهرة تاركاً مدافعه وذخائره الحربية  
في طريقه. وانتفى له موقعاً في امبابه وحصنه جيداً عند ضفة النيل وجاء  
ابراهيم بك امامه في الضفة الاخرى من النيل عند بولاق ونى له حصناً  
حربياً منيعاً ومكثا ينتظران العدو وحده عن الدخول للمدينة.

وفي ٢١ يوليو وصل الجيش الفرنسي الى امبابه وابتدأت المعركة  
العظمى في ذات اليوم بين الفرنسيين والمصريين وكانت تلك المعركة  
الهائلة هي القاضية على حظ مصر — وقد ابلى المماليك في هذه المعركة بلاء  
حسناً ولكن رجال جيشهم كانوا غير محصورين داخل النظام العسكري  
بل كانوا يحاربون كأنهم في جهاد بدون اتباع تعليمات قوادهم وبالاجمال فان  
مخارتهم كانت غير منتظمة كالاحوال الحربية من بدأ اشتباكهم مع  
الفرنساويين — وبعد اشتداد المعركة بين الطرفين بضع ساعات هرب  
مراد بك متقهقراً وتبعه من معه من المماليك ووقف بضع ثوان امام قصره  
في الجيزة حيث تمكن من اخذ امواله وذخائره وكنوزه وهرب الى  
الوجه القبلي مسرعاً بدون انتظام. لانه علم أن المماليك الذين تركهم في



وجه الفرنسيين في امبابه قد وقعوا في مذبحة عظيمة وكثيراً منهم اغرقهم الفرنسيون في النيل ولكن اغلبهم ذبحوا كالاغنام في وسط المعركة . ولما سمع ابراهيم بك بضياع كل شيء ترك حصنه في بولاق وفر هارباً مع بكر باشا الى القاهرة .

وكان الرعب قد اخذ ماخذه في قلوب جميع سكان القاهرة وهرب من يقدر على الهروب الى الوجه القبلي وتضاعفت اجر دواب النقل التي يؤجرها القوم في حمل اموالهم وذخائرهم . وفي يوم السبت كان طيار الفارين والمهاجرين جارفاً جداً ولكن مع الاسف ما كاد يصل اولئك المنكودي الحظ الى بوابات المدينة الا وصادهم العرب البدو وانقضوا عليهم انقضاض الباشق على المصفور بايعاز من ابراهيم بك الذي استدعاهم لهذا الغرض بل كانوا يسلبون الاموال والذخائر والكنوز من اصحابها ويمزقون ملابس النساء ويصيرونهن عرايا بعد مسكرامة معظمهن وكان يقع ذلك حتى لنساء الطبقات العليا من المصريين وكل من يبدو منه ادنى علامة للمعارضة أو المقاومة رجلاً كان أو امرأة ذبح ذبحاً اما الذي يمكنه أن يعود ثانياً الى منزله داخل المدينة فانه يعد نفسه سعيداً بنجاة من ايدي اولئك السالين . ويقول الجبرتي ( في كل تاريخ مصر لم ير السكان ليلة اربع واكثر هولاً وفزعاً من تلك الليلة . ومن ترتعد فرائصه لسماعه بتلك الاهوال فكيف تكون احواله متى شاهدها )

دخل الفرنسيون القاهرة يوم الاثنين واتخذ بونابرت له مركزاً في القصر الذي كان بناء حديثاً احد الامراء في الازبكية . واشتغل بونابرت في هذا المركز بتأسيس ديوان لحكومة القاهرة مثل الديوان الذي اسسه في الاسكندرية . وعين الجنرال ديوي رئيس الديوان بصفة محافظ للقاهرة . وعين الجنرال بوسلين مديراً عاماً للمالية المصرية . وكان رجال ذلك الديوان مؤلفين من اثنين من كبار المشايخ من سلالة عربية مصرية وثلاث مماليك انتخبهم هذان الشيخان واثنين افرج من مستوطني الديار المصرية قديماً . وكانت اول اوامر بونابرت لهذا الديوان فرض تحصيل ٥٠٠٠٠٠ خمسة الف ريال من الاهالي لسد حاجيات الجيش الفرنسي — وقد سمح لرجال جيشه بنهب منازل المماليك اما جميع المصريين الذين كانوا يخافون أن يسلبوا كالمماليك كانوا يتحصلون على بارات الحماية من بونابرت ويلقونها على ابواب منازلهم فلا تعسا ايدي السالين . اما الامن العام فكان عظيم جداً بدرجة لم تشاهدها مصر من اجيال مضت . وفرض بونابرت غرامات وعقوبات صارمة على الاهالي الذين لا يكتسبون ويرشون الشوارع ويضيئون القناديل على ابواب منازلهم . ورفع كل البوابات الخشبية الكبيرة التي كانت مستعملة من مدة جيل أو اثنين لتغلق على كل شوارع أو حارة فتجعله مستقلاً عن باقي شوارع المدينة — وهو حذر عظيم من الاهالي وقت حكم المماليك — وقصد بونابرت من رفع هذه البوابات هو أن ينفذ الشوارع على



بعضها فيتمكن بذلك رجال الطوافه من الحامية الفرنسية من اختراق كل الشوارع ليلا حفظاً للامن وتعين المسيوم . سامويل برنارد ناظرًا للصربخانة المصرية واستمرصك النقود على الطريقة القديمة العادية وعليها طغراء السلطان العثماني الحاكم .

وبعدئذ ارسل بونابرت القوة اللازمة من جيشه للبحث على ابراهيم بك الذي هرب من امامه بمن معه من المماليك الى الوجه البحري . فاشتبكت القوتان في معركة هائلة كان النصر فيها حليف الطرفين وان كان كل منهما يطلب النصر لنفسه واخيراً فر ابراهيم بك في اغسطس الى سوريا والتجأ الى الجزار في عكا .

واتفق انه في اول اغسطس رجع الاميرال نلسون الى الشواطىء المصرية مقتضياً امر الفرنسيين — والقت بوارجه الحربية مرساتها بالقرب من خليج ابو قير — حيث كان راسيا الاسطول الفرنسي . وفي غروب شمس ذلك اليوم ابتدأت معركة ابو قير البحرية الشهيرة وظلت حتى ظهر اليوم الثاني من اغسطس الى ان انتصر نلسون على الفرنسيين بعد ان حطم كل بوارجهم الحربية ولم يبق منها الا اربعة اصبحت اسيرة للاسطول الانكليزي .

ووقع خبر انهزام الاسطول الفرنسي وتحطيمه كالصاعقة على كل فرنساوي في مصر . وبذل بونابرت جهده ليخفف من اهمية الامر على عقول الاهالي ولما علم بان احد السوريين الذي تهرأ على قول الحقيقة عن

الاسطول عاقبه عقاباً صارماً — ولكن شعر المسلمون وعلموا رويداً رويداً بحقيقة الامر وقبل مضي شهرين على ذلك اقاموا ثورة هائلة في القاهرة . وفي الواقع ان فضائل الفرنسيين كانت ضد اميال المصريين بقدر ما كانت رذائلهم . ولذا اجتهد المصريون باغراً وتحريض كل طبقات الامة في جميع انحاء القطر ضد الفرنسيين — اما المماليك فكانوا ملعباً اعداءهم الالقاء — كذا العرب والمسلمون المصريون استقبحوا امر اسلام الفرنسيين الكاذب — وتذمروا جداً من النواهي والمحذورات البيروقراطية المقضية التي لا يمكن لفرنساوي ان يحكم بخلافها — وسخطوا على الاوامر والتعليمات الصحية التي قضت بتفتيش المنازل الخصوصية حتى اماكن الحرم — وزادهم سخطاً وحنقاً امر الترخيص للجنود الفرنسيين بهتك اعراض النساء الوطنيات (١)

اما الاقباط فلم يستقبحوا فقط اعتراف الفرنسيين الكاذب بالاسلام بل ايضاً لم يغشوا ضمائرهم باعتقادهم امكان بقاء امة عظيمة كالامة الفرنسية بلا ديانته بالمرّة كما كانت هذه حالة الفرنسيين تلك الايام . وكان الاقباط يلقبون الفاتحين بالقوة الكاثوليكية

(١) لم يدهش المصري اعجاباً في وقتنا الحاضر اكثر من كيفية سلوك جنودنا الاحتلالية في هذا الامر — وهو تقريباً الامر الوحيد الذي لاجله جميع سكان القطر المصري يمدحون الانكليز حتى انه يقولون ( انهم حتى لا يثقون بالعسكري المسلم المستقيم ثقتهم بالعسكري الانكليزي )



الرومانية وهي القوة التي كانت تجتهد دائماً بضياح بلادهم ووطنيتهم .  
 اما سبب الثورة التي قامت ضد الفرنسيين في ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨ فكان الداعي فرض جزية على المنازل بالقاهرة بامر نابوليون . ذلك  
 أن مشايخ وعلماء الازهر كلفوا تلاميذهم بدعوة جميع المسلمين الى الجامع  
 الازهر — فلما اجتمعوا كلهم وخطب العلماء في وسطهم خطب التحريض  
 هبوا جميعا في ثورة عامة وكان اول هجومهم على منزل الجنرال  
 كفاريلي — ثم اقاموا المتاريس والحواجز في الشوارع وصار يقبضون  
 على كل الفرنسيين المارين في الشوارع ومن ضمنهم اربعة من أعضاء  
 المجلس العلمي الفرنسي وحكومة بونابرت وذبحوهم جميعا عن اكرم  
 وبالمثل ذبحوا كثيراً من الاقباط — بهذه الطريقة — ولكن اولئك  
 المسلمون الجاهلاء الاوباش ما امكنهم التحفظ على الروابي والمتاريس  
 الحربية التي ملأت المدينة من الشمال والشرق فانهم في اليوم الثاني صاروا  
 ينتفضون تحت المدافع الفرنسية وصدرت الاوامر للمشايخ  
 يطلبون منهم ارشاد الثائرين للخضوع فقابل اولئك الثائرين تلك الاوامر  
 بالاحتقار فصدرت اوامر بونابرت بالابتداء في اطلاق القنابل

وبعد اطلاق القنابل بشدة بضع ساعات خصوصاً على الجامع  
 الازهر واحياء سيدنا الحسين تنازل عناد الشيوخ وساموا . فدخل  
 الفرنسيون المدينة وهدموا المعقل والحسنة والمتاريس واحتلوا الجامع  
 الازهر وادخلوا فيه خيولهم وجملود كالا صطبل بل كسروا القناديل

ومحووا الايات القرآنية المنقوشة على جدران الجامع وقبضوا على كثيرين  
 من العوام والخواص وقطعوا رؤوس كثيرين من الطبقات الوسطى  
 وكتب بونابرت نفسه في خطاب خصوصي للجنرال رينيه انه في تلك  
 الظروف كان كل ليلة يقطع ثلاثين رأساً من اجسامها اربابا  
 لباقي الثائرين

وكان الجنرال ديسيه قد قام بامر بونابرت في فرقة من الجيش  
 مقتفياً ارمراء بك في النيل حيث كان مقبلاً عند الفيوم يحدد قوته  
 الحربية ف وقعت بينهما اول معركة في ٨ أكتوبر عند جهة يقال لها  
 سدمنت الجبل بقرب مدينة بني سويف انتهت بانهزام مراد بك انهزاماً  
 تاماً وخسر الفرنسيين ٤٠٠ قتيل وجريح . واحتل الجنرال ديسيه اقليم  
 الفيوم وترك فيه حامية من رجاله وكر وراء مراد بك مقتفياً أثره في  
 صعيد النيل الى أن عثر به و وقعت بينهما معركة شديدة في ٢٣ يناير سنة  
 ١٧٩٩ هزم فيها أيضاً مراد شر هزيمة وفر هارباً ووراه الفرنسيون  
 يطاردونه الى أن احتلوا حدود مدينة اصوان فاستمر مراد في هروبه  
 الى أن دخل بلاد النوبة فاكتفى الفرنسيون بمطاردته لهذه النقطة ولم  
 يرغبوا ورأه في النوبة ولو أنهم احتلوا جزيرة انس الوجود وحصنوا  
 اصوان وعند عودتهم الى القاهرة قابلهم احد البكوات المماليك الهائمين  
 في عرض البلاد مع كثير من من اتباعه و وقعت بين الطرفين عدة  
 مناوشات عنيفة في مدينة طيبة ( الاقصر )



وفي اثناء ذلك كان الفرنسيون مطمئنين بالمرّة على ثبات مركزهم بمصر الا أن الانكليز سدوا عليهم الطريق باحتلالهم جميع الشواطئ المصرية فمنعوا بذلك اي مدد يأتيهم من بلادهم وعلاوة على ذلك فإن الاتراك كان يستعدون لاعادة مصر لقبضتهم بواسطة الزحف عليها من طريق سوريا فعزم بونايرت مبدئياً أن يكون بجانبهم

وحوالي آخر يناير سنة ١٧٩٩ غادر بونايرت الديار المصرية عن طريق العريش ومعه ١٥ ألف جندي ولما سار الى العريش ضرب اهلها فسلموا له بعد مقاومة بضع ايام واعاد حامية الماليك الذين كانوا فيها الى القاهرة ووصلوا تلك العاصمة اسرى وتفرج عليهم كل اهلها. ثم ظل نابليون سائراً في طريقه الى يافا فهاجم عليها وامتلكتها في ٥ مارس سنة ١٧٩٩ فاختبأ من حاميتها ٤٠٠٠ محارب في خان بها ثم عرضوا تسليم انفسهم اليه على شرط حفظ حياتهم والا يستمروا في المحاربة دفاعاً عن انفسهم حتى يموتوا في ساحة الوغى — فقبل الفرنسيون هذا الشرط وقدموا الاربعة الاف رجل اسرى الى بونايرت فرفض امضاء هذا الشرط الذي قبل به اركان حربه مع تفويضهم له أنهم قبلوا ذلك الشرط تجنباً من اجراء مذبحة بلا فائدة وبعديومين امر بونايرت بذبح الاسرى المذكورين فذبح رجاله الاربعة الاف اسيراً ذبح الانعام فكانت مجزرة هائلة تقشع منها الابدان على شاطئ البحر. وكان هذا العمل الفظيع مشوهاً لتاريخ بونايرت بين جميع الشعوب

وقد هدم بونايرت بعمله هذا الفظيع كل اساطير نجاحه في سوريا لان كل مسلم في بلاد سوريا سمع بمحادثة يافا هذه صار يفضل أن يحارب مستقلاً ويموت في ساحة الحرب عن أن يسلم نفسه للفرنساويين وعلاوة على ذلك فإن الاربعة آلاف جثة التي تركها بونايرت على شاطئ البحر بدون دفن قد اتنت وافسدت الهواء فسببت انتشار الطاعون انتشاراً هائلاً اكتمسح عدد عظيم من رجال الجيش الفرنسي .

وسار بونايرت الى عكة قاصداً فتحها عن سلم من رجال جيشه من الطاعون — ولكن صار في شدة الازدهاش لما وصلها ورأى في مياهها اسطولا انكليزياً مستعداً للدفاع عنها. فابتدأ في محاصرتها يوم ١٨ مارس سنة ١٧٩٩ ولكن ذهبت كل تدبيراته في اخذها ادراج الرياح لان السير سبني سميت ومن معه من الضباط الانكليز بذلوا كل جهدهم في الدفاع عن المدينة. ثم تقدم الجنرال سبني سميت قائداً بنفسه الجيوش الانكليزية واشتبك مع الفرنسيين وبعد نزال قليل خلص المدينة من ايديهم بعد أن استمروا في محاصرتها مدة شهر تقريباً وقد هجم الفرنسيون فجأة عليها في اليومين الاخيرين من الحصار فحسروا مالا يقل عن ٧٠٠ رجل. فاتفق بونايرت بذلك أن حملته على سورية عادت بالفشل وصمم على العودة الى مصر — فارتحل جواً الى ديوان القاهرة الذي اسسه اعلن به انه لم يترك حجراً على حجر — لكن رجال القاهرة كانوا على علم تام باحوال بونايرت وما جرى له حتى أن مؤرخهم المشهور عبد الرحمن الجبرتي



ضحك كثيراً على جواب بونابرت وعدد ستة عشر سبباً كان يمكن لبونابرت أن ينتحلها عذراً لتقهقره من عكا لو كان توخى قول الحق في جوابه للمصريين

تقهقر الجيش الفرنسي بانتظام الى يافا لكنه صادف في طريقه صعوبات هائلة — لان يافا كانت ملاءمة بالطاعون وزاد عدد المرضى والجرحى حتى اصبح من المستحيل على بونابرت ايجاد وسائل لنقلهم معه — واخيراً فرز عدداً عظيماً من الغير القادرين على المشي منهم وشحنهم في قوارب وامرهم بالسفر الى دمياط بحراً — وسار هو ومن معه براً الى العريش ولكن اولئك الذين تركهم في البحر لما لم يكن عندهم من الماء والمؤونة ما يكفيهم وامدم وجود البحارة القادرين على تسير القوارب بحراً اضطرهم اليأس أن يتجهوا نحو بواخر الاسطول الانكليزي الذي كان راجعاً ايضاً من عكا الى مصر مقتفياً أثر بونابرت . فاستقبل السير سدني سميث هؤلاء البؤساء بكل رقة وحنو وانزلهم في بواخره الحربية على الرحب والسعة وامدم بكل ما كانوا في حاجة اليه وارسلهم بالحرس اللازم الى دمياط

اما المرضى الذين تركهم بونابرت في يافا فقد امتلات بهم المستشفيات وقد كتبت عليهم التعاسة والشقاء . ذلك انه لما اقترب الترك بجيوشهم كانوا ولا يزالون غير قادرين على السير فلاضطرار نابوايون الى التقدم السريع الى مصر امر رئيس اطباء الجيش ان يسم كل الجرحى ليموتوا

او يخلص منهم ويفر مسرعاً الى مصر فابى الحكيمباشي تنفيذ هذا الامر بالكلية والى الآن لم يثبت لنا التاريخ ان كان مساعد الحكيمباشي نفذ امر بونابرت وسمم الجرحى الفرنسيين أو ان الازراك ذبحوهم عن اخرهم ثاني يوم ووصلهم الى يافا

وفي ١٤ يونيو دخل بونابرت القاهرة دخول الفاتح القاهرة وعمل لنفسه موكباً عظيماً — بالموسيقى والاعلام — وذكر الجبرتي في تاريخه ان الجنود الفرنسيين كانوا جميعاً في غاية التعب والحوار ووجوههم يعلوها الاصفرار وهو ما تؤيده القرائن كلها

ولما دخل بونابرت القاهرة كان مراد بك قادماً اليها من الصعيد ايضاً بعد أن الف جيشاً عظيماً وقسمه الى قسمين احدهما على شاطئ النيل الشرقي والاخر على الشاطئ الغربي . بينما كانت قوات انكلترا والداولة العلية قادمة بحراً للجحوم على الفرنسيين في مصر . فأسرع بونابرت واشتبك في معركة كبرى مع المماليك وانصر عليهم . وقد كان مراد بك عازماً على ضم جيشه الذي على شاطئ النيل الشرقي الى جيش ابراهيم بك في سوريا — فجاء انتصار نابوليون ضربة قاضية ووقع في يد الفرنسيين ٧٠٠ رجل محملة بالذخائر وكنوز المماليك الذين تفرقوا بعد هذه المعركة شذراً مذبذباً في كل جهة من البلاد .

اما القسم الثاني من جيش مراد بك الذي كان يقوده بنفسه على الشاطئ الغربي من النيل قاصداً الوصول به الى شاطئ البحر عند الاسكندرية ولكنه



لما عرف أن قرة عظيمة من الفرنسيين كانه له في الطريق عدل عن عزمه وعاد بجيشه الى الجيزة حيث هجم عليه نابليون نفسه بقوة من رجاله وهزمه شر هزيمة فاضطر ان يفر هارباً ثاني مرة الى الصعيد .

وفي ١٥ يوليو سنة ١٧٩٩ سمع نابليون باقتراب الاسطول العثماني من ابوتير فقام في الحال بجيشه لملاقاته ووصل الاسكندرية في ٢٣ منه فوجد الجيش العثماني قد نزل من المراكب الى البر . وكان السير سديني سميت مرافقاً للعثمانيين باسطوا له وقد نصحهم بكل انواع النصيح أن يحصنوا مراكزهم جيداً ضد الجيش الفرنسي الادم بسرعة من القاهرة فلم يسمعوا نصحه فاضطر الى ارسال بعضا من جنوده ليعزوا هذا التحصين ويهكوا مثالا للجنود العثمانية فلم يات ذلك بفائدة ولم يتمكن بهذا الصنيع أن يتغلب على جود وقور هممة العثمانيين - فلما وصل الفرنسيون بدأ الاتراك باللاهتاف لتحسين موقفهم ولكن قد سبق السيف العزل واشتبك الفرنسيون معهم حالا في معركة هائلة كان النصر فيها حليف نابليون حيث هزم العثمانيين شر هزيمة واستوله على مهماتهم وزخائرهم ومدافعهم وهرب كثير من الاتراك عوفاً في البحر ولجأوا الى المدرعات البريطانية . اما الترك الذين كانوا داخل طاية الاسكندرية فرفضوا التسليم للفرنسيين وصرفوا وقتهم في الدفاع وبعد محاربة سبعة ايام باطلاقة المدافع خرجت الحامية من الطاية بلا سلاح وسلمت للفرنسيين وطلبت منهم الرحمة . فاسر نابليون الفين

منها وأسكرتة خمره هذا النصر ولكنه مع الاسف لم يدم طويلاً حيث لحقه الخزلان في اليوم نفسه كما ترى .

ذلك ان نابليون كان قد سمع اخباراً غير حميدة عن الجمهورية الفرنسية في نشأتها الحديثة واراد الوقوف على اخبار اكيدة يعلم منها الحقيقة ويطمئن بها على بلاده . وقد قال المسيو ريم المؤرخ ان نابليون اتفق مع السير سديني سميت على مبادلة الاسرى . وهذه هي عبارة هذا المؤرخ الفرنسي القلة على سوء تصرف نابليون وتسرعه في الحكم على الاور قبل فحصها قال :

« لم يكف السير سديني سميت الانكليزي بقبول طلب نابليون فقط بمبادلة الاسرى بل اكرم مشوى الضباط الفرنسيين الذين اتوا له حاملين اقتراح مولاهم نابليون وعاملهم بكل رقة وعطف وعرض عليهم ان يأخذوا كل الجرائد والمراسلات المتأخرة التي صادرها اثناء ورودها للقائد العظيم بونابرت من فرنسا لانه قال لهم انه واثق ان لا الضباط ولا خواص الفرنسيين في الجيش الفرنسي يحزنون أو يستأون باستلامهم انباء واخبار وطنهم الذين مضى عليهم زمنا طويلاً وهم متغربون عنه . قال المسيو ريم انمكننا في مثل هذه الظروف ان نقول بان بونابرت تسرع في قبول مقدمة كان يرجو أخذها ؟ أو من الضروري القول بان عدونا أخفى لنا خدعة خربية تحت طبقة شفقة وهي التظاهر بالمطف على رجالنا واظهار حسن نيته ؟ لماذا رغب الجنرال سديني سميت اذا في ايعال



اخبار اوربا لنا لو لم يكن قد سبق له العلم بفاجعة فرنسا المشؤومة . وهو لم  
يعني نفسه بالسرور الخيث والانشراح الحقدى بحزننا وما يجب ان نشعر  
به من الاسف نحو حالة بلادنا فقط بل عرف ايضا علاوة على ما تقدم  
ان تلك الجرائد التي يقدمها لبونابرت ستهيج اعصابه وتوجد عنده  
رغبة شديدة نحو سرعة اياها لا غاة وطنه وبهذه الرغبة العجائية يعتبر  
بونابرت نفسه سعيداً بمبارحة مصر حالاً ولو بشروط صلح وتسليم »

« فيالحا من سعادة سيدني سميت حيث تمكن بدهائه بواسطة هذه  
الخدعة من اكتساب ما بذلت انكلترا كثيراً من القرايين والذبايح بلا  
جدوى لا كتسابه اذ لو فرضنا وهجر بونابرت جيشه وخرج بمفرده  
لمقابلة سيدني سميت لكان هذا الاخير أخذه اسيراً ومتى وقع بونابرت  
اسيراً فلا رب ان الفرنسيين كانوا يغادرون الديار المصرية في  
الحال » انتهى

والعليق على هذه الحادثة لا حاجة اليه الآن لكن يمكن يقال بان  
الجنرال الانكليزي سيدني سميت لم يكن يتوقع تاويل وتفسير بشاشته  
ورقته البسيطة للفرنساويون بهذا النمط . اما الجنرال الفرنسي فعمل  
ما كان ينتظره مواطنيه منه تماماً

وعلى اثر هذه الحادثة عزم نابوليون على ترك جيشه في مصر والرجوع  
الى اوربا لكي يمثل على مسرحها حركاته العسكرية واعماله المألوفة .  
وقد كان متالماً من كل شيء عمله في رحلته الى الشرق اولا لتفعله في

سوريا ثانياً لحالة الحكومة الاصلحية التي اسسها في مصر على بطيء ولم  
تكن على ذوقه في النهاية . ثم عدل عن ذلك ورجع الى القاهرة ودخلها  
دخول الفاتح القاهرة ثانية . وفي الحال تخبر سرّاً مع الجنرالين برتبيه وبورين  
والاميرال جاتيوم واطلعهم على نواياه ثم امر الاميرال برتبيه المذكور أن  
يجوز الاربع البوارج الحربية الباقية من جميع الاسطول الفرنسي الذي  
اعدمه الانكليز دون أن يشعر بذلك الاميرال الانكليزي . ثم افهم  
عامله الجنرال كليبر بانه متوجها الى رشيد وعين له يوم ٢٤ اغسطس  
لمقابلته هناك . وبينما هو يخدع الجنرال المذكور بهذه الوعود الكاذبة  
كتب ايضاً الى الاميرال جوتيوم بانه سيبارح الديار المصرية يوم ٢٢  
اغسطس لانه قد سمع بان اخر بارجة حربية انكليزية بارحت مياه  
الاسكندرية يوم ١٧ منه وهذا كل ما كان بونابرت ينتظره  
لمبارحة مصر .

غادر نابوليون بونابرت القاهرة في ١٨ اغسطس سنة ١٧٩٩ الى  
الاسكندرية ومنها ابحر الى فرنسا . وذاع امره للجيش المعسكر بقرب  
رشيد فاستعد كليبر بجيشه لذلك الرحيل . ولكنه لما وصل الى رشيد  
عرف بالخدعة التي عملها معه نابوليون وبمجرد وصوله اليها وصله خطاباً  
من نابوليون يخبره فيه بانه عهد اليه بالقيادة العامة في مصر نيابة عنه  
ومنحه ايضاً سلطة ابرام الصلح مع سلطان تركيا اذا كان يرى ذلك مناسباً .  
اما كليبر فغضب جداً من هذا الامر الذي اتاه معه نابوليون وحقق



حقاً عظيماً ورجع في الحال الى القاهرة واصدر اعلاناً للجيش في ٢٦  
سبتمبر سنة ١٧٩٩ يعلن فيه سفر نابوليون الى فرنسا بدون ما يخبر احداً  
بذلك وان قوة الجيش الفرنسي صار تخفيضها الى نصفها وان اعداء  
الفرنساويين اصبحوا ثلاث قوات عظمى وهي تركيا وانكلترا وروسيا  
وليس المماليك المصريين واثار الى الحالة التي اصبح عليها الجيش  
الفرنساوي وخاصة من قلة وجود الكساي . ومع أن بونابرت كان  
قد حصل الضرائب من الاهالي سلفاً فانه ترك نقصاً في ميزانية الجيش  
تحو اثني عشر مليوناً من الفرنكات .

وكان لم يزل لمراد بك قوة حرية عظيمة في الصعيد واخذت  
جيوش الاتراك ترد من سوريا بطريق البر علاوة على الاسطول العظيم  
الذي ارسلوه لدمياط . فلما رأى كليبر حرج موقفه في وسط هذه  
الصعوبات الهائلة اعلن عزمه على مناصرة السلطان في عقد الصلح معه

وقد هجم الجيش العثماني اول مرة على دمياط فرده الجنرال كليبر  
على اعتابه ولكنه عرف أن موقفه اصبح صعباً ولا رجاء له بالنجاح  
فابتداء بمخبرات الصلح في شهر نوفمبر اولاً على ظهر بارجة السير سديني  
سميث وبعد ثلث استئناف المخبرات مع الصدر الاعظم الذي كان حضر  
مع الجيوش التركية وعسكر بها في جهة العريش . على أن هذه المخبرات  
لم تنجح لان الاتراك كانوا بدؤوا بالهجوم على العريش وظهر أن النصر  
سيكون حليفاً لهم خصوصاً لتمرّد جنود فرنساويون على ضباطهم في تلك

الجهة وتقدمهم عن محاربة الاتراك

على أنه رغمًا عن ذلك كله قد نجحت مخبرات الصلح على نوع ما  
وامضيت معاهدة بذلك في العريش يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ تقضي بأن  
يسمح الانكليز والعمانيون للجيوش الفرنسية باخلاء الديار المصرية  
مع المحافظة على شرفهم العسكري ومجدهم الحربي

ففرح المصريون بذلك فرحاً عظيماً وفرضوا على سكان القاهرة  
ضريبة قدرها ثلاثة آلاف كيس من الجنبيات دفعوها بسرعة ونشاط  
وابتهاج على سبيل المساعدة للفرنساويين لاجل سرعة رحيلهم من مصر  
وفي اثناء ذلك وصلت رسالة الى الجنرال كليبر من الاميرال  
كيت القائد العام للاسطول البريطاني في البحر الابيض المتوسط بتاريخ  
٤ يناير سنة ١٨٠٠ يقول فيها انه تلقى من لندن اوامر صارمة من جلالة  
ملك انكلترا نفسه تقضي عليه بأن لا يسمح للفرنسيين بمغادرة معسكر قبل  
أن يسلموا سلاحهم وبوارجهم ومهماتهم الحربية التي لهم في ميناء  
الاسكندرية .

فاضطرب كل من السير سديني سميث وكليبر لانقلاب الحالة لهذه  
الدرجة وكتب سميث محتج على اذلال واهانة الجيش الفرنسي بهذه  
الحالة التي لا يستحقها . اما كليبر فرفض رفضاً باتاً أن يخلي مصر بهذه  
الشروط . ولما ضغط عليه الصدر الاعظم بسرعة الانسحاب من القاهرة  
لان الوقت الميعن لذلك بموجب معاهدة العريش قد انقضى . التزم أن



يستعد للقتال . وكان قد ضاعف قوة جيشه بانضمام الحامية الفرنسية التي كانت في صعيد مصر اليه وفي ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ اشتبك مع الترك في معركة هائلة عند عين شمس بضواحي القاهرة دائرة فيها الدائرة على الاتراك فانهمزوا امام الفرنسيين شرهزيمة وفروا من وجه كليبر فقتلهم واخذ يطاردهم بشدة حتى اوصلهم الى الصالحية . غير انه في اثناء ذلك قامت ثورة اخرى ضد الفرنسيين في القاهرة — ذلك ان ناصف باشا القائد العام للجيش العثماني تظاهر بالهروب من امام الفرنسيين وتركهم يطاردون الصدر الاعظم ودار هو من خلفهم ورجع الى القاهرة فدخلها فاتحاً باسم السلطان وابتداء عمله فيها بذبح جميع الاقباط ونهب كل الاحياء المسيحية واستفحل شر التعصب الالامني بحالة فظيعة في جميع انحاء القاهرة حتى صار الاتراك والمسلمين يبحثون عن كل مسيحي فيذبحونه بلا شفقة ولا رحمة وكانوا يذبحون كل الرجال وينضحون النساء ثم يجلدونهن عرايا ويقطعون رؤس الاطفال امامهن . ودامت هذه الحالة الفظيعة مدة يومين كاملين قبل ان يرجع الفرنسيون من مطاردة الصدر الاعظم وقبل ان تصل الى اهالي القاهرة انباء انتصارهم في هليوبوليس (عين شمس) فلما علم المسيحيون من الاقباط والسوريين بمودة الفرنسيين اخذوا يفرون من المدينة ويلتجئون اليهم بواسطة تساق الحيطان ونحو ذلك وكان الفرنسيين قد قطعوا طريق الدخول الى القاهرة من جهة النيل . اما ناصف باشا فلما رأى بان لا قدرة له على

مقاومتهم ولا الوقوف امامهم قد اخلى القاهرة لهم ولكن المتعصبون من المسلمين قاموا عليه ومنعوه من ذلك ولما كان عدهم مؤثماً من اكثر سكان القاهرة فلم يعد في وسعه مخالفتهم

على أن الفرنسيين احتلوا بولاق عنوة واداروا فيها السلب والنهب ومنها قصدوا القاهرة وعملوا فيها الالغام تحت ابوابها التي كانت مغلقة حتى نسفوا بعضها ودخلوا منها الى المدينة ظافرين منتصرين . ويقول الجبرتي في تاريخه أن تلك الليلة كانت اتمس وارعب الليالي التي مرت على سكان القاهرة في ذلك العصر لان الفرنسيين لم يكتفوا بالنهب والسلب والنهب بل كانوا يحملون مشاعل ملاءة بالزيت والاسبرتو ويشعلون بواسطتها كل شيء يصادفونه في طريقهم

وعلى اثر ذلك امر الجبرال كليبر باقامة زينة فاخرة في القاهرة مدة ثلاثة ايام احتفالاً بدخوله اليها منتصراً على الاتراك وبمجرد دخوله امر بجمع غرامة (١) من اهالي هذه المدينة التيميسة قدرها ١٢ مليون فرنك بصفة عقاب لهم . ثم عقد محالفة مع مراد بك زعيم المماليك الذين كان جل مجيئ الفرنسيين الى مصر لقصد ابادتهم من ارضها . وبموجب

(١) وعهد كليبر جمع هذه الغرامة الى احد اعيان الاقباط المدعو يعقوب الذي كان ثابتاً وحافظاً مركزه ضد ناصف باشا مدة ثلاثة ايام في منزله . وقد ذكر الجبرتي في تاريخه حالة الفقر المدقع الذي وقع فيه المسلمون بسبب هذه الغرامة بكيفية تتأثر منها عواطف القاري



تلك المعاهدة تصرح لمراد بك أن يبقى منسلطاً على بلاد الصعيد على شرط أن يعد فرنساويين بكل مساعدة تلزم لهم ضد الأتراك

بقي فرنساويون وجيوشهم متروكين في الديار المصرية بعد رحل بونابرت عنها تحت قيادة قائد واحد بات في حرج وزاد موقفهم صعوبة في ظرف آخر ثم سامت احوال ذلك القائد واصبحت ظروفه خطيرة مخوفة بالهلاك وقد دخلت فعلاً في دور الهلاك الحقيقي واليك البيان

في يوم ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ كان الجنرال كليبر يتمشى بعد الانتهاء من مأدبة الفطور في حديقة الجنرال داماس فانقض عليه فجأة احد المسلمين المتعصبين في لباس الانكشارية وقتله فآلت القيادة العامة بعد ذلك للجنرال مينو الذي اعتنق الاسلام كما فعل قبله كثيرون من فرنساويين امثاله استجاباً لرضاء المسلمين واقترن بآبنة احد سكان القاهرة من الطبقة الواطية

واول شيء عمله الجنرال مينو هو انه فصل الجنرالين لافاس وداماس من خدمة الجيش فرنساوي وكانا معارضانه في اعماله ثم رقت كل المسيحيين الموظفين في ديوان القاهرة الذي انشأه بونابرت من وطنيين واجانب وسلم كل الاعمال لجماعة من المسلمين استبدوا بها كثيراً ثم جعل الاحوال الشخصية المتعلقة بالميراث والزواج ونحوه خاضعة لمنطوق الشريعة الاسلامية

وفي ٢٣ فبراير سنة ١٨٠١ لما رأى الأتراك فشلهم وعجزهم التام عن

الخارج فرنساويين من الديار المصرية — جاء بغتة اسطول انكليزي بمثل خمسة عشر الب محارب والقي مرساة في خليج ابو قير. ولاكن كان عدد هولاء الجنود من الانكليز اقل بكثير عن عدد جنود فرنساويين لان الذين خرجوا منهم بواسطة الانكليز بعد ثذ كانوا ٢٤٠٠٠ جندياً وكان الجيش فرنساوي قد امتاز على الجيش الانكليزي بمعرفة احوال ومواقع البلاد المصرية واعتياده على طقسها

وقد نزل خمسة عشر الف جندي انكليزي الى البر بالرغم عن معارضة الجنرال فرايانت قائد الحامية فرنساوية بالاسكندرية واستعدوا لمقاتلة فرنساويين وساروا متجهين الى الاسكندرية وهناك اشتبك الفريقان في معركة هائلة دامت عدة ايام الى أن وصلت النجدة من القاهرة الى الحامية فرنساوية فقازت هذه وخسر الانكليز ١١٠٠ رجلاً. ولكنهم بالرغم عن هذه الخسارة العظيمة ظلوا ثابتين في مركزهم حتى انتهت النجدة من انكلترا

وعند وصول المدد للجيش فرنساوي من القاهرة بقيادة الجنرال مينو اشتبك هذا الاخير مع الانكليز ايضاً في معركة دموية هائلة كان الظفر فيها الى الانكليز فتقهقرت الحامية فرنساوية الى الاسكندرية بعد خسارة ١٧٠٠ رجل

على انه قد جرح في هذه الموقعة قائد الجنود الانكليزية الجنرال السير رالف ابركروبي وابت عليه شهادته التخلف عن القتال لاجل هذا



الجرح بل استمر في حومة الوغى حتى انتهت المعركة فاصابه من ذلك ضرراً كبيراً بسبب استمرار زيف الدم من جراحه بحالة تدرر شفاها وتوفي على اثر خزن عليه الانكليز حزناً عظيماً . وعهدوا بالقيادة العامة على جنودهم الى الجنرال هنستس وقد وصلته نجدة جديدة قدرها ستة الاف محارباً من الازراك والارناؤوط وكان يرأس احد فرق الارناؤوط ضابطاً تركيا بسيطاً ساعدته الاقدار بعد ذلك وصار والياً على مصر هو المرحوم محمد علي باشا الشهير

وقد استمر القتال سجالاً بين الفرنسيين من جهة والانكليز والازراك من جهة اخرى الى يوم ١٩ ابريل من تلك السنة وفيه سلمت حامية رشيد الفرنسية سلاحها الى الجيش الانكليزي والتركي — وقد قطت هذه الجيوش خط الرجعة على الجنرال مينو الفرنسي الذي كان معسكراً في الاسكندرية بواسطة هدم الجسر الضيق الذي كان قائماً بين ابو قير وبين اراضي بحيرة مريوط القديمة ( وهي الاراضي التي لا تزال مغمورة بالمياه الى الآن ) فاضطر الفرنسيون على اثر ذلك الى ترك مركزهم في الرحمانية ووصلت اخبار انكسارهم مبالغاً فيها الى القاهرة فنشأ عن ذلك حصول هياج شديد اوجب الفرنسيين الى عمل منشورات الى سكانها التمساء يؤكدون لهم فيها أن الجنرال مينو سيرجع الى القاهرة قريباً مكلاً بالظفر على الانكليز الذين مات منهم كثيرون بالدوسنتاريا والرمم والجوع والمعش وان كثيرون منهم فروا من

معسكرهم والتجأوا الى معسكر الفرنسيين الذين انسحبوا من دمياط بخدعة حربية ليغشوا الانجليز ويهلكوهم عن اخرهم

وفي ذلك الوقت كان الاضطهاد على الاقباط عظيماً وفي كل يوم يقتل منهم خلق كثير ولكنهم كانوا يقابلون المصائب بالصبر وكانت الفناء محققاً بهم من كل جانب فسلموا امورهم لله وعولوا على أن يقاتلوا في سبيل حفظ عرضهم ودينهم الى اخر نقطة من حياتهم . اما يعقوب احد اعيانهم الذي كان يعتبر عميدهم في ذلك الحين وهو الذي ذكرنا خبر تحصنه في منزله ثلاثة ايام ثابتاً للدفاع ضد هجمات المسلمين وقت منجحة ناصف باشا . قد وجه كل همته في هذه الظروف الخرجة ايضاً للدفاع عن جميع اخوانه الاقباط الموجودين في القاهرة فاشتغل زمناً طويلاً في تدريبهم على مقاومة أي هجوم يقع عليهم حتى يتمكنهم المدافعة عن ارواحهم وممتلكاتهم ثم جند منهم فرقة عظيمة ودرهم على الحركات العسكرية وساحهم بطريقة منظمة حسب نظام الجيش الفرنسي نفسه وكان معظم الذين انتخبهم لهذا الغرض من اقباط الوجه القبلي وكان الجميع خاضعين لاوامر ياتوب ويقبلون تعليماته الخاصة بالدفاع عن بني جنسهم بكل فرح وابتهاج . وابتدأ يعقوب بهدم كثيراً من البيوت التي تخربت في الحوادث الاخيرة في الاحياء التي كان يقطنها الاقباط (١) وبني

(١) هجر الاقباط حيهم بعد ذلك الحين . وهو الموجود الان بكوت بك وكان من ضواحي القاهرة . ولم يبق من الاحياء القبطية القديمة غير اماكنهم في حارقي الروم وزويلة



من انقراض تلك الخرائب سوراً عالياً منيعاً حول الحي الذي جمع فيه كل  
الاقباط اخيراً وشيد فوقه الابراج القوية من داخل هذا السور وعمل  
للسور بوابتين عظيمين ورتب جنديين قبطيين يقفان بالتوالي على كل باب  
والسلاح على اكتافهما بصفة حراساً يمنعون كل غريب من الدخول  
ووضع لذلك نظاماً عسكرياً حسب النظام العسكري الفرنسي كما شهد  
الجيرني بذلك وقد نشأ عن هذه المساعي العظيمة والاجراءات الكبيرة  
التي قام بها ذلك البطل المتقدم الجنرال يعقوب ان الامة القبطية قد  
نجت من مذبحه فظيمة تشيب من هولها الاطفال وقعت عند احتلال  
الأتراك للقاهرة ثانية. وقد تخرب ذلك الحي الذي استعمله يعقوب كحصن  
أو طاية حربية بعد تلك الايام بقليل ثم هجره الاقباط لما سمحت لهم  
الظروف بالخروج منه بعد اطمئنانهم على حياتهم. ويعقوب نفسه لم يعد  
في وسعه الاقامة في تلك الحصون بعد خروج الفرنسيين من مصر ورجوع  
الامر والنهي في البلاد للأتراك وحدهم فاضطر الى ترك الديار المصرية  
وخرج مع الجيش الفرنسي ومعه اكثر رجال فرقته القبطية ولم يعد  
في وسعه الرجوع لارض اجداده خوفاً من الاستبداد فمات في فرنسا  
بعد مہارجته اليها بضع سنوات. ومن دواعي التعاسة التي توالى على  
مدينة القاهرة في تلك الايام انتشار الطاعون فيها بدرجة مريعة جداً  
مات بسببه يومئذ خمسة رجل من الحامية الفرنسية وكانت وطأة  
الطاعون في الصعيد اكثر منها في القاهرة وافنى هذا الداء القتال خلافاً

كثيرة وخرب بلاداً برمتها خليت من السكان بالمرّة. ومن جملة الذين  
ذهبوا ضحية ذلك الوباء القتاك مراد بك زعيم المماليك مات به في بني  
سوف فالتزم ابراهيم بك وكيله ان يسلم مقاليد اموره الى الجنرال  
هتشنسون الفرنسي لانه كان شيخاً هرمًا ولا قدرة له على المحاربة  
وفي ١٠ يونيه سنة ١٨٠١ اصدر الفرنسيون منشوراً لجميع سكان  
القطر المصري هذه صورته

( ليكن معلوماً لدى جميع سكان هذه الديار ان القطر المصري  
اصبح من جملة املاك الدولة الفرنسية. فضعوا هذا الامر نصب  
أعينكم وآمنوا به اتقاء لرؤوسكم كما تؤمنون بوحداية الله. فلا تفرون  
ولا تغشون انفسكم بالتأخين القادمين فانه ليس في معة رنهم شيئاً يأتونه  
ضدكم ولا ضد الفرنسيين فاولئك الانكليز هم اصوص كافرين وليس  
في وسعهم اتيان اي عمل غير بذور الشقاق والخصام بين الشعوب  
وبعضها والعمل على تهيج كل امة ضد الاخرى )

وفي ١٦ يونيه حاصر اتماهرة الجيش المتحد من الانكليز والترك  
والمماليك. ويبما هو يذهب للهجوم على القاهرة في يوم ٢٢ منه  
اخذ قائد الجنود الفرنسية في فتح باب المخاربة مع قواده في  
امر الصلح وقد اوقفت هذه المخابرات احوال وفظائع كثيرة كان لا بد  
من حصولها لو بدىء في القتال وفي ٢٦ منه انتهت المفاوضات وامضيت  
معاهدة بين الطرفين مفادها ان الجيش الفرنسي يخلي مدينة القاهرة



ويرح الديار المصرية كلها عن طريق رشيد . وما انقضى يوم ١٠ يوليو حتى أصبحت القاهرة خالية من الجيش الفرنسي وقد حل محله الجيش الانكليزي ولما كانت الاوامر المعطاة الى الجنرال هتشنسون تقضي عليه بطرد الفرنسيين من القطر المصري بدون تعرض لمسألة ضمه الى انكلترا فلذلك قد التزم ان يسلم مدينة القاهرة الى الاتراك وسار بجيشه الى رشيد حتى يلاحظ نزول الفرنسيين منها الى البحر ويطمئن على مبارحتهم البلاد المصرية

وصل رشيد فباشر سفيرة ١١ الف من المساكر الفرنسية وثلاثة آلاف من الملكيين التابعين لهم حيث انزلهم بنفسه في المراكب البحرية في تلك الميناء على أن بعض افراد الفرنسيين رغبوا البقاء من انفسهم في البلاد المصرية وتظاهروا باعتناق الدين الاسلامي حتي تطيب لهم الاقامة فرأى الجنرال هتشنسن بانه لا خوف من تخلف هؤلاء الافراد في الديار المصرية فتركهم لشأنهم وسافر الى الاسكندرية حيث حاصر باقي الجيش الفرنسي الذي كان لا يزال معسكراً فيها وقد كان عند هذا الجيش الوقت الكافي الذي يتمكن فيه من الاستعداد لمقاتلة الانكليز ومنعهم عن محاصرتهم ولكن الجنرال مينو تكاسل عن ذلك كثيراً حتى ضايقه الانكليز والزموه بان يمضي معهم عهداً في ٢٩ اغسطس من تلك السنة يقضي باخلاء الاسكندرية ومبارحة الديار المصرية حالاً

واراد الانكليز ضبط المجموعات العلمية والرسومات والتأليف التي اتهمها اعضاء اللجنة العلمية الفرنسية في القطر المصري وهي اللجنة التي اسسها نابليون في القاهرة عقب احتلاله لها . ولكنهم عدلوا عن ذلك اجابة لرجاء وتوسلات العلماء الفرنسيين التي قدموها بطلب اعفاء مؤلفاتهم وذخايرهم العلمية من أن تلحق بها المصادرات الحربية ومما لا ريب فيه أن مباحث ومجهودات اللجنة العلمية الفرنسية التي رافقت حملة نابليون العسكرية قد اتت بفوائد عظيمة باهرة جداً هي في الحقيقة اهم بكثير من عمل الحملة الفرنسية نفسها التي لم تستفد منها فرنسا ولا مصر الا الخسائر الجمة والمتاعب الكبيرة والتعاسة الكبرى بلا فائدة . بينما الكتاب والعلماء الذين درسوا وبحثوا ورسوموا وجمعوا واثروا اثناء تلك الحملة قد قدموا للعالم خدمات جليلة ومؤلفات نافعة هي اهم واعظم ما يقرأ في تاريخ مصر . وما عدى ذلك لا يشاهد الانسان الآن من اثار احتلال الفرنسي لمصر الذي دام من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠١ غير طواحين الهواء الباقية انقاضها الى اليوم على تلال القاهرة وبعض كتابات منقوشة على الحجر ترى هنا وهناك على صخور النيل وشيء قليل من اثار قنابل المدافع ظاهرة الى الآن على جدران بعض الجوامع الكبرى في القاهرة

ولم يكن الانكليز يتوقعون خروج الفرنسيين من مصر بهذه السهولة ولذلك كانوا مستعدين لهم بقوة عسكرية كبرى من الجيوش



الهندية تبلغ ٦٠٠٠ هندياً بقيادة الجنرال برد علاوة على الجيش الانكليزي نفسه الذي كان على اية السفر الى مصر عند اول اشارة

اما الجنرال برد المذكور فقد جاء الى حدود مصر بالجيش الهندي بطريق البحر الاحمر ونزل في ميناء القصير وسار براً من القصير الى قنا ومن قنا سار محاذياً للنيل الى الوجه البحري وكان سكان الوجه القبلي يهللون به اثناء مروره عليهم غير انه وصل الى القاهرة متأخراً حيث تصادف وصولها اليها حال انسحاب الجيش الفرنسي منها فاضطر هذا الجيش الهندي أن يعسكر بجزيرة الروضة عدة اسابيع ثم سافر بعد ذلك بحراً عن طريق رشيد

وقد صادف الاقباط الشدائد والاهوال اثناء الاحتلال الفرنسي وساء لا يمكن التعبير عنه . فان الفرنسيين بالرغم من اعتناق كثيرين منهم الديانة الاسلامية قد استخدموا كثيراً من الاقباط في مصالح البلاد العالية وساووا بينهم وبين المسلمين في كل شيء الا امر الذي اوجد الحقد والغيظ والكراهة الشديدة عند المسلمين ضد الاقباط ( حتى أن الجبرني وهو في مقام المؤرخ لم يمالك عن اظهار حقده وسخطه كما تراه مسطراً في تاريخه ولا سيما حينما يرى الاقباط يركبون الخيل ويحملون السلاح مثل المسلمين ) ومن الغريب أن الاقباط كانوا دائماً اول المضطهدين سواء وقت الاضطرابات والثورات التي حصلت في بدء الاحتلال الفرنسي أو في الثورات التي قامت ضد الفرنسيين عند احتلالهم للبلاد أو في

وقت خروجهم منها . وعند مبارحتهم مصر عم السلب والنهب والقتل فيهم بدرجة لا تطلق حتى أن مساكنهم كلها تقريباً عمها الدمار والحراب والذين سلموا منهم من الموت بعد خروج الفرنسيين بنوا لهم منازل جديدة وكنيسة جديدة بدل الذي تخرب لهم

وكان البطريرك القبطي على عهد الحملة الفرنسية الانبا مرقس العامن وهو من اهالي طموه بمديرية الجيزة وكان قد انتظم في سلك الرهبنة بدير انبا انطونيوس وانتخب بطريركاً بالقرعة الهيكلية وبارتقاه للعرش البطريركي غير الاساقفة اسمه الاصلي من يوحنا الى مرقس حسب عادة الكنيسة القبطية . ونأني هنا بفلكة من اعماله نقلا عن المصادر القبطية الاصلية . فقد ذكر المستر بتلر المؤرخ الانكليزي أن الشعب القبطي في ايامه قاسى من الضيقات والاحزان والبلايا والنوائب والنكبات والمصائب والشدايد مالا يحصى وحصل كل ذلك بنوع خصوصي في السنتين اللتين عقبنا ارتقائه الى الكرسي البطريركي ووجد مذكوراً في تاريخه العبارة الاتية « أن خلقاً كثيراً من بلاد الافرنج يقال لهم الفرنسيون اتوا وامتلكوا مصر فقام ضدهم سكان القاهرة فكانت الحروب سجالات بين الطرفين مدة ثلاثة ايام فالتزم البطريرك بتغيير محل اقامته من حارة الروم الى الازبكية . ثم اتى وزير من بلاد تركيا مصحوباً بجماعة من الشعب الانكليزي وطردهوا الفرنسيين من مصر . وتألم الشعب القبطي كثيراً على يد الفرنسيين فتخرب كثير من الاحياء القبطية واصيبت



خالية خاوية كالصحراء وهدمت وخربت كنائس عديدة وقاسى البطريك ذاته مصائب عديدة وهي التي اجأته لتغيير اقامته من حارة الروم الى الازبكية حيث بنى بطرئانة عظيمة وكنيسة كبرى دعاها كنيسة ماري مرقس الانجيلي وهو اول بطريرك سكن الازبكية وكان دائماً مشغولاً ومهماً في بناء وترميم الكنائس والاديرة التي تخربت وكان دائماً متيقظاً وساهراً على الوعظ والتبشير بين شعبه ويبذل اقصى جهده في تعليمهم اللاهوت وطريق الصلاح ليلاً ونهاراً وقد رسم عدداً عظيماً من الاساقفة ولما تنبع مطران الحبشة ووصله وقد مؤلف من اعيان ورهبان وكهنة تلك البلاد حاملاً اليه جواب من امبراطور الحبشة يرجوه فيه تعيين مطران جديد لتلك البلاد اجاب طلبهم ورسم لهم مطراناً جديداً باحتفال عظيم وأرسله مع الوفد الى الحبشة مزوداً بالدعوات والبركات وكثيراً من الكتب والمواعظ المشتغل اغلبها على مبادئ العقيدة الارثوذكسية الصحيحة لانه سمع بهرطقة كثير من الاحباش انتهى

اما بطريرك الاسكندرية اليوناني الذي كان معاصراً للاحتلال الفرنسي فهو بارتنيوس من اهالي بلدة بانموس من اعمال اليونان وغالباً انه هرب من الديار المصرية اثناء ذلك الاحتلال حيث لم يعثر له على اي عمل في التاريخ ثبت وجوده فيها في ذلك الحين

اما نائب بابا روميه وقتئذ فكان الاب متى . ومما يحسن ذكره هنا أن حالة الكاثوليك واليونان لم تكن يومئذ باحسن من حالة الاقباط الاصليين

## الفصل الثاني والسبعون

محمد علي باشا

سنة ١٨٠٢ مسيحية و١٥١٨ للشهداء و١٢١٧ للهجرة

بعد انسحاب الفرنسيين استلم يوسف باشا الصدر الاعظم زمام الاحكام في القاهرة باسم جلالة السلطان بمساعدة الجنرال هتشنسون وكان حسين قبطان باشا اميرال الاسطول العثماني لا يزال في ابي قير والاسكندرية .

ولم يترك الاتراك فرصة اعادة امتلاكهم للبلاد المصرية بدون القيام فيها كعادتهم بتقديم مذبح دموية علامة امتلاكهم أو رجوعهم الى التسلط على كل قطر قبل رحيل الانكليز من مصر حصلت مذبحتين احدهما في الاسكندرية واخرى في الجزيرة وهاتان المذبحتان قللتا عدد الممالك البكوات . ذلك أن يوسف باشا دبر لهم مكيدة مع زميله حسين قبطان باشا فاتفق الاول أن يهجم عليهم في الجزيرة ويقتلهم واتفق الثاني على أن يدعو الآخرين في ولية بابي قير باسم الجنرال هتشنسون الانكليزي لانه لو كانت الدعوى من غير الجنرال المذكور لما اجيبت . وقال قبطان باشا في دعوته ان غرضه من الاجتماع بهم في معسكره المتفاوضه معهم فيما يجب اتخاذه من الوسائل لاصلاح حالة البلاد فاجابوا دعوته وهم في رية



من مقاصده على انهم لم يكونوا يستطيعون رفض الدعوه خشية من ارباب  
العثمانيين والانكليز في مقاصدهم . فلما وصلوا ابا قير رحب بهم حسين  
قبطان باشا ودعاهم الى النزول معه في قاربه الخصوصي ليسيروا معاً الى  
الجنرال هتشنسون الانكليزي بحجة المفاوضه معه على ظهر دراعته في  
بعض الشؤون فركبوا حتى صاروا على مسافة من البرجاء قارب صغير من  
جهة الدوارع وقال من فيه انه لديهم تحرير باسم قبطان باشا من جلالة  
السلطان ومخبرات اخرى مهمه وكان ذلك حيلة دبرها الباشا الذي ركب  
حالا ذلك القارب الصغير وسار به وبقي المماليك وخدمهم فارتعوا واذا  
بمدافع العثمانيين تنصب عليهم فعرفوا المكيدة ثم ابتدأ ملاحون القارب  
بالذبح فيهم . فالتزموا أن يلتجئوا بالانكليز لو توقعهم بهم اكثر من  
الأتراك الذين نكصوا بعهدهم وقد ذبح منهم الأتراك سبعة والباقي  
اصيبوا بجراح كبيرة والقوا بانفسهم في البحر وعاموا حتى وصلوا الى  
المراكب الانكليزية لان البر كان بعيداً . ويقول الجبرتي ان الانكليز  
اغتاظوا وحنقوا جداً على هذا الصنيع فدخلوا الاسكندرية وطردها  
كل الأتراك منها ثم قفلوا كل بواباتها واشغلوها حصونها برجالهم ودعوا  
الأتراك للخروج لمحاربتهم فكان جواب الأتراك انه لم يسبق لهم مخاصمة  
مع الانكليز فلا يريدون محاربتهم وظلوا ساكنين في خيامهم . وقال الجبرتي  
ايضاً مثبتاً باندهاش واعجاب ان الانكليز ليس فقط اعتنوا بالكروات  
المجروحين ومنهم عثمان بك البرديسي بل ايضاً دفنوا المذبوحين باحتفال

مسكري واحترام عظيم كانهم من عظماء الانكليز  
اما المكيدة التي عملها يوسف باشا بماليك القاهرة فانه ارسل فرقة  
هاجمهم في الحيزة فوثب عليهم جنود الأتراك وقتلوا منهم عدداً كثيراً  
وحرقوا بيوتهم فالتجأ كبارهم الى الانكليز فمؤمهم رغماً عن اصرار يوسف  
باشا على طلبهم . وقد ادهش المصريون واعجبهم كثرة اعتدال الانكليز  
وحسن صنيعهم وخلوص نيتهم . وقد قال الجبرتي مستفهما لماذا يتركون البلاد  
للسلطان بعد وقوعها في قبضة ايديهم يأخذوها لانفسهم حالاً .  
واثبت الجبرتي ايضاً نتيجة مباحثه دارت بين المسلمين في هذا الموضوع  
فقال : انهم انتهوا في بحثهم على ان الله سبحانه وتعالى اكراماً للدين  
الاسلامي قد غطي على بصيرة الانكليز واعمالهم عن النظر الى صالحهم  
الخصوصي حتى اهملوا انتهاز تلك الفرصة السانحة .  
وقد وقع المسيحيون وعلى الخصوص الاقباط في آلام مرعبة هائلة  
من جرأ تعصب الأتراك وذلك ان الجنود التركيبة ابتدأت ان تتسلط  
عليهم ففرقت في احيائهم وصارت تنهب وتسلب وتفتك فيهم كل آونة  
واخرى .

وقتل يوسف باشا ثلاثة من اكابر الاقباط بحجة انهم كانوا يساعدون  
الفرنساويين على الأتراك واخذت كل اموالهم وممتلكاتهم وبعد ذلك  
بقليل امر ايضاً بقطع رأس المعلم ملطي القبطي الذي كان رئيساً لديوان  
الحقانية ايام الفرنسيين فالنزم كل من يقدر على الفرار منهم ان يهرب من



القاهرة ويختفي من وجه الأتراك . وبعد ذلك أيضا اخذ الأتراك شيئاً فشيئاً يطلبون مبالغ طائلة من هذه الطائفة النصف مائة بصفة غرامه أو فدية عن انفسهم وبعد مبارحة الانكليز للمياه المصرية أصبحت احوال البلاد رديئة جداً وتاريخ الجبرني ملآن وجه بعد وجه بتفصيل احوال مظالم واستبداد الأتراك وقبائح وكبائر وفراخس جنودهم التي ارتكبوها ضد الاقباط خصوصاً والمسيحيين عموماً بدون رادع ولا قصاص .

وبعد انسحاب الجنود الانكليزية بسبعة اسابيع بقت البلاد تتنازع في يد العثمانيين فرأى يوسف باشا الصدر الأعظم الذي كان في القاهرة ضرورة تولية والي عثماني على مصرفين نخباء حسين قبطان باشا وهو شاب من مماليكه المقيمين بالقاهرة اسمه خسرو اناضولي الاصل ولما كبر تحرر وارتماء حتى صار باشا ثم كتب الصدر الأعظم للسلطان يطلب التصديق على تعيينه فجاء الفرمان المؤذن بذلك .

وتولى خسرو باشا على مصر في ١٢ جماد اول سنة ١٢١٦ هـ ولم يكن للباب العالي سلطة في مصر الى على اسكندرية والقاهرة وكانت باقي البلاد في يدهم بقي من المماليك فناهضهم خسرو باشا فلم ينجح ولم يكن يستطيع دفع مرتبات الجنود فثاروا في ٢ مايو سنة ١٨٠٣ م واحاطوا بخازناده وحبسوه في بيته فاطلق عليهم خسرو باشا المدافع فتدخل طاهر باشا اركان حربه فاتهمه خسرو باشا باتحاده مع العصاة فاغتاز طاهر وانضم الى جانب العصاة حقيقة وهدم الاسوار فخاف خسرو باشا وهرب بمحاشيته

نحو المنصورة وجمع طاهر باشا القضاة واراب الديوان فاقروه على مصر بدل خسرو باشا موقفا حتى يصادق السلطان .

وفي ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ م لاقى طاهر من الجيش ما لاقاه خسرو وذلك ان اثنين من الاغوات في الجيش وهما موسى واسماعيل تشكيا اليه من تاخير الرواتب فجردا سيفهما وقطعا راسه والقياه من الشباك وحرقوا سرايته . فاصبحت مصر بغير والي .

وفي هذه الفرصة امكن لذلك الرجل العظيم المغفور له محمد علي باشا رأس العائلة الخديوية اظهار ما اختص به من البسالة والاقدام وما جعله الله فيه من الفضائل التي قدر له أن يثبتها في هذا القطر السعيد

ولد هذا الرجل العظيم في مدينة قوله من اعمال مكدونية غربي الروملي . ومن الحقائق المدهشة عن هذا الرجل هي انه ولد من اصل حر أي ليس من الرقيق كاصل المماليك الا انه اصبح الحاكم الأعظم في بلاد لم يحكمها الا الرقيق والمماليك من عدة اجيال . وقد اشتهر هذا الرجل نفسه بمهارته في الحروب بفرقة الالبانية التي كان جندوها ايضاً كلهم من اصل مكدوني مثله وكانوا يحبونه جداً ويتعبدون له طول حياته . وقد لاحظ بفكره الثاقب أن طريق العظمة والسلطان مفتوحان تحت قدميه فابتدأ سيره في ذلك الطريق باتحاده مع المماليك الباقين في مصر وكانوا انفسهم اقل كرهاً في نظر المصريين من الأتراك . فتمكن محمد علي بمساعدة المماليك أن يأخذ مدينة دمياط وقبض على خسرو باشا اسيراً في ١٤ ربيع



اول سنة ١٢١٨ هـ واتى به الى القاهرة وسجنه في القلعة . فلما بلغ الباب العالي ذلك ارسل والياً جديداً وهو علي باشا الجزايري ( الطرابلسي ) ولكن في سنة ١٨٠٤ هـ هجم عليه المماليك وذبحوه انشاء عودته الى سوريا .

وفي خلال ذلك عاد رئيس المماليك محمد بك الاتقي من انكلترا وكان سافر اليها يطلب مساعدة دولتها ورأس المماليك واصبح ذا حزب قوى ضد محمد علي لان الاتقي كان يطمح في ولاية البلاد . فالنزم القائد محمد علي أن يهاجمه فجاء قبل أن يتمكن هذا الخصم من تدابير مكيدة خطره ضده فالنزم الاتقي بالمروء الى الصعيد والتجأ بالبدو .

وفي هذه الفرصة طلب قنصل انكلترا مقابلة ابراهيم بك احد المماليك وعثمان بك البرديسي زعيمهم الثاني وقال لهما انه لا يود البقاء بعد الان في هذه البلاد التي يحكمها رجال لا يعرفون يتصرفون بشؤونها وعملهم منحصر في قتل بعضهم بعضاً بمكايد وحيل لا تشكر . ثم انسحب حالاً وبارح الديار المصرية قاصداً انكلترا واراد القنصل الفرنسي أن يفعل مثله فالحوا عليه البقاء . وفي غضون ذلك فرض القائد محمد علي على الاقباط غرامة قدرها مائتان الف ريال كي يتمكن أن يصرف منها مرتبات جيوشه وامر أن خمسين الفا منها يدفعها المعلم غالي وكيل دائرة الاتقي وهو قبطي كاثوليكي وثلاثين الفا يدفعها ورثة فيكتور وكيل دائرة عثمان بك البرديسي الذي مات وقتئذ وهو ايضاً قبطي كاثوليكي والباقي يدوه

الاقباط الارثوذكس الاصليين

وبعد ذلك اصبح القائد محمد علي وقد قويت شوخته لا يحترم ولا يبالي بكل الذين لا يهمهم في البلاد الا صالحهم الشخصي ولا يخاف تأثيرهم فهجم فجأة على سراي اكبر مخالفيه وهو عثمان بك البرديسي وهو شركي واصله مملوك مراد بك فالنزم البرديسي أن يدافع متقهقراً بماليكه وهرب الى الصحراء في جنح الليل لعدم امكانه مقاومة قوة محمد علي العظمى ثم استدعى محمد علي احمد باشا خورشيد محافظ الاسكندرية واقربه والياً على مصر بمصادقة المشايخ والعلماء في القاهرة الذين وافقوا دعوة محمد علي وجعلوا ايضاً محمد علي قائماً له وصادق السلطان على ذلك في ٢٢ محرم سنة ١٢١٩ هـ ( مارس سنة ١٨٠٤ م ) ومن دهاء محمد علي انه جعل كل الاموال اللازمة لاصلاح البلاد على الاهالي في عهدة خورشيد باشا حتى يقع العيب عليه اذا اسأ الناس في تحصيلها اما هو فوقف متحياً للشعب وسار معهم جنباً لجنب يتقدم معهم احوال المظالم والمغارم التي كان الباشا يامر بها .

وفي ١٤ مايو سنة ١٨٠٥ كانت كل تدابير ومشروعاته قد افادت في وصوله الى مبتغاه واصبح في ذلك الحين ذا بشاشة ودهاء محبوباً من الاهالي والمشايخ والعلماء حتى وساروا يتوسلون اليه بان يستلم مقاليد حكومة البلاد لانهم ملوا من معاملة خورشيد باشا . غير أن محمد علي تظاهر بالامتناع وعدم الرغبة في ذلك فالحوا عليه هم ورجال الجيش ايضاً وقالوا له لا



نرضى الا بك حاكما علينا لما توسعه فيك من العدالة والخير فقبل رجاءهم  
فاحضروا له كركا وعليه قفطان وقام السيد عمر مكرم والشيخ الشرفاوي  
والبداه اياه وبشروا الى خورشيد باشا يعلمونه بعزله . ولكن لم يكن  
خورشيد باشا مثل الذين تقدموا من الولاة سريع الانقياد لاوامر المصريين  
بل ظل ثابتا وظهر الغناد وقال ( اني مولى من طرف السلطان  
واقبض راتي من خزينة جلالتك فلا أعزل بامر الفلاحين ولا ازل من  
القلعة الا بامر من السلطنة ) ثم حصن نفسه في القلعة واستعد للدفاع  
ولما كان محمد علي قد وضع أساس مشروعه على قواعد متينة لم  
يخف من تهديدات جورشيد باشا لان تركيا كانت بعيدة عنه ومصر  
كلها كانت في جانبه فاستعد لمحاصرة الباشا في القلعة ونصب حولها  
المدافع وكتب الطرفان الى الاستانة يشكيان وكان العلماء والمشايخ  
والاهالي والجند في جانب محمد علي . اوفي هذا الاثناء أطلق مدافعه من  
سفح المقطم على القلعة والقلعة أطلقت مدافعها على المدينة فدام ١١  
حصار القلعة حتى يوم ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ ووصل في يوم  
ربيع أول سنة ١٢٢٠ هـ الفرمان السلطاني بقرأه في بين محمد  
علي العلماء والمشايخ والاعيان وكان بمنزلة محمد علي باشا والي  
جدة (١) سابقا ووالي مصر حالا وكان مضمون الفرمان السلطاني تولية

(١) لان السلطان في ٢٠ صفر سنة ١٢٢٠ اى قبل توليته على مصر بشهر كان أرسل  
له خط شريف بتوليته على جده وأبيه خورشيد باشا الفروة والقاروق المختصان بهذه الرتبة

محمد علي على ولاية مصر من ابتداء ٢٠ ربيع أول ( ٢١ يوليو سنة ١٨٠٥ )  
حيث رضي بذلك اهالي مصر وعلماؤها وجيشها وان احمد خورشيد باشا  
معزول عن مصر وانه يتوجه الى الاسكندرية ثم الى القسطنطينية  
ولما كان محمد علي على جانب وافر من حسن التدبير والسياسة  
والعقل الراجح عرف انه بهذا التعيين لم يصل الى اعلى ما تصبو اليه نفسه  
ولكنه تأكد ان لاجل الوصول الى ذلك لا بد له من اتباع سياسة  
الحذر والتأني مع الشجاعة والاقدام . ولسوء الحظ كانت وسائط حذره  
من اعدائه هي الطريقة العامة التي يتخذها كل الشرقيين . ومعنى هذه  
الوسائط هي الخيانة والغدر ويعقبهما مذنبحة عامة .

وكان المماليك منتشرين في البلاد وخصوصا في الصعيد حيث يقيم  
زعيمها الالفي والبرديسي وقد اتف حولهما جمهور من المماليك  
وتعاهدا مع قبائل عظيمة من البدو . ولما علم الالفي بتولية محمد علي باشا  
على مصر تخبر مع خورشيد باشا الذي كان لم يزل في القاهرة ان يتحد  
معه على عزل محمد علي باشا ويعيده واليا ثانيا على مصر ويخضع هو (الالفي)  
لسلطة الدولة العلية ويضرب بسيفها . ومن جهة اخرى خابر دولة انكلترا  
ووعدها انها اذا عضدت مشروعه يكون مستعدا ان يسلمها القطر  
المصري فعرقل قنصل فرنسا مسعاه واخذ يخبر محمد علي في امر الصلح  
اما محمد علي فاخذ في تدبير مكيدة له ومن معه وذلك انه  
اوحي لاحد رجاله ان يكتب لزعمي المماليك ان محمد علي باشا قد رضي



بمصلحتهم وأنه يعطيهم رشوة طائلة إذا قدما الى مصر واوعز ايضاً الى عامله الذي كتب ذلك انه عند مجيئهم يدخلهم المدينة في اليوم الذي يكون فيه محمد علي واتباعه مشغولين باحتفال جبر الخليج ولكي يخفي حيلته ولا يجعلهم يفهمونها اشار عليهم بضرورة دوراتهم حول المدينة ودخولهم من باب النصر حتى يضطروا الى المرور قرب القلعة في طريقهم من منتصف القاهرة الى الحارة المعوجة التي اصبحت الان شارع محمد علي المشهور.

فقبل المماليك وزعماءها دعوة محمد علي وفرحوا بالرشوة ولكنهم لم يعلموا انهم وقعوا في المصيدة. ووضع محمد علي مكامن من رجاله الالبانيين المخلصين في الطريق وامرهم بالاستعداد لاي اشارة وحالما دخل المماليك في تلك الحارة المعوجة الضيقة انقض عليهم اولئك الالبانيين وأطلقوا عليهم الرصاص بلا رحمة.

فطلب بعض قواد المماليك ان يسلموا على شرط ان يحفظوا حياتهم من الموت فتركوهم ولكنهم ذبحوهم كلهم ثاني يوم ما عدا اثنين او ثلاثة دفعوا فدية هائلة عن انفسهم ليؤجلوا ذبحهم. وبعد ذلك أرسل محمد علي باشا الى بلده واستقدم عائلته منها الى البلاد المصرية واستعد على توطيد اقدامه فيها. ونجح محمد علي في السنتين التاليتين لذلك في احباط مساعي الباب العالي التي توجهت الى خلعه وتمكن بوسائط اخرى تحت ستار التهديد وبواسطه رشايه عليه ايضاً من الحصول على فرمان من السلطان

بتثبيته على ولايه مصر في نوفمبر سنة ١٨٠٩ على شرط انه لا يتعرض للمماليك الذين صدر عفو السلطان عنهم. وفي تلك السنة مات عثمان بك البرديسي ومحمد الانفي موتاً طيباً فخلاً الجور لمحمد علي ولوان الانكيز ارسلاوا جملة الى مصر سنة ١٨٠٧ بحجة ان تثبت محمد علي عليها يخل بتقوذاها ولكنهم لما وجدوه قوي السلطة ويعتد عليه في حفظ الموازنه بين الاتراك والمماليك بنظام انسحبوا بعد ان احتلوا مدينته الاسكندريه شهراً

ومن ذلك الحين حتى سنة ١٨٤٧ اخذت قوى عقله في انحطاط فآلت حكومة مصر الى ابنه ابراهيم باشا. ومحمد علي لم يحكم فقط على مصر بل ملكها لانه من سنة ١٨٠٧ الى سنة ١٨١٠ م قام باعادة تشييل حوادث السلب والنهب بافطع معانيها فالتأ السلطان ايمان اثاني منه واعد له مكائداً ولكنه تمكن بوسائط عظيمه بسبب من التفرد بالملك حيث الغا جميع املاك الاراضي وصادر اصحابها بطرق اخرى مكنته من امتلاك كل الاراضي المصرية لنفسه واعلن من ذلك الحين فصاعداً انه الملك الوحيد لكل الاراضي المصرية وان كل حقوق الملكية والاقطاعية تمنح بواسطته فجأت اليه التظلمات والاستعطافات والصراخ من كل طبقات المصريين في كل بلد واقليم فلم يعبأ بها محمد علي وظل ثابت الجأش معتمداً على جيشه الهائل من رجال الارناؤوط. فالتزم المصريون البوساء ان يخضعوا كمعادتهم لتلك المظالم الهائلة حيث لم يكن في وسعهم مقاومة



تلك القوة الهائلة (١)

الا انه كان لم يزل في البلاد كثير من المماليك القدماء وكان عددهم كافياً لجعل محمد علي يشعر انه للآن لم يصبح الحاكم المطلق والسيد المتصرف في كل شيء وفي كل نفس في البلاد فعزم على تطهير البلاد من هذه البقية ايضاً حتى لا يقف شيء منها في طريقه.

وفي شهر فبراير سنة ١٨١١ م جمع جيوشه لتوديع ابنه طوسون باشا الذي كان مسافراً الى بحيت جزيرة العرب لتقمع ثورة الوهابيين الذين كان استفحل امرهم فيها ضد الداولة العلية وكانت حملة طوسون باشا هذه مؤلفة من ٤٠٠٠ محارب اعد لها له والده وتعين يوم الجمعة لوداعها ووداع قائدها الى قبة العزب. ولذلك اجتمع لهذا الغرض جمهور الوجهاء والاعيان وفي جملتهم المماليك بلا يسهم الفاخرة. وكان ترتيب الاحتفال يقضي بان يسير الجميع بانتظام الى القلعة وامامهم طوسون باشا لكي يلبسه والده الكسوة العسكرية هناك علامة على القاء القيادة العامة اليه في تلك الحملة وقد رافقه عدد عظيم من الجند في هذا الاحتفال

ولما احتشد جمهور الناس في القلعة يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٩ هـ اول مارس سنة ١٨١١ م وكان محمد علي باشا منتظراً هناك قاستقبل الجميع

(١) قد وهب محمد علي باشا مقداراً عظيماً من تلك الممتلكات المقتصبة الى اتباعه الاتراك ولكن بقي كثيراً منها للسله وأراضي الدوميين والدايرة السنية هي جزؤ من تلك الاراضي المقتصبة من الفلاحين المصريين

في سرايته بكل ترحاب وقدمت لهم القهوة وغيرها ولما تكامل الجميع وبينهم المماليك وجاءت الساعة امر محمد علي باشا بمسير الموكب فصار وتزل من القلعة من المنزل الضيق الموصل لباب العزب الذي كان اصلحه محمد علي ببناء سلام له. وكان المماليك يكتفهم القربان والمشاة في اخر الموكب فلما اقتربوا من باب العزب من ابواب القلعة في مضيق بين هذا والحوش العالي غلق الجنود الالبانيين (الارناؤوط) ابواب القلعة فجأة باوامر محمد علي باشا وهجم الالبانيون على المماليك وصاروا يذبجونهم والجيوش المنظمة تصب عليهم نار المدافع والرصاص فهلك جميعهم ما عدا اثنين أو ثلاثة فرنساوي الاصل وصاروا مماليكاً بعد أن اسلوا ايام الحملة الفرنسية بسبب عدم حضورهم هذا الاحتفال لدواعي مختلفة

وكان عدد المماليك الذين هلكوا في هذه الحادثة اربعمائة وستين ونجاة منهم ايضاً مملوكان احدهما احمد بك زوج عديله هانم بنت ابراهيم بك الكبير والثاني أمين بك الذي هرب من تلك المصيدة الجهنمية لما علم بالماكيدة وكان سبب هروبه حادث (١) غريب ولم يكن هولاء كل ضحايا محمد علي من المماليك فقط بل نودى في المدينة بأمر محمد علي وفي سائر البلاد أن كل من يظفر باحد المماليك في أي محل يقبض عليه ويقتله

(١) المتداول على الالسنه أن أمين بك هذا كان داخل القلعة فعند ما حصلت المعركة وسمع قصف المدافع هزم جواده فوثب به من فوق السور الى جهة الميدان فقتل جواده وسلم هو



انما يجده فقي بضمة ايام بعد ذلك الامر بلغ عدد المقتولين من الامراء المماليك ما ينوف عن الالف وكان بعضهم أيضاً يأتي عن يمسكه من المماليك الى كحيا بك فيقتلهم ثم نهت بيوت المماليك المقتولين في مصر وسلبت امتعتهم واعطيت نساءم للعساكر التركية الذين اطلقت لهم السراح في سلب ونهب بيوت هؤلاء المماليك . ومن ذلك الحين اصبح الناس قلما يسمعون باسم مملوك في مصر (١) وكان محمد علي دائماً شديد الحذر بعيد النظر فنزل ثاني يوم من القلعة وامر بايقاف القتال والنهب ومنع الالبانيين من قتل المماليك الذين يجدونهم بل صاروا يجمعونهم

(١) غير الذين قتلوا هرب كثير منهم الى جنوب مصر وسكن جزوا منهم في مديرية اسيوط وبعض منهم تعاطى تجارة الرقيق في السودان والبعض اقام في بلاد أخرى في الصعيد وامتلكوها وحولوها الى معقل وحصون يابى فيها اللصوص وقطاع الطرق . وفي سنة ١٨١٢ م سقط جماعة من المماليك ونهبوا دير الاياد وحرقوا مائة رق عليها كتابات اثرية قديمة كانت بقايا المكتبة القديمة لهذا الدير ولكن ٩٠ في المائة من المماليك ماتوا بحوادث ووقائع قبل ان يبلغوا الخامسة والثلاثين من العمر حتى في ايام عظمة سلطانهم في مصر وكانت تمتلكانهم وبيوتهم وحريرهم وجوارهم وعبيدهم ان لم يمتلكها قاتلهم فانها كانت تباع وتضاف اثمانها لخزينة الحكومة والقليل من نسل اولئك الذين كانت سيرة حياتهم حميدة وشريرة اطلق عليهم المصريون لقب عبد اللاوي (أي لا يصلحون لشيء) واصبحوا لا فرق بينهم والمسلمين المصريين

ويسوقونهم كالغنم الى الذبح في القلعة . وبعد نجاح الالبانيين نجاحاً تاماً في حملتهم الشاقة على الوهايين اظهروا امارات التعب فتبعض محمد علي على قوادهم ونفاهم حالاً من بلاد مصر وسمح لهم باخذ ما نهبوه في حملتهم . ثم نظم محمد علي باشا جيشه على الذق الاوروبي وعين له الضباط الكثرين من الفرنسيين لتدريب الجنود واعتنق بعض من هؤلاء الضباط الفرنسيين الديانة الاسلامية واسس مدرسة عسكرية في الخنكة وايضاً مدرسة للطوبجية في القاهرة ومعامل تسبك المدافع واصطناع جميع حاجيات الجند بمناظرة المهندسين والمرشدين من الفرنسيين . وقد كان محمد علي باشا رجلاً ذا مقدرة وقوة على القيادة ولا يشوب ارادته ومقدرته أي مانع ديني أو مبدأ آخر يعوق اغراضه فكان غير متمصباً بل الذي جعله نصب عينيه في حياته أن يكون سيد الديار المصرية ولذا قد بذل كل جهده في القضاء على كل شيء يقف في طريقه الذي يوصله لتلك الامنية المبتغاه وكان من جل رغائبه أن يكون سيداً عادلاً طيباً ويفعل احسن ما يفعل لتحسين البلاد التي وضع فيها قدميه وبتلك المزايا يمتاز محمد علي ويختلف كثيراً عن الحكام المسلمين الظالمين الذين حكموا مصر قبله ولكن مما يحسن ملاحظته انه لم يأت احد هؤلاء الحكام ما اتاه محمد علي من الاستبداد في سبيل تأييد ملكه . وقد اعتنق الاسلام مثلما اعتنق كثير من كبار المستبدين في العالم الديانة المسيحية لانه عرف ان اعتناق الاسلام امراً لازماً بالطبع وبحسب مقتضيات السياسة لتنفيذ مآربه



ولكن على الاجمال لم يكن مقيد نفسه بالاعتقاد في اي ديانة وارا كان يقف في طريقه رجل أو عشيرة با كلها فما كان عماله معهم الا كنسهم ببساطه من طريقه اما بطريقة الغدر أو بهجوم عاني أو خلافه بحسب ما تقتضيه الظروف. وكان طبعه أن ينتخب احسن الناس امانة واستقامة لخدمته لا يلاحظ في ذلك دين أو وطنية أو جنسية وبهذا المبدأ أحاط نفسه بكثير من الاورباويين المسيحيين لانه شاهد ولا حظ بلا خلاف انهم اكثر نشاطا واجتهادا واحسن تعليما وهمة فلذا كان يركن اليهم ويثق بهم اكثر من المسلمين. والنسب وابطل كل القوانين الاستبدادية والاضطهادية التي كانت موضوعه ضدهم وكان ياقب عقوبه صارمه كل الذين يشتم منهم رائحه القيام بثورة التعصب الديني وفي ذلك الحين كان ينتخب بقدر امكانه نوابغ الارمن أو الكاثوليك أو بعض الاورباويين المسيحيين من اجناس مختلفة ويجمعهم في خدمته لانه لاحظ بفكره الثاقب وبعبيد نظره للمستقبل انه لو استخدم الاقباط الوطنيين في وظائفه ولو أن فيهم الكفاءة الا انه حاذر وقوع خطر في المستقبل منهم اذا قوية شوكتهم وازداد تفوذهم في البلاد التي لا ينسبون انهم اصحابها الاصليين. ولكن كان ناظر ماله الحقيقي هو الملم غالي الذي كان وكيل دائرة الامير محمد بك الالفي وقد نهب بيت المعلم غالي وسلب ما فيه في تلك الايام. وكان محمد علي باشا دائما يصني لوشي الوشاة الذين اتهموا الملم غالي في ذنب كاذب وذلك طمعا بامواله التي يريدون اخذها

منه فاصدر محمد علي باشا امره سنة ١٨٢١ بقتله وبعضهم يقول ان المعلم غالي جلب على نفسه هذه المصيبة لانه ارسل للسلطان تقريرا حقيقيا عن المالية المصرية. ويقول البعض الاخر انه لسبب عدم طاعته للاوامر التي صدرت له بتحصيل ضرائب من بعض القرى بالقوة وبغير طرق قانونيا محملة. ولكن مهما كانت الاسباب ومهما كان ذنبه فانه كان سببا في تخلص محمد علي منه وقد كان قتله امام ابراهيم بك بن محمد علي وطويا بك بن الملم غالي نفسه بدون ادنى محاكمة أو اثبات ذنب.

وكان وزير خارجيته بوغوص بك وهو مسيحي ارمني الاصل ثم اخلفه ارتين وهو من جنسه ايضا. ونظم بحريته مثل جيشه البري بواسطة رجال من الفرنسيين من اهل الفن. وكان الانكاز هم رجال الدولة الوحيدة التي كان محمد علي يخاف سطوتها فكان يستخدم منهم القليل جدا بقدر الامكان ولكن بحكم الضرورة التزم أن يرسل لانكازا يطلب كثيرا من مهندسيها لاستخدامهم في اعماله.

وبعد أن سحق محمد علي قوة الوهابيين في بلاد العرب واسس قوته في مصر على اساس متين لا يمكن هدمه حول دفة انظاره الى السودان.

ومن عهد سقوط الممالك المسيحية في السودان في النصف الاخير من القرن الخامس عشر لم توجد حكومة منظمة في القسم الاعظم من السودان السكان بين وادي حلفا وحدود الحبشة الشمالية الغربية. وادعى



ملوك سنار الصغار العبيد جنساً والمسلمون ديناً الساطة الاسمية على النوبة من ابتداء القرن السادس عشر ولكن حقيقة الحال التي لا ريب فيها أن السودان كانت في ايدي جماعة من العرب تجار الرقيق الذين عاشوا في تلك البلاد على السلب والنهب بين سكان السودان المستقلين الذين كان بينهم قليل من المسيحيين .

ولو أن محمد علي باشا كان بلا دين ولا يعتقد بالاديان الا انه كان يعرف انها ذات اهمية عظمي في السياسة وتمكن من اعتماد مشروع حملته وتحسينها في اعين رعاياه المسلمين بان ارسل ثلاثة من علماء الاسلام مع الحملة واعطاهم التعليمات اللازمة ليس فقط ليجتهدوا ويؤثروا بتبشيرهم ووعظهم على السودانين ليعتقوا الاسلام بل لتفهمهم وجعلهم يعتقدون أن الطاعة العياء في الامور الزمنية والروحية هي بلا شك فرضاً واجب القيام به للخليفة امير المؤمنين

وفي يونيو سنة ١٨٢٠ م ( شعبان سنة ١٢٢٥ هـ ) بارحت الحملة القاهرة في النيل وهي خمسة آلاف جندي نظامي ومعهم بعض العربان وثمانية مدافع وركبت في اسطول مؤلف من ثلاثة الاف مركب صغيره وقائدها اسماعيل باشا احد اولاد انجال محمد علي باشا وقامت على البرقورة خيالة لتلحق بتلك الحملة عند اصوان . وصادفت الحملة صعوبات قليلة في طريقها حتى وصلت دنقله وبربر وشندي بعد أن قطعت في النيل الشلال الاول فالثاني فالثالث حتى السادس وقد اخضعت كل ما مرت به من

القرى والبلدان بدون مقاومة الى أن وصلت اخيراً الى سنار حيث وجدت اثار التمدن القديم الذي زرع الانباط <sup>(١)</sup> المصريون بذوره في تلك البلاد وانشأوا فيها كثيراً من الفنون والصنائع والمعامل بقدر ما امكنهم .

ولما وصلت حملة اسماعيل باشا الى سنار وجدت الخصاص قائماً كما هي عادة الشرقيين بين اخوين يتنازعان على عرش السودان فبددت شلمهاجنود الحملة بدون صعوبة . ثم جاء اسماعيل باشا بملك من السوادنيين كان مخلوعاً ومسجوناً واقامه على العرش بصفة نائب في حكم البلاد عن محمد علي باشا وبذا انتهت مأمورية ضم البلاد السودانية الى مملكة محمد علي المصرية .

(١) المعروف عند الناس عامة ان الكنيسة المسيحية القديمة نجحت من السودان قبل القرن التاسع عشر ولو ان البلاد وقعت في تعاسة عظيمة وصارت الديانة المسيحية لا تمارس فيها الا سراً فانه بقي فيها بعض من الاتقياء المسيحيين في بعض الاقاليم السودانية يتحملون عسف المسلمين حتى عصرنا هذا . ولما ذهب الجنرال غوردون الى الخرطوم سنة ١٨٨٥ وجد باقيا فيها اسقف قبطي من الكنيسة المصرية وكان في ابروشيته سبعة كنائس ودير للراهبات وبعث الجنرال غوردون الاسقف بامان الى القاهرة قبل سقوط مدينة الخرطوم في ايدي الدراويش وبعد ذلك اعتزل الاسقف الخدمة الدينية ولا يعلم ماذا تم لكنائسه واقباطه على عهد المهدي .

اما اسقف الخرطوم فمات في ربيع سنة ١٨٩٧ مسيحية اثناء تأليفنا هذا التاريخ



ودام السودان معتبرا اسميا جزءا من املاك مصر حتى سنة ١٨٨٦ م ولكنها لم تكن ملكا مقيدا أو سائدا فيه السلام ولو انه كان يمكن لمصر ان تنشيء فيه حكومة منظمة

ولكن ما اصاب اسماعيل باشا القائد الذي نجح في فتحها اظهر حقيقة ضعف قوة مصر على السودانين . وتفصيل ذلك انه اثناء رجوع اسماعيل باشا بجنده عبر النيل الى شندي في البر الشرقي وتعرض للملك شندي لتقصيره جباية الاموال فاستدعي اسماعيل باشا هذا الملك واسمه عمر وقال له ( عليك ان تأتيني قبل خمسة ايام بملء قاربي هذا من الذهب والفين من العساكر ) فاستعطفه الملك ليتنازل عن القدر قبل منه اسماعيل باشا عشرين الف ريال فضا عوضا عن الذهب فاجابه على ما اراد لكن التمس تطويل الاجل . فضربه اسماعيل باشا بالسيف على وجهه قائلا ( لا ان كنت لا تدفع المبلغ فورا ليس لك غير الخازوق جزاء ) فسكت عمر واضمر الشر وصمم على الانتقام وطيب خاطر الباشا ووعده باتمام ما يريد وفي تلك الليلة صار يرسل التبن الجاف احمالا الى معسكر اسماعيل باشا علفا للجمال انما جملة حول المعسكر كانه يريد اشعاله . وفي المساء جاء عمر ومعه جماعة من الاهالي ينفخون بالزمار ويرقصون رقص السودانين المعروف فطرب اسماعيل باشا وضباطه من منظرهم وزاد عدد المتفرجين من الاهالي حتى اصبح كل اهل المدينة هناك فامرهم ملكهم عمر بالمهجوم فجمعوا على اسماعيل باشا ورجاله بقة واشعلوا النار

في التبن فمات اسماعيل باشا وكثيرا ممن كانوا معه بين قتل وحرق وفي اليوم التالي اتهموا على الباقيين وساقوا سلبهم الى المدينة . فاغتاز أحمد بك الدفتر دار الذي جاء من مصر عقب ذلك بمدد وأقسم ان ينتقم لاسماعيل باشا بقتل عشرين الفا من السودانيين فحارب الملك عمر وهزمه وصار يقتل في السودانين ويتفنن في اساليب القتل حتى أنفذ قسمه بتمام قتل العشرين الفا وبذا تم افتتاح السودان

وكان ضعف الدولة عليه المتزايد واشتغالها باحوال اليونان جعلت السلطان غير قادر على التداخل في شئون نائبه الشديد البأس محمد علي باشا في مصر . وكان اليونانيون بعد ان عاشوا زمنا تحت نير الاتراك واستعبادهم مثل المصريين قد افاقوا وقاموا يتمثلون بالمصريين وهبوا في وجه الدولة طلبا للاستقلال .

وذلك المثال لم يتجاسر المصريون على القيام بمثله (١) . واتخذ محمد علي باشا حرب اليونان مع الدولة عليه فرصة سانحة لاشغال معظم جيشه الذي كان بلا عمل بعد الحملة السودانية فارسله لمساعدة السلطان في

( ١ ) ولو ان عرابي باشا دبر سياسته بالارتكان على كثير من الانكليز . فانه لم يكن الاشجاء عسكريا مقداما كالشكل الذي كان يوجد منه كثير من اسوأ الخط في البلاد المصرية اثناء الالف سنة الاخيرة ولو نجح في ثورته لوقعت البلاد في اعظم التعاسة ولم تقم في مصر قبل عرابي ثورة اهلية عامة عظيمة مثل ثورته من عهد القرن التاسع للميلاد



حروبه وهو اشغل نفسه في اصلاح مصر التي جعلها ملكه الخاص .  
 وكان يرغب في تحسينها رغبة طيبة . وكان حاد الذكاء فبالرغم عن غلطاته  
 المربعة التي قادته جهله بارتكابها فان احوال مصر المادية تحسنت تحسناً  
 يينا على ايامه . واصبحت في عز وورخاء . لانه اعاد زراعة القطن واحيا  
 كثيراً من الصنائع بعد موتها تحت نير احكام الاتراك المسمه . وحفر  
 كثيراً من الترع الجديدة واخصبها ترعة المحمودية باسكندرية . وانشاء  
 المستشفيات ومدارس طيبة بتعليمات وارشادات الفرنسيين . وايضاً  
 صرف مبالغ طائلة في ايجاد فاوريقات ومعامل للصناعة . وقد هدم الهياكل  
 المصرية القديمة في انحاء البلاد ليبنى المعامل التي لم تستعمل كلها ابداً .  
 واوجد الامن في ربوع البلاد المصرية . وانشاء للمدن والبنادير بوليسا  
 منظماً لحمايتها وملاحظتها وهذا اول شكل من نوعه رآته البلاد المصرية  
 بعد اجيال طويلة . وبالنسبة لاجتهاده ونشاطه عادت طرق قوافل  
 التجارة والبريد تانيا بين مصر وبلاد الهند وبلاد الشرق الاخرى في  
 اسيا وعلاوة على كل ذلك فانه اوجد مطبعة كبرى عظيمة في بولاق  
 فكانت تطبع وتشر الكتب المترجمة من اللغات الاجنبية الى العربية  
 وتبيعها باثمان بخسه جداً كي تنشر العلوم والمعارف بين المصريين . ثم  
 اهتم بالحالة العلمية فشكل مجلساً للمعارف العمومية . ففتح مدارس كثيرة  
 لتعليم شبان القطر وكان يرسل بعضاً منهم الى أوروبا لتنظيم دروسهم على  
 مثل الارساليات العلمية في هذه الايام وغرس كثيراً من البساتين

والاشجار في الجزيرة وشبرا واوجد حديقة الازبكية ومصلحة الصحة  
 وقسم القطر الى مديريات

ومع كل هذا النجاح فان محمد علي كان لم يزل مشابراً في السير الى  
 آخر غرضه المقصود وهو الاستقلال التام بالاسم والفعل . وفي سنة  
 ١٨٣١ م رأى ان الوقت قد حان لتنظيم هذه الامنية . وقد كان وقتئذ  
 الباب العالي مشغولاً في ثورات استقلال السرب وبوسنيا واليونان سرّاً  
 وسياسياً كل من فرنسا وانكلترا وروسيا . فانتحل محمد علي حجة ركيكة  
 لفتح سوريا .

ففي نوفمبر سنة ١٨٣١ م ارسل ابنه ابراهيم باشا يقود جملة  
 بريه وبحريه فوصل سوريا وأخذ غزوه وياقاً بدون مقاومة أما عكا  
 فدافعت دفاعاً هائلاً مدة ستة شهور واخيراً سلمت في ٢٧ مايو سنة  
 ١٨٣٢ ثم سار ابراهيم باشا الى دمشق فاخضعها ولم تدافع الا بيسيراً وبارحها  
 الى حمص حيث كانت الجنود العثمانية تنتظره لرده عن فتح سوريا تحت  
 قيادة محمد باشا والي طرابلس فمسكر ابراهيم باشا في حمص يوم ٨ يوليو  
 سنة ١٨٣٢ م فهجم عليه محمد باشا فقهره ابراهيم باشا واستولى على  
 حمص تخافت سوريا سطوة هذا القائد العظيم فسلمت له حلب وغيرها  
 ووقعت كل سوريا في قبضته . ولكنه لم يقف عند هذا الحد من  
 النصر المجيب

بل لما تشكى والي طرابلس امر انكساره للباب العالي خاف هذا



سطوة ابراهيم باشا وارسل رشيد باشا ستة الاف من الجيوش العثمانية لا يقافه عند حده . وكان مع ابراهيم باشا ثلاثة آلاف من الجنود المصرية فقط فسار نحو الاستانة لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجيشان في ديسمبر سنة ١٨٣٢ م في كونييه جنوبي اسيا الصغرى وبعد حرب هائلة تغلب ابراهيم باشا على الجنود العثمانية مع انها ضعف جنوده وتقهقرت بقائدها رشيد باشا فاخترق ابراهيم باشا اسيا الصغرى وتهدد القسطنطينية بالفتح خافت الدول العظمى التي لا تريد أن تنظر وجود دولة اسلامية جديدة مصرية قوية تقوم على انقاض الدولة العثمانية القديمة فتدخلوا في الامر وفي مقدمتهم روسيا فانفذت الى مصر البرنس مواريفف لمخاطبة محمد علي بايقاف جيشه المنتصر عن التقدم الى القسطنطينية وهددته بالحرب أن لم يذعن فبعث الى ابنه ابراهيم باشا أن يتوقف عن السير الى الاستانة . ثم عقدت معاهدة الصلح بين محمد علي باشا والسلطان بمساعي الدول من مقتضاها أن تكون سوريا قسماً من مملكة مصر و ابراهيم باشا يكون حاكماً عليها وجائياً لخراج اذنه . وتم ذلك الوفاق في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٤٦ هـ ( ١٤ مايو سنة ١٨٢٣ ) ويدهي وفاق كوتاهيا .

فناد ابراهيم باشا الى سوريا واهتم بتدبير احكامها وتنظيمها على النسق الذي اتبعه ابوه في مصر وجعل عاصمة ملكه انطاكية وابتنى فيها قصرًا وقشلاقات وتساهل تساهلاً تاماً مع الدروز والمارونيين وسائر مل

النصارى وصار يستخدم منهم من يليق لخدمته في مستعمرة ابيه محمد علي متخذاً خطة ابيه لا يبالي بالوطنية أو الدين . ولم يضغط الا على اليهود فقط ولكن لم يضطهدهم اضطهاداً عظيماً بل لم يرفع عنهم دواعي الانحطاط (١) والضعف ولم يدافع عنهم المصائب والمخايقات التي كان المسلمون يقومون بها ضدهم وكان ابراهيم باشا سائراً بكل حكمة ودراية خشية سوء العقبي ومع ذلك لم ينبج من ثوره قام بها جماعة من جبال نابلس اطفأ نارها محمد علي نفسه . وذلك بأنه اوجد للمسلمين الثائرين عذراً قاموا بسببه في فواحش وكبائر هائلة ضد اليهود وكان مسيحيو الناصره وبيت لحم واورشليم سيأخذون نصيبهم من بلايا هؤلاء الثائرين لولا ان دافعوا عن انفسهم حتى جأهم النجده من مصر بامر محمد علي باشا

وفي سنة ١٨٣٥ م اصاب مصر كويلر دامت عدة اشهر واثرت تأثيراً مرعباً في اهلها . وكان يوجد طيبب فرنساوي يدعى كلوت (وهو كلوت بك) الذي سمي باسمه احد شوارع محمد علي الجديدة وهذا الطيبب اثار ايات الاعجاب به في نفس محمد علي باشا لتصرفه العظيم بتخفيف وطأة الكويلر عن الاهالي فانعم عليه بلقب بك

(١) قيل أن مسلمي دمشق شكوا الى ابراهيم باشا من أن قباحة المسيحيين قد زادت عن الحد حتى أنهم صاروا يظهرون في الشوارع راكبين الخيل فنصح ابراهيم باشا المتذمرين بكل هدوء وزانه قائلاً اذا كنتم تريدون الظهور ارفع واعظم من النصارى فاركبوا الجمال ( فتكونوا اعلى منهم مقاماً )



وبين الكثيرين من الزائرين الاورباويين لبلاد مصر التي كانت اكثر  
امناً واكثر باعاً لسرورهم مما كانت لاهلها انفسهم كما لم نزل  
للآن هو؟؟ المستر لاند التلميذ الطائر الشهرة . هذا الف كتاباً دعاه  
(المصريون الحديثون) على ان عنوانه الحقيقي يصح ان يكون (سكان  
القاهرة الحديثون) وهو لذيذ جدا يستحق ان يقرأه كل واحد .  
واهميته تنحصر في وصف المسلمين القاهريين الذين عرفهم المؤلف واقام  
بين ظهرانيهم في سنة ١٨٢٥ م . وفي فترة اخرى من سنة ١٨٣٣ الى سنة  
١٨٣٥ م وتعرف بهم تمام المعرفة . اما الاقباط فكانوا ينظرون اليه بعين  
الظن والريب . ما عدا واحد منهم فقط اجتهد كثيراً ان يتعرف  
به ويكتسب صداقته بالرغم عن مخالفة ابناء جنسه ومع ذلك  
لم يتمكن المستر لاند من المحادثة معه . ومن الغريب ان جل قصد هذا  
الزائر كان الحصول على بعض معلومات عند الاقباط يثبتها في كتابه وبكل  
تعب تحصل على بعض مواضع طفيفة وبالاسف كانت كلها غير صحيحة  
ومن سنة ١٨٣٨ الى ٣٩ زار محمد علي باشا بنفسه بلاد السودان ليتأكد  
حقيقة من وجود مناجم الذهب التي قالوا لها عنها وترك القاهرة تحت  
عناية حفيده عباس باشا وفي أثناء غيابه انتهز السلطان الفرصة لاثارة  
الحرب عليه بمصر فلما عاد محمد علي باشا الى مصر دعي من استعدادات  
الباب العالي فكتب الى ابنه ابراهيم باشا يستعنه بالاستعداد للدفاع ضد  
ابراهيم باشا جنوده لدفع الجنود العثمانية القادمة براً

وكان الفيكونت بونسو نوبلي سفير انكلترا في الاستانة قد نصح  
للسلطان بالعدول عن ذلك المشروع المهلك فجاء نصحه عبثاً وتهجم السلطان  
على خراب نفسه . فسار الجند العثماني والتقى بالجيوش المصرية وحصلت  
مواقع شديدة بين الجيشين في نزيب انتهت بانهزام العثمانيين انهزاماً تاماً  
وتقهقرهم الى مرعش . واتفق في أثناء ذلك وفاة ساكن الجنان السلطان  
محمود خان الذي لم يسمع نصيحة سفير انكلترا في ٢٦ ربيع اخر سنة ١٢٥٤  
هـ « ٣٠ يونيو سنة ١٨٣٩ م » قبل بلاغه خبر انهزام جيشه . فتولى الخلافة  
بعده ابنه السلطان عبد المجيد وفي ذات اليوم الذي نودي به سلطاناً في  
القسطنطينية سار الاسطول العثماني الذي كان جهزه ابوه بقيادة فوزي باشا  
بعد اطلاق مدافع التجهية والتمظيم للسلطان الجديد وزين المراكب  
وحول دفة وجهته الى الاسكندرية حيث تماهد هذا الاميرال الخائن  
بتسليم الاسطول ليد محمد علي باشا وكانت هذه التصرفات سرية لم يطلع  
عليها مطلقاً الكابتن ووكر القائد البحري الانكليزي الذي كان مرافقاً  
الاسطول العثماني . فعند وصول الجميع للاسكندرية استقبلهم محمد علي  
باشا كأصدقاء فلما ادرك الكابتن الانكليزي الامر الذي كان مخيماً على  
مخيلته كالظلام أبى العوده على اسطول العثمانيين وعزم على الرجوع وحده  
ثانياً الى القسطنطينية .

والنزم محمد علي باشا من ذلك الحين أن يعمل حساباً لوجود مانع  
جديد قوي اكثر تعرضاً للوقوف في سبيل مشروعه ونوال قيمة ما



تطمح اليه نفسه وهذا الحاجز الجديد الذي يعترضه هو اقوى من كل ما تقدم من الموانع التي اعترضته في سبيله — ونفي بهذا المانع — معارضة كل الدول العظمى له وعرقلة مسيره وعلى الخصوص دولة انكلترا وان جئنا هنا بالحقائق التي اشرت على الدول الاورباوية العظمى وجعلتها تنوي على ايقاف محمد علي عند حده لاحتاج الحال لشرح طويل ممل . فنقول الآن هنا ان محمد علي باشا لم يقتصر على ما اكتسبه من امتلاك مصر والسودان بل من الواضح ان نفسه كانت تطمح الى اعمال احسن من ذلك فكان يحلم بالفتح العام وبخضع مملكة بعد مملكة بجيشه الذي وان كان صغيراً لكنه احسن من جنود الجيوش التركية المتوحشة التي لا تعمل شيئاً في الحرب الا الضرر .

فلما انتت الدول الاورباوية المتحدة عزم محمد علي باشا على هذا المشروع اجتهدت في وضع حد لمشروعاته ومطامعه في الفتح واتحدت على تنفيذ ذلك الحد فاوفدت الحكومة البريطانية الكولونيل هودج ليلينغ قرار الدول الى محمد علي باشا .

وحوالي اخر سنة ١٨٣٩ م نزل الكولونيل هودج في الاسكندرية واستعمل كل لطف ورقة في مخاطبته مع محمد علي سياسياً ليوصله الى الامر المراد اخباره به بالتدريج فلم تأت هذه السياسة بفائدة والتم الكولونيل بتبليغ محمد علي باشا رسمياً في يناير سنة ١٨٤٠ م انه جاء نائباً عن انكلترا ليخبره بان دولته وباقي الدول الاورباوية العظمى لا توافقه

على اتمام مشروعاته وطامعه في الفتوحات ولا تسمح له التيسام بها . وقال له السفير ان شاء فليحصر فتوحاته في قارة افريقيا كلها فقط وينفي له في تلك القارة مملكة عظيمة تشرح خاطره وتدسد مطامعه فلا تعارضه الدولة في ذلك أما في اوربا واسيا وكل ما يختص بهما فلا تسمح له الدول بذلك .

وكان محمد علي باشا مثل كثير من الحكام والقواد الشرقيين فانه لم يعترف باهمية الامر الذي بلغ اليه تحت ستار لطيف ورقيق المخابرة وكان معتزاً بقوته لانه كان لديه اذ ذاك نحو ١٤٦ الفاً من الجنود النظامية و٢٢ الفاً من الباشبوزق منها ١٣٠ الفاً تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا في سوريا والباقيون متفرقون في الحجاز وسنار وجزيرة كندى ومصر عدا تلامذة المدارس الحربية الذين في مصر

ولم يصدق محمد علي باشا ان انكلترا كانت تخبره في ذلك جدياً فتخابر مع السفير عن « حقوقه » فجلبت نتيجة هذه المخابرة مذكرة شديدة من حكومة انكلترا انه ليس له « حقوق » الا التي يعطيها له السلطان ورضيت الدولة به شرط انه يمكن سحبها في أي وقت . فبعد ان اطلعه السفير الانكليزي الكولونيل هودج على كل تلك الاقتراحات رأى منه رفضاً باتاً بعد طول المخابرات فالتزم بقطع المخابرات مع مصر في شهر مارس سنة ١٨٤٠ م

وفي ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ م ( ٢٤ جماد اول سنة ١٢٥٥ هـ ) عقدت



معاهدة في لندن وامضيت من كل دول انكلترا والنمسا وروسيا والمانيا والدولة العلية مقتضاها ان مصر تعتبر جزءا من أملاك الدولة العلية وان محمد علي باشا يكون من الولاة التابعين لهذه الدولة وان يعطيه جلالة السلطان ولاية مصر وراثية لنسله بشرط ان يكون لجلالته الحق المطلق في ان يختار من عائلة محمد علي من يريد لتوليها وان تضمن له الدول المذكورة هذا الامتياز وعلاوة على ذلك يستمر مالكاً طول حياته ولاية عكا وجنوب سوريا وفي هذه المعاهدة انه ان لم يقبل محمد علي بنودها وشروطها في بحر عشرة ايام من تاريخ وصولها الى مسامحة تسحب منه ولاية عكا وجنوب سوريا وبمده عشرين يوماً تعتبر كل حقوقه ساقطة ايضا في مصر وسوريا.

وفي اغسطس سنة ١٨٤٠ قام رفعت باشا سفير الدولة العلية حاملاً هذه المعاهدة وعقد مجلساً في مصر مع محمد علي باشا وابلاغه كل بنودها ومعانيها. وجاء ثاني يوم قناصل الدول الكبرى المذكورة وانظروا التصديق على شروط وبنود معاهدتهم. فانكل محمد علي باشا على مساعدة فرنسا له ولو انه لم يعارض ويرفض كثيراً من بنود تلك المعاهدة ولكنه استعمل المحاولة والمراوغة والتعمل وغرضه من ذلك وجرد وقت يتبصر فيه. وبعد انتهاء العشرين يوماً له قناصل الدول لاعطاء اقرار فطالب التأجيل لوقت اخر ولم يكن يظن ان الدول تقدر ان تنفذ ما قالته في معاهدتها من التهديد. ولكنه عرف حالاً ان الامر حقيقة

وان الشروط لا غش فيها اذ رأى قبل انتهاء السنة كل سوريا في يد الجيوش العثمانية والقائد العام عليهم السير تشارلس سميث الانكليزي. ورأى أيضاً الاساطيل الانكليزية والنمساوية والعثمانية حاصرت كل الشواطئ السورية والمصرية وهرب ابنه ابراهيم باشا الذي في سورية الى الجبل. وتحت فرنسا عن التداخل الذي كان ينتظره محمد علي باشا منها. وفي ٢١ نوفمبر سنة ١٨٤٠ وصل الاسكندرية الكومندور ناير وبعد قليل ارسل عدة خطابات رسمية لمحمد علي باشا أوضح له فيها صريحاً ان الدول تسمح للبasha ببقائه في مصر اذا أسرع بالخضوع وقبول شروط المعاهدة بلا امهال. ففهم محمد علي جيداً معنى تلك الملحوظات التي تعرضها عليه انكلترا. وامضى بسرور على اتفاقية مبدئية عقدت بينه وبين ناير وقنصل انكلترا في ٢٧ نوفمبر مضمونها ارجاع الاسطول العثماني الذي أخذه بالغش من الاميرال فيرزي باشا العثماني واخلاء سوريا على شرط ان الدولة الانكليزية تضمن بقاءه في مصر. فلم يسر الباب العالي ولا الاميرال الانكليزي ولا السير تشارلس سميث من هذه الاتفاقية واتبعوا باب العدل وقالوا ان ناير تسدي العدل في شروطه. ولكن انكلترا رضيت بها وتنفذت. وفي ٤ فبراير سنة ١٨٤١ م سحب محمد علي باشا جنوده من سوريا وبلاد العرب وخانيه. وفي ١٣ منه الموافق ٢١ ذي الحجة سنة ١٢٥٦ هـ ارسل له جلالة السلطان خطاً شريفاً بتثبيتته على مصر مع حقوق الوراثة لاعتقابه. ثم صدر ايضاً فرمان اخر يثبت ولايته على نوبيا



ودارفور وكردفان وسنار واصبحت حكومته بعد ذينك الفرمانين  
محصورة في مصر والسودان . ففتح محمد علي باشا بما قسم له من البلدان  
وعكف الى اصلاحها داخليا وعمل على ارضاء جلاله السلطان فاتخذ اليه  
ابنه سعيد باشا لتقديم فروض العبودية . وبعد ذلك الحين مرت على  
مصر ست وخمسون سنة يحكمها امراء من سلالة ذلك النادر المقدم  
والفاتح <sup>(١)</sup> الهمام محمد علي باشا المقدوني

وظل محمد علي متكبرا من تلك الحوادث اثني عشر سنة . حتي قبل  
موته باثني عشر شهرا اصبحت غير قادر على الاحكام . ويظهر ان نجمه  
السعيد وحظه العظيم ابتداء ان يهجره بعد سنة ١٨٤٠ م

وفي سنة ١٨٤٣ م زار مصر طاعون المواشي بدرجة مرعبة واصبح  
من المتعذر جدا الحصول على البهايم لعمليه حرث الارض فالتزم محمد علي  
باشا باستخدام خيول الجيش في الزراعة . وكان يرى بعض الاحيان الجمل  
والحمار مربوطان معا في المحراث وفي كثير من القرى كان الفلاحون  
يعلقون انفسهم في المحراث ويجرونه بدل البهايم . وفي تلك السنة دام

( ١ ) واثناء كل الحوادث المتقدمة اجتهد محمد علي في فتح وتسهيل الطريق  
الموصل لهند من داخل البلاد المصرية كما كان قبلا . وكان هذا الصنيع الذي  
يشق عن بعد نظره في سياسته باعنا لايجاد علائق المحبة العظيمة بينه  
وبين انكلترا وصك تجار بمباي مداليه شرف له باسمه مكتوب عليها ايات  
التكريم والمدح والثناء

فيضان النيل طويلا على الارض وتأخير نزول المياه ضاعت القرصة  
على الفلاحين لتجهيز ارضهم للزراعة . وقيل انه هلك بهذا الطاعون  
مائتان الف نور . وفي السنة التالية خربت مصر أيضا بطاعون الجراد  
وانتشرت الكوليرا أيضا في فصلي الشتاء والربيع واصبح في مصر  
اربعة اعداء اشداء هم طاعون المواشي والجراد والكوليرا وزيادة  
الفيضان

اما السودان فلم يكن قد ضم بعد الى مملكة مصر الا ان احمد باشا الذي  
ولاه محمد علي باشا على السودان وهو من المماليك لم يكن الا تاجرا  
عظيما في الرقيق بدرجة هائلة وكان يعضده جيش منظم لجلب الرقيق  
والانجار به فضلا عن استخدام نفوذه الرسمي في ذلك

وكان محمد علي باشا غير عالم بشيء من ذلك لان رجال حكومته لم  
يطلعوه على حقيقة الامر خوفا من تأثير الكدر عليه حيث كان قد طعن  
في السن وأثرت على صحته نتائج الحوادث المتقدمة ولا سيما ضغط الدول  
عليه التي اهابت مساعيه حتى من من مباشرة الاحكام ولذلك كانت  
ترفع اليه التقارير الخاصة باحوال البلاد منقحة ومختلفة ومحدودة منها كلما  
يحدث الكدر

وكان حاكم السودان يفتح جميع المراسلات التي ترد على الخراطوم  
ومحرقها بما فيها مراسلات الاوربا وبين والتجار وكان اهل السودان في  
حقيق شديد من استمرار تدهي الحكم والمساكر على خفاف اصنامهم



منهم وتصديرهم للمتاجرة بهم كالأغنام والسلع ولم يكن من يرثى لشكواهم  
ويعيشهم من هذا الكرب غير السايحين الاورباويين الذين لا يعرفون  
المحاباة ولا تحزب لجانب من الطرفين .

وقد نشأ عن هذه الاحوال وعن تسخير عدد عظيم من الفلاحين  
البؤساء في الاشغال العمومية ان سكان القطر المصري كلهم اصبحوا  
يثنون تحت انياب الفقر سنة اكثر من سنة وايضاً وصلت البلاد المصرية  
الى حالة تعاسة هائلة واصبحت مديونة بينما كانت الاموال تبذر  
تبذيراً بلا فائدة على المعامل الصناعية والقصور والمنازل التي ينيها  
الاورباويون في اكبر المدن المصرية فتضايقت البلاد حتى كثرت مهاجرة  
الناس سنة ١٢٥٩ هـ (سنة ١٨٤٤ م) لتعذر دفع الرسوم المطلوبة منهم  
والحاج الحكومة في طلبها بكل واسطة واذا خلت قرية من اهلها اضافت  
الحكومة رسوما على القرية الاخرى بجانبها فكثرت اللغظ في البلاد كل  
ذلك من سوء تصرف العمال . فرأى ابراهيم باشا ان اخفاء تلك الاحوال  
عن ابيه ربما يؤول الى خراب البلاد فأخذ على نفسه تبليغه ذلك فكلف  
شقيقته في ٢٥ يونيه سنة ١٨٤٤ م ان تبلغ الامر اباها بطريقة لطيفة وغير  
رسمية (خوفاً على صحته) ما وصلت اليه البلاد من العسر واشتداد الازمة المالية  
اشتداداً هائلاً وقتئذ فلما ان بلغته اشتمل محمد علي غيظاً  
نخاف وزرأؤه المسيحيون والتزموا تبليغه نتيجة الحال رسمياً يأسين .  
ولكن محمد علي في ذلك الوقت لم يكن كما كان في اول نشأته وذلك

بسبب كبر سنه وتوالي المصائب عليه بعد ان افل نجم فتوحاته فان عقله  
ضعف فحمل هذا البلاغ على مكيدة اعدوها له فبرح سرايه في الاسكندرية  
واقام عند صهره محرم بك بجانب التربة المحمودية وصار يقسم مصر حاباه  
محاط بقوم خائنين ولذلك فهو مستعد للتخلي عن الحكومة والذهاب الى  
مكة فحاول ابنه سعيد باشا وابراهيم باشا مخاطبته واقتناعه بالحقيقة فلم  
يصنع فجاءه سامي باشا اعز اصدقائه فلم يقتنع الا بما سبق اليه فهمه وقال  
ان مصائب بلادي ما تنجت الا من خائنين دسوا السم في الدسم فاستنتج  
من اعماله انه اصاب بنقص في عقله ثم سافر محمد علي باشا مع طبيبه الى  
القاهرة فعرض الناس الولاية على ابنه ابراهيم فأجابته انه لا يقبلها طالما  
كان ابوه حياً . ولما وصل محمد علي باشا القاهرة عاد الى صوابه وروعه  
وفطن لنفسه فجمع رجال حكومته ووبخهم على اخفاء تظلمات الاهالي عنه  
ثم تدخل ابراهيم باشا في الامر وصرف المشكل

وفي سنة ١٨٤٦ م وصلت محمد علي باشا دعوة رسمية للذهاب  
لتقديم فروض العبودية لجلالة السلطان الاعظم في الاستانة فعرف محمد  
علي باشا ان هذه الدعوة معناها طلب تقديم رشاو وهدايا هائلة  
للسلطان ورجله .

فوصل الاستانة في ١٩ يوليو سنة ١٨٤٦ م ونزل في سراي رضا  
اباشا وتشرف بالمشول بين يدي امير المؤمنين فرحب به ولما اراد تقبيل  
لاعتاب الشاهانويه امسكه واجلسه بجانبه ومكث معه ساعة يعادنان ثم



انصرف شاكرًا وزار عدوه القديم خسرو باشا وتصافيا وفي ١٧ اغسطس سنة ١٨٤٦ م برح الاستانة الى قوله مسقط رأسه فأنشأ فيها المدارس لتعليم الفقراء وملاجيء للضعفاء والمساكين ثم برحها قاصداً الاسكندرية فقبل بالانوار وسار منها الى القاهرة فتقاطر اليه المهثون افواجاً وكان يقابلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية تتلأل كالشمس. وكان ابنه ابراهيم باشا قد اصيب ايضاً بانحراف في صحته فسار الى اوربا ترويحاً للنفس فصادف ترحاباً عظيماً في سائر الممالك الاورباوية ولا سيما فرنسا وانكلترا وعاد الى مصر في أواخر صيف سنة ١٨٤٦ وتقابل مع ابيه وهنا بعضهما بسلامة الوصول الى الوطن بعد سياحتهما.

وكانت آخر مشروعات محمد علي باشا الاصلاحية الخطيرة في آخر حياته هي القناطر الخيرية التي وان يكن اصل فكرة تشيدها ينسب الى قريحة وذكاء احد المهندسين الفرنسيين لكن هذه الفكرة ظلت في عالم الخيال ولم تجد طريقاً لظهورها في عالم الوجود الا بعد خمسين سنة بواسطة ذكاء احد المهندسين الانكليز الذي عرض مشروعه على محمد علي وابان له عظيم فائدته للري فاقر محمد علي باشا على مباشرة العمل وقام بوضع الحجر الاول منها سنة ١٨٤٧ م باحتفال عظيم جنلهم وحوالي آخر هذه السنة اصبحت صحته وابنه في انحطاط. وفي يونيه سنة ١٨٤٨ م زاد ضعفه كثيراً وازدادت فيه ظواهر التخريف والبله فلم يكن بد من انتقال عنان الاحكام الى ابنه ابراهيم الذي بعد

تثبيتته في الولاية بفرمان سلطاني راجعه المرض واشتد عليه بغتة فقارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م وبعد وفاته باحدى عشرة ساعة دفن بجوار الامام الشافعي (مدفن العائلة الخديوية) جنوبي القاهرة كل ذلك وابوه محمد علي باشا في الاسكندرية وقد اخذ منه المرض مأخذاً عظيماً وما زال يهزل جسداً وعقلاً حتي توفي في ٢ اغسطس سنة ١٨٤٩ م. ولم يستغرب الناس موته لانه ظل ينازع طويلاً. وفي ٣ منه تقاطر الاعيان والقناصل الى سراي رأس التين لحضور مشهد ذلك الرجل العظيم فاذا به في قاعة الاستقبال موضوعاً في نعش تغطيه شيلان الكشمير وعلى صدره سيفه والقرآن وعلى رأسه طربوشه الجهادي الاحمر التونسي وحواله ٢٢ من العلماء بالملابس الرسمية يتلون القرآن بانغام محزنة فعمزى الناس سعيد باشا اكبر عائلة الذي نقله الى القاهرة ودفنه في جامع القلعة.

وهكذا مات محمد علي بعد ان وضع الاساسات المتينة الكافلة لضمان اعضاء عائلته من غوائل الموت المعتاد حصولها في الاقطار الشرقية.

وكان عباس باشا حفيد محمد علي غائباً في مكة فاستقدم حالاً لسلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٤٩ م بعد ان قضى فروض الحج واخلف عمه ابراهيم باشا على الاريكة المصرية بدون حدوث اي صوت معارض لانه اكبر ابناً العائلة وجاءه الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذناً بذلك.



## الفصل الثالث والسبعون

### الاحتلال الانكليزي

سنة ١٨٥٤ مسيحية و ١٥٧٠ للشهداء و ١٢٧٠ للهجرة

ان تاريخ الديار المصرية في الخمسين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر حسن جدا ولذا فاننا ثبت حوادثه هنا بفصل قصير ونسرد الحوادث حتى نصل بالقارىء الى الاحتلال الانكليزي للبلاد فنقول ارتقى عباس باشا الاريكة المصرية وهو ابن طوسون باشا ابن محمد علي باشا. ولحسن حظ مصر لم تطل مدة حكمه عليها الا ست سنوات. وكانت أخلاقه الخصوصية وصفاته رديئة فتقهقر نفوذه في البلاد وتوفي في وسط عائلته<sup>(١)</sup> في شوال سنة ١٢٧٠ هـ الموافق يوليو سنة ١٨٥٤ م. واخلفه على الولاية سعيد باشا ابن محمد علي باشا وكان يشبه عباس من أكثر الوجوه. وابتدأت البلاد تتنازل بالتتابع الى درجات الفقر المدقع تحت أحكام سعيد باشا وخلفه الاكثر عظمه والذي لا يقف في وجهه اغراضه الا وهو اسماعيل باشا لانهما سارا بحسب الغريزة الشرقية

(١) كانت قساوة واستبداد عباس باشا شديدة على نسائه خصوصا. فانه خاط يده فم احدى جواريه عندما رآها تشرب الدخان وتركها مخيطة الغم تنحيط من الالم والجوع حتي ماتت يبطل.

الحقيقية بان ابتدأت أعمالهما من الطرف المخالف ولم يكن لاي منهما ميل للاختلاط بالرعايا المصريين والعطف عليهم سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين ولم يكن لهما أي ميل لصالح الفقراء من الرعايا الذين كانوا يساقون الاعمال الشاقة تسخييرا في انجاز الاشغال والاعمال العظيمة التي أثارت تعجب الاوروباويين ووصلت نتيجة الضرائب القادحة على الاهالي الى درجة هائلة جدا جعلت الفلاحين المصريين جميعا مديونين لجماعة اليونان الذين يقرضونهم أموالهم بفوايض فاحشة وكان يقترضها الفلاحون لتسديد طلبات ومطامع الحكومة التي كانت تعد كأنها بلا خديوي

الا انه الى سعيد باشا تنسب كل شؤون التمدن الحديث الذي انتشر في القطر المصري بعد ان كان متغربا. وينسب الى سعيد باشا الذي قام بنشر ذلك التمدن بارشاد فرنساويين كأبيه هدم الميا كل القديعة ليبنى بانقاضها في المعامل الصناعية فأوجد دار الانار المصرية (الانديكخانه) ودور الحفر والبحث على الانار في تاتيس وسائيس وطيميس وكنوبوليس وبواستيس (تل بسطه بالزقازيق) واتريبيس وهليوبوليس (عين شمس) وممفيس وسقاره وأيدوس ودندره وطيه وادفو. وفي أيامه أيضا أنشئت السكة الحديدية بين مصر والاسكندرية وبين الاولى والسويس وكان فساد الاحكام في السودان مستمرا وتجارة الرقيق منتشرة في مصر باوسع معانيها وفي ايام سعيد واسماعيل هرع كثير من الاوروباويين الى البلاد المصرية وخصوصا اليونان والتليان والفرنساويين وتوطنوا فيها.



وهم الذين تمتعوا حقيقة بالادارة المصرية التي لم يستند منها المصريون الا القليل . أما الاقباط فكان مصرح لهم التمتع بالحريّة والتساهل وهي المزايا التي منحهم اياها محمد علي وراساوا بالمسلمين من بعض الوجوه حيث من منذ الفتح العربي الديار المصرية سنة ٦٤٢ مسيحية لم يكن مصر حاكماً لاي مسيحي مصري من الحاكم المسلم ان يحمل سلاحاً وذلك عقب انتهاء الثورة القبطية العظيمة التي حدثت في القرن التاسع عشر وجعلت من المستحيل على أي قبطي التمكن من حمل السلاح . وكانت الضرائب الخصوصية التي يدفعونها علاوة على الاضطهادات والاختلاسات الغير القانونية التي تقع عليهم سبباً شدد عضلات جماعات الجند الاجنبية للحرب لاسيما ممنوعوا من الاندماج في سلك العسكرية في جيوش الاحتلال المختلفة التي حلت بمصر وكانوا ميالين لهذا المنع ليعيشوا بهدوء وسكينة وان خالفوا روح اجدادهم الحربية التي كانت غريزة منهم بالرغم عن هذا المنع وميلهم اليه وقد ظهرت تلك الروح باجلى مظاهرها في القائد يعقوب القبطي الذي تولى قسماً كبيراً من الجيش في عهد الفرنسيين . الا ان مع ذلك كله نقول بكل اسف ان الاقباط كانوا على مثال الانكليز في عهدهم القديم من حيث هروبهم من الخدمة العسكرية طالما وجدوا تحت قيادة معلمين من المسلمين حتى لا يحاربوا ضد امتهم القبطية . لان الجيوش الاسلامية في مصر كثيراً ما كانت تساق لتعذيب الاقباط الغير مسلحين اكثر مما كانت تساق في حرب

عليه قانونيه ضد عدو اعتيادي . ولكن لما اصدر سعيد باشا امره ان كل المصريين بدون تمييز في الدين يكونوا تحت طلبات العسكرية فاستعمل المسلمون هذا القانون آلة لاضطهاد المسيحيين فقبضوا في اسبوط على كل الذكور في اغلب البيوت القبطية وساقوهم للعسكرية ولم يتركوا ولا واحداً منهم لاعدالة النساء والاطفال ولما انتظم الاقباط في سلك العسكرية اتخذ المسلمون منهم خطه عموميّه لاضطهادهم وتعذيبهم ليجبروهم على تغيير دينهم . ولم يكن لهم رجاء ولا في الارتقاء في وظائف الجيش على عهد شعبه كما هم فاقدين ايضاً هذا الرجاء في الجيش المصري الجديد هذه الايام <sup>(١)</sup> ولذلك فان ذلك القانون الذي اصدره سعيد باشا جاء ضربة هائلة وسبب التعاسة والشقاء على الاقباط - حتى التزم بطريقهم كيرلس الرابع الملقب (بابي الاصلاح القبطي) رفع تظلمات شعبه الى الانكليز <sup>(٢)</sup> فاجبر سعيد باشا برفع تلك المظالم عن الاقباط ليس بواسطة حكومة انكلترا بل بتأثير بعض رجال الانكليز الذين كان يخشاهم ويخشى بأسهم ويحافظ على عدم تكديرهم .

(١) ولو ان الضباط الانكليز لا يعلمون هذه الحقيقة الا انه يظهر انها معلومة جيداً عند كل المصريين وانه مهما كانت ضرورة استخدام القبط في الجيش فانه امر ترقته فيه لا يتعدى درجة معلومه

(٢) ان قنصل جنرال فرنسا المسوؤلاتية عرض على البطريرك استخدام نفوذه الفرنسي في مائدة الاقباط على شرط ان البطريرك يصدر امراً لامبراطور الحبشة بدخول اليسوعيين واقامتهم في تلك البلاد



وبذلك التزم سعيد باشا باعفاء الاقباط من الخدمة العسكرية ولكن لم يترك هذا الصنيع هباً للبطريك بل كتم غيظه منه واتخذ الوسائط اللازمة لسمه بامر الحكومة ومات البطريك المسكين مسموما نظير جهاده في سبيل راحة شعبه . وبعد موته صارت الحكومة تطرد مئات من الاقباط الموظفين في مصالحها .

وكان عباس باشا النى المدارس الحربية التي انشأها محمد علي باشا فاخذ سعيد باشا تلاميذها الباقين منها واستخدمهم في جيشه وخرب الكتبخانة التي كان ابتداء محمد علي بجمع الكتب فيها وابادها وفي ايامه ثارت مديرية الفيوم على الحكومة فاخذها وبني قلعة عند القناطر الخيرية سماها القلعة السعيدية سنة ١٢٧١ هـ وأدى فريضة الحج . وولى البرنس حلیم باشا حكمداراً على السودان وزار سوريا سنة ١٨٥٩ م ( ١٢٧١ هـ ) وكان اثناء مروره في شوارع بيروت ينثر الذهب على الناس

وفي سنة ١٢٧٨ هـ ( ١٨٦١ م ) توفي المغفور له السلطان عبد المجيد وتولى الخلافة بعده السلطان عبد العزيز وفي يوم السبت ٢٦ رجب سنة ١٢٧٩ هـ أو ١٧ يناير سنة ١٨٦٣ م توفي سعيد باشا في الاسكندرية ونقل الى مدفن العائلة في القاهرة واخلفه اسماعيل باشا وهو ثاني أبناء المرحوم ابراهيم باشا بن محمد علي باشا وكان اسماعيل باشا بارعاً في العلوم متقناً

فن الهندسة والرسم . واليه ينسب خصوصاً ذلك الحمل الثقيل من الديون الباطلة التي تخرب أعظم مملكة تكون أقل ثروة طبيعية مثل القطر المصري ومع ذلك فإن تلك الديون الهائلة انزات بمصر الى حضيض الافلاس المدقع بالرغم عن ثروتها الطبيعية .

وكان اسماعيل باشا فيه روح الميل الى تعظيم نفسه ورفع مقامه الى مصاف السلاطين والملوك كما ميل جدّه الاكبر محمد علي ان هذا كان قليل الاشتغال وانتاعب بوساوس ووشايات الاعداء بسائر أنواعها عن ذلك . ان حبه للشهرة والعظمة كان سبباً لتحسين مصر الاقتصادية والادبية فانه مدد سكة حديد أخرى في انحاء الدلتا وحفر كثيراً من الترع وأنشأ مصلحة البوسطة وأنشأ السلوك التلغرافية والمدارس وأوجد الامن والضمان على الارواح والممتلكات ما عدا حوادث القتل والنهب التي كانت تحدث في سبيل صواحه الشخصية . وكان معظم مصروفاته الخصوصية تقريباً على الحريم الذين بلغ عددهن نحو الف امرأة اسكنهن (١) في قصور مختلفة صرف على بنائهن الاموال التي كان يقترضها

وكانت الحرب الاميريكية في تلك الايام سبباً في جلب السعادة والرخاء العظيم على مصر عدة سنوات . فكثرت الطلبات على القطر

(١) معظم هؤلاء النسوة البائسات هلكن جوعاً عند ما عزل اسماعيل عن الاربكة المصرية لولم يندار كن نجله توفيق باحساناته .



المصري في تلك السنين بلا حد وكان المزارعون المصريون يقبضون عنها أثمناً عظيمة توهموا انها استدوم الى الابد ولكن حصل رد فعل لثلاث المطالب وكانت النتيجة خراب كثير من المزارعين وكثير منهم سقطوا بلا رجاء في قوة أيدي المداينين اليونان الذين أقرضوهم الاموال بالربا الفاحش

وأحسن شيء جميل ونافع وتمين ( للمصريين ) وآخر صنيع نافع في أيام حكم اسماعيل هو قناة السويس . فكانت تلك القناة نصراً عظيماً للفرنساويين وأعظم عمل موافق لصالح الانكليز . ولكن فائدتها للمصريين بداخلها الريب والشك واشترى اسماعيل هذه القناة من عالم الوجود بحياة الالوف من رعاياه المصريين لانه لم يصرف عليها فقط آخر فلس جمعه من الفلاحين التمساء بل اقترض على انعامها أموالاً طائلة من كل قطر يقبل اقراضه . ولما أصبح من الواضح انه ان لم يتخذ لحاملي سندات دين اسماعيل الوسائط القوية لصيانة أموالهم لما ردت اليهم الاموال ولا أرباحها فعكفوا على دول أوروبا العظمى بالتدخل في شؤون اسماعيل المالية . فجاءت وفود مالية مختلفة للمراقبة والتفتيش على نظارة المالية فظهر اسماعيل باشا المقاومة والعند لاوائك المراقبين الماليين

وشرع للمالي الالماني العظيم بمفاتحته رسمياً وله الفضل الاول في

ابتداء المخابرة وعقد المجالس القضائية وأخيراً أصدرت المحاكم الاهلية (١) قراراتها لصالح الحكومة الالمانية التي كانت تطالب مصر بمبالغ عظيمة من ديونها . فانكر اسماعيل باشا هذه الاحكام ورفض دفع الاموال المطلوبة . فاتخذ البرنس بسمارك السياسي الداهية الالماني العظيم عند اسماعيل هذا سبباً لاقلاته من الاريكة الخديوية . اما فرنسا وانكلترا رفضتا التدخل والدولة العلية كانت أضعف من ان تفعل ما فعلته المانيا ولا تقوى على عزله . وفي ١٩ يوليو سنة ١٨٧٩ م وصله تنبيه رسمي بالاستقالة وبعد ان كظم اسماعيل غيظه وحنقه خمسة أيام كان في اثنائها الاوروبون القاطنين في القاهرة يترددون في حقيقة الخبر واذا به قد انتشر في القاهرة خبراً مفاده ان اسماعيل باشا سلم عرشه المصري واعتزل الملك ويوم ٢٦ يونيو نزل هذا الحاكم المعزول من القلعة وولى مكانه ابنه محمد توفيق باشا

وكان توفيق باشا الوحيد في حسن الاخلاق من بين حكام الدول الاسلامية المختلفة الذين حكموا مصر وكان الناس لا يفهمون اخلاقه مدة حياته حتى مماته ولم ينل من انصافهم له الا القليل . وكان يصعب على الاورباويين وشعبه الاعتقاد بوجود اي واحد مخالف لتعاليمه

(١) كانت هذه المحاكم في الحقيقة احسن ما نفعت به مصر من النفع العظيم ايام حكم اسماعيل والمصريون مديونون بالشكر والثناء لمؤسسها ناظر النظار المسيحي المعروف لهم وهو نوبار باشا



ومبادئه. وكان من طبعه الاقتصاد والاعتكاف عن مخالطة الغير فاعتبر  
الناس ذلك منه بلادة او غباوة وتمهله بالضرب بصراوة للدفاع عن  
صوالحه الشخصية او ضمان نفسه اعتبروه كذلك ضعفا فيه وليس تأن منه ورزاة  
وسعيه واجتهاده المخلص لاشتغاله جيدا مع العناصر المتضادة والمتناقضة  
حوله لصالح بلاده في غالب الاحيان كما نسبوه لعدم الاخلاص . وكان  
توفيق مسلما تقيا . ولكن قلبه كان خاليا من كل عوامل التعصب والحماس  
الديني وهذه العوامل اصبحت جزءا عظميا من دستور الاسلام . وخاطر  
بنفسه بين ابناء دينه نحو ( الدوسة ) وبعض مفاسد وبدع اخرى لا  
تاليق من الدين الاسلامي . وكان مقتصرآ على زوجة واحدة التي كانت  
له خير رفيق ومعين . ولكنه كان يظهر العطف والشفقة على  
مئات النساء البؤساء اللواتي تركهن ابيه وكان يبذل ما في وسعه لراحتهن  
ولما ارسل اسماعيل يستدعيه امامه في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ ظن مع كل  
من في القصر انه سيسمعه كما هي العادة ليتخلص منه حيث كانت  
الدول واضعة نظرها عليه . وكانت طيب القلب . حسن السريرة .  
فكانت زوجته تتضرع اليه بدموع غزيرة . تسكبه ليهرب حيث كانت توجد  
الفرصة ولا يقدم نفسه للموت وقيل اسهار كضت وراءه بملابسها المنزلية  
(١) طبعا للشرعية الاسلامية القديمة القاضية بان الذكر الارشد في العائلة هو الذي يرث  
الولاية المصرية فتوفيق باشا لم يكن الوارث طبقا للشرعية . وقد رشح اسماعيل الباب العالي  
ليأخذ امتياز حصر الخديوية المصرية في اكرابائه الذي لم تكن علاقته معه على ما يرام .

لتممه عن الخروج فلم تتمكن من ذلك لان توفيق خرج مسرعا بدون  
تمهل لاعتقاده بلا شك انه يؤدي الواجب عليه . وبعد ذلك بضع سنوات  
رفض بتاتا دعوة الادميرال الانكليزي له لیسرع ويلتجىء في باخرته  
الحرية ( سنة ١٨٨٢ ) مع انه يعرف جيدا انه لا يوجد فرد واحد من  
رجاله يثق ويعتمد عليه . وكان ينتظر في ذلك اليوم ان رجال جيشه العصاة  
الثائرون سيقتلونه . واثناء أيام الثورة المفزعة المرعبة التي أعقبت ضرب  
الاسكندرية بالمدافع كان توفيق يخرج تقريبا بمفرده لاعادة الطمأنينة  
والامانة بين الاهالي الثائرين والمضروبين . ولم ينج بحبائه من خطر الهلاك  
الا لحسن حظه في تعرفه بأحد الشبان الانكليز الذي كان ابيه موظفا في  
الحكومة المصرية واسرع هذا الشاب في الحال وأوقف طلق المدفع الذي  
كان سيذهب بحياة توفيق .

وموته الذي جاء بغير أوانه سنة ١٨٩٢ جعل ترك الانكليز لبلاده  
أديبا من المستحيل . وبالكد لم يكن يوجد فرق عظيم بين جنازتين  
رسميتين مثل الفرق الذي بين جنازة توفيق وجنازة ابيه اسماعيل التي  
اتبعته بعد زمن يسير . ذلك لان جنازة توفيق لم تكن منتظرة بالمرّة كما  
كان يعتمد الكل . فلما توفي فجأة لم يكن وقت كاف يمكن الحكومة  
من القيام بالاجراءات اللازمة للاحتفال بتشييعه . ولكن لما ذاع خبر  
موته فزع وهرع كل الشعب المصري على اختلاف أجناسه وأديانه وعليه  
علام الحزن والاسف وازدحم الخلق في كل الشوارع واصطفوا فيها



صفوفا متواصلة بكثرة هائلة وهم ساكتون صامتون وإذا أطلق ولد أصوته كانوا يسكتونه كان الجميع على رؤوسهم الطير حتى اقترب المشهد فصرى صوت حزن عام كسريان التيار السكر بأي بين جميع القوم المحتشدين ولم يبق ولا واحد في القاهرة الا وخرج لرؤية المشهد والموظفون والتجار تركوا حوانيتهم والملاحون تركوا مراكبهم ليشاهدوا تلك الجنازة الوطنية. وبعض الانكايين الذين شاهدوا النعش يحزن مغطيا غطاء بسيطا ومحمولا بين ذلك الشعب المتكاثف كانهم رأوا كل ما كانوا يحبوا ان يروه من المشاهد الرسمية الدينية التي كانت تقام من زمن مديد في مصر. وكانوا يظنون انه لا يوجد شيء يوقظ سكان القاهرة المختفي الاجناس الذين ليس لديهم الا شقشة اللسان. فلما أنسوا الحزن على هؤلاء القوم عرفوا خطأهم فيما كان يظنون.

ولما مات اسماعيل وانتشرت الاخبار في القاهرة انه سيرجع اليها ثانيا ليدفن في مدافن العائلة الخديوية فالدهشة والرعب اللذان ساد بين معظم السكان الوطنيين كانت مما توجب الفضح والسخرية. وأول ما ابتدئوا به معجونه هو انهم أبوا ألا يمتدوا بان اسماعيل ليس ميتا بل حيا وصاروا ينوحون ويقولون ان الانكايين يعملون حيلة في ارجاعه ثم صاروا يقولون للانكايين (قد وعدتم ان اسماعيل لا يرجع مصر طول ايام حياته — ثم بالطبع هو مات — ليرجع ثانية بجنازته) هل اتخذتم الوسائط اللازمة؟ هل ارسلتم الاطباء لانكايين لفتح النعش قبل نزوله

على البركة وتأكدتم ان اسماعيل فيه؟ كلاً لم تفعلوا ذلك — سوف ترون. ان اسماعيل راجع بجنازته بصفته ميتا ولكنه لما يرى نفسه انه في وسط البلاد فانه يكشف الخدعه ويقوم في الحال ويقبض على البلاد بيد من حديد — فماذا نعمل اذا؟ واصبح كل واحد يعرف ما الذي سيحدث قبيل ذلك وكل الذي كان يعتقد هذا الاعتقاد كان يترك مشاهدة الجنازة الرسمي وحتى الذين أجبروا على حضوره انسحبوا من المشهد بحبل في نقط مختلفة على طول الطريق. فما وصل المشهد شارع محمد علي حتى كنت ترى الذين يتبعونه ليس الا جماعة الاواباش يعملون غاغة بلا فائدة الذين كانوا يظهر اما انهم غير مكترئين به أو اعداء له. ثم اسرعوا بدفنه في جامع الرفاعي الغير متم البناء. فقرح كل المصريين لما صدقوا أن جثته حقيقية دفنت وان الخوف من قوة ضرره انتهى

ونرجع لتاريخ توفيق فنقول أن فضائله التي كان متحليا بها هي التي جلبت الخطر على عرشه. فعراي العاصي كان قد سقط مع اصحابه في ذلك الحين الى درجات النذل والهوان بسباب نبذ طاعته وفساد سلوكه وانحرافه عن جادة الحق ايام اسماعيل. ولكن عاد اسماعيل فاحبه في اواخر حكمه ورقاه الى رتبة امير الازي في الجيش واقسم بمينا مغلظا بين يدي اسماعيل انه سيكون في جانبه ونحمت امره حتى الممات. وبعد ذلك القسم بمائة واربعين ساعة توجه عراي ليقدم فروض العبودية الى توفيق خديوي مصر الجديد الذي لما ارتقى على الاركة الخديوية المصرية بذل جهده في



تفهم الناس انه يعفو عن كل واحد له ذنب في الماضي . وبعد العفو يكون له حظا وافرا في المستقبل اذا احسن السلوك . فربما كان عرابي يقنع بذلك العفو وتلك الترقية ولا ينزع الى الثورة . ولكن ابت الظروف الا أن تجعل البكوات والبشوات الانراك الذين تعودوا دائما الاذراء بالاحطار ووضع اساسات التحمس للقتال والضغط على الطبقات الواطية من الاهالي وهم خلوا من القصاص هالهم أن يروا توفيق قد عزم باخلاص على التعاون والاتحاد بمستشارية الاورباريين على تجديد البلاد المصرية في الفلاح والنظام كأنها مولدة ثانية فعزموا على اتخاذ عرابي آله لقلب العرش الخديوي والدولة حتى يتخلصوا كما يعتقدون من المراقبة الاوربارية . وساعدهم على غرضهم هذا مساعدة عظيمة بمساعي ذات معنى مهمه لبعض السراحين الانكليز الذين كانوا يعتقدون حقيقة أن عرابي هو زعيم وقائد حزب وطني مهم فاضهروا في الحال علنا ما ينوونه . ولكن بالنسبة لقلة فطنهم وفقد روبيهم وسلوكهم ببصيرة قاصرة جعلوا الثوار يعتقدوا أن انكائرا وفرنسا لا تتدخلان في الامر كما وان الحكومة لا تقوى على تشتيت وتبديد ذلك التأثير

ففي شتاء سنة ١٨٨١ - ١٨٨٢ اصبح المركز حرجا وتزايد حرجه يوما بعد الاخر حتى اصبحت الجنود الوطنية في حالة غطرسة ووقاحة وتهديد متزايد وايام عدم الامن على الارواح والاموال قد عادت كما كانت قديما وتعرضوا للسيدات الانكليزيات فصار لا تسلم واحدة منهن من

سبها علنيا . ووضحت حكايات القيام بمذبحة عامة في النصارى . منتشرة في البلاد وبعد بضعة اسابيع جاءتا تعاليمات من الوكالة البريطانية بان كل واحدة وواحد منا يحبس نفسه في صندوق صغير ويأخذ معه ضرورياته وان يستعد الجميع معا للدفاع عن انفسهم ساعة الخطر في أي لحظة . ولكن في شهري ابريل ومايو لم يقم العصاة بأمر مضر علنيا كما كانوا يشيرون وابتدأ الناس يفكرون في أن الثورة ستكون قاصرة على الخطاب التهديدية والاقوال عوضا عن الافعال ورجع اغلب السكان الى بيوتهم في فصل الصيف كالمعتاد .

اما الذين بقوا على الثورة ولم يفشوا بتلك الاقوال وقاموا بتلك الثورة والمذابح الهائلة في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ التي لم تمثل بابشع معانيها في ذاكرة كل واحد للآن فلا لزوم لتكرار سرد تفاصيلها المؤلمة والحزنة . اما توفيق باشا فساغر من القاهرة الى الاسكندرية ولو انه لم يتأخر للعرض في قمع تلك الثورة والضرب على ايدي القائمين بها لكن لم يقدر ان يفعل شيئا لانه لم يجد احدا من رجال حكومته في حربه بل رأى الجميع من حزب الثائرين وكان تقريبا منفردا . وقد كان عنده سببا جيدا في الاعتقاد بان انكائرا وفرنسا سيتركانه للاقدار ونصيبه في نتائج تلك الثورة . فمال الى التصديق بانكار اشتراك عرابي في جريمة المذبحة وصار يعتقد فيه انه الشخص الوحيد الذي فيه القوة الكافية لحسم الثورة واعادة النظام وكان يعرف من جهة اخرى أن السلطان كان يعرض



عراقي والثوار وحقيقة ذلك فانه في ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٢ اتم السلطان على عراقي بالنيسان المجيدي الاكبر . وفي اثناء ذلك كان الاورباويون ينهرون هاجرين البلاد المصرية بالالوف وكانت المراكب البحرية تقلع مسرعة من اقرب المواني المصرية مملوءة بالمهاجرين بدرجة الازدحام الهائل الذي لا يوصف . وكانت قطارات سكة الحديد تقوم من داخلية البلاد الى الاسكندرية وبورسعيد مملوءة بالناس الموضوعين فوق بعضهم حتى سقوف العربيات . ووصل الاسكندرية في يوم ١٥ يونيو فقط اربعة الاف مهاجر . اما التجارة فكسدت بالكلية وبدأت البنوك بترحيل اشغالها وموظفيها الى المراكب الحربية التي كانت تقلع وعليها اتم عظيمة من كل الاجناس الاورباوية وصار رقت ٣٠٠٠٠ من الاهالي من خدامهم الاهلية والاميرية وتركوا بأئسين بلامعين يتضورون جوعا في الاسكندرية . وما الاهالي فقط الذين يهربون من وجه السماء بل ايضا كان كبار العرب والعائلات التركية يسرعون بمبارحة البلاد ويتعدون عن الثائرين . فاندعر عراقي من تلك الاحوال وادرك بعد فوات الوقت الغلط الذي وقع منه واجتهد في جعل الاسكندرية في مركز ضرر عظيم ضد البواخر الحربية الاورباوية . فمرض رجال الاسطول الانكليزي على الخديوي أن ينزل ويلتجئ في احدى بوادر الاسطول فاني بقوله انه لا يقدر أن يترك الباقي معه على الاخلاص له (ولو أن الجيش المصري كان كله ضده) كما وانه لا يود أن يهرب وينجو بنفسه ويترك مصر تهاجها

قوة اجنبيه فترك للقتل في أي لحظة يد رجال جيشه الثائرين ولكن عطف عليه الانكليز ورجع اليه ثانيا السير وكلا ند كولين يوم ١٠ يوليو ورجاه أن يجيب طلبه وينزل معه الى البحر . وبعد محارلة الحصول على مساعدة فرنسا بلا فائدة تداخلت انكلترا وحدها في الامر في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وظلت طول ذلك اليوم تطلق مدافعها على طوابي الاسكندرية وما عثم المساء حتى نهدت تلك الطوابي وصارت غير قادرة على المقاومة . ولسوء الحظ لم تنزل الجنود الانكليزية الى البر بعد ذلك لامتلاك المدينة ونتج من هذا التأخير انه بعد يومين قلبت تلك المدينة التعيسة الى ديوان أبالسه أو مجمع شياطين بواسطة الجنود المتمردين الذين أبوا اطاعة أمر الانسحاب من الطوابي وبواسطة السفلة والرعاع من الاهالي . وغصت الشوارع من هؤلاء الاوباش الهائجين وهم يصرخون قائلين (نذبح النصارى ! نذبح النصارى ! ) وصاروا ينهبون كل شيء يصل تحت أيديهم واحتلوا النيران في المنازل فعم أجيج واشتعال النار في جميع أنحاء المدينة . واحترقت نقطة المنشية الكبرى وتخربت عن آخرها ما عدا الكنيسة الانكليزية وأغلب البيوت التي في الشوارع الاورباوية الكبرى . ولما التزمت القوات البريطانية للنزول الى البر يومي ١٣ و ١٤ يوليو سنة ١٨٨٢ — كانت مدينة الاسكندرية في حالة مرعبة ومزعرة مما ولكن من بعد نزول الجنود البريطانية اليها لم تعد تندهور الى حالة



أشنع مما كانت فيها بل أخذت في التحسين . وفي أغسطس من تلك السنة احتل الاسطول الانكليزي قناة السويس لثلا يردمها الثائرين ويسدونها ووصلت في الحال نجدة بريه بسرعة من انكلترا للمساعدة على الهجوم . وبعد عدة مناوشات بين الرايين والانكليز كان عرابي يرسل الى القاهرة أحسن أخبارها السارة . وأخر معركة فاصلة بين الانكليز والثائرين كانت في التل الكبير في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ اذ بدد الانكليز شمل كل المصريين المحاربين وهرب عرابي الى بلبيس حيث ركب قطاراً وسافر به الى القاهرة في مساء تلك الليلة ولما وصلها أخذ يدبر وينظم طريقة في تخريب وقتل وسلب كل المدينة ولكن قبل ان يتبدى العمل الفظيع في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ خيب الانكليز تدابيرهم ورحموا المدينة وأهاليها بسرعة الحاقهم به لانه بعد ان انقضت المعركة في يوم ١٣ سبتمبر وفر عرابي أسرع القائد الانكليزي بتجهيز فرقه خيالة صغيرة تحت قيادة الجنرال دراري لو وأرسلها في ذات اليوم بعد المعركة لمتابعة عرابي فقطع رجالها خمسة وستين ميلاً على ظهور الخيل ودخلوا القاهرة الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالي أي يوم ١٤ منه وفي الحال طلب الجنرال دراري من حامية العباسية التسليم وهي حامية قوية مؤلفة من ٦٠٠٠ مقاتل فسلمت للانكليز بدون شرط عند أول اشارة . ولكن كانت حامية مصرية أخرى في القلعة يربو عددها نحو أربعة آلاف رجل فأرسل الجنرال دراري الكولونيل وأطسون

في كتيبتين من فرقة فرسان الحرس الرابعة ليأخذ القلعة حالا . ولكن عندما أوقف رجال الكتيبتين الانكليزيتين الجبهة الخيول كان قد حان الغروب وأظلمت الطريق امامهم فلم تثن عزيمتهم لاهمية ماعهد اليهم انجازهم فتشجعوا وقاموا في الحال لانجاز الامر وساروا حتى وصلوا بوابات القلعة وأرسلوا الى القائد المصري الذي فيها يطلبون منه اخلاصها من جنوده حالا بعد ان يسلموا سلاحهم للجنود الانكليزية فاصطف كل الجنود البياده المصرية في صفوف وألقوا سلاحهم وساروا ويمرون خارجين من بوابات القلعة امام قبضة من الجنود الانكليزية وحالما خرج آخر واحد من المصريين وتفرقوا جميعاً أسرع الانكليز ودخلوا القلعة وأغلقوا بواباتها عليهم . وقد علمت من جواب كتبه لي أحد أصحابي الذي كان مرافقاً لذلك الركب الانكليزي الشهير ( قال فيه انه ما كان على الانكليز ان يفعلوا الا ان يظفروا منتصبين على خيولهم صامتين حتى مر آخر عسكري مصري امامهم وبعدئذ ترجلوا وضجوا على الارض مثل أكوام الخطب ) . ولكن كان باقياً على الانكليز ان يأخذوا جبل المقطم وهو المتسلط على القلعة

ولما اختبر الكولونيل وأطسون حالة الجنود المصرية تشجع ولم يعد يخشى بأسهم فأرسل أحد الضباط المصريين الذي كان يرشد الانكليز عن كل شيء وكلفه ان يتوجه لحامية المقطم ويكلف قائدها ليسيير بجنوده الى قصر النيل ويسلموا سلاحهم هناك فذهب الضابط المصري وعاد



بعد ساعتين ومعه مفاتيح الحصن وأخير الكولونيل واطسن ان  
أوامره نفذت

وكان عرابي اثناء هذين اليومين مشغولاً في ارسال الرسائل البرقية الى  
محمود سامي والقاريء يجد ترجمة تلك الرسائل في تأليف المستر رويل عن  
غزوة الانكليز لمصر فهي كتابة تلذ قراتها جداً خصوصاً سؤالاً انه عن  
وجود جيشه الذي تركه في التل الكبير لانه اختفى بالمرءه . وفي الحقيقة  
ذلك لأن جيش التل الكبير لم يكن الا مجموع فلا حين يؤساء أجبروا  
على ترك زارعهم وحمل السلاح في خلق قادمين ليس لهم معهم فائدة  
ولا هم من تابعي دينهم فبعد كسرتهم في المعركة تفرقوا أيدي سبا وبعد  
قليل رجع الفلاح الى بيته في قريته وكانوا يرصعون الطريق  
بعلامتهم ومهماتهم الحربية التي كانوا يتركون كي لا يعرفهم أحدانهم جنود . أما  
الجنود الذين كانوا في كفر الدوار وأبو قير ورشيد فسلموا أيضاً بدون  
حرب . وعبد العال الذي كان متحصناً في دمياط امتنع في بادئ الامر  
عن التسليم ولكنه لما سمع ان الانكليز قادمين لضربه سلم في الحال  
وفي ١٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢ أمضى الخديوي علي أمر عال يقضى  
بإحلال الجيش وتفريقه لأن أغلبه كان قد رجع ثانياً لمساحات القتال .  
واحتل الانكليز كل المراكز العسكرية التي هجرها المصريون وقبضوا  
على زمام البلاد وظلوا فيها حتى اليوم .

ولا يمكننا ان نتكلم في هذا الكتاب عن كل الاسباب التي حلت

انكلترا ان تحتل الديار المصرية أو تبقى فيها لانه خارج عن موضوعنا  
وانما نقول بوجه الاجمال ان المعروف عند كل الناس ان اسراع الانكليز  
في دخول مصر ليس فقط انقاذ القاهرة من الخراب والاورباويين من  
الخطر الهائل الذي كان محدقاً بهم بل أيضاً جاء سداً حصيناً لمنع وقوع  
اضطهاد عام ضد الاقباط الذين كان أغلبهم يعرفون حرج موقفهم امام  
المسلمين وكان يستعد كثيرون منهم للاستشهاد الا كيد الذي كان سيحل  
بهم لو نجح عرابي في مساعيه قبل ان يدركه الانكليز حتى انه بعد  
الحوادث العرابية برز من زار أحد السياح الانكليز الكنائس القبطية  
التي في وادي التطرون فوجد فيها صورة صلاة شكر لله باللغة  
العربية كان الاقباط يتلونونها في الكنائس تذكراً لله على مجيء الانكليز .  
وتقريباً كل طبقات المصريين الذين يتحدثون عنا يكرهوننا ويودون  
التخلص منا لاسباب لا يمكن لنا ايضاحها . ولكن تلك الاسباب لا  
تجعل أي انكليزي على الاطلاق مع علمهم ايضاً ان كثيراً من جماعات  
المصريين الذين كانوا يشتغلون أشغالاً شاقة وهم ساء كتون لا يجاسرون  
على تقديم الشكر للانكليز سواء كانوا مسلمين أو اقباطاً — وان نجاسروا  
لشكر لا يشكرون — ومثلهم في ذلك مثل الخوف الخرافي الذي يقود  
كثيراً من الاورباويين ان يخشوا كل شعور مؤثر ويهيج لغيرتهم الوطنية  
ومع ذلك فالحقائق واضحة تنطق شاهده لنفسها لان من يقابل  
الكتب يجد فيها ما يدل على ذلك كله . ذلك لان الشرقيين ذوي ذاكره



قاصره. والجيل الذي تخرج هذه الايام من المدارس الحديثة النمط لا يعرفون شيئاً من الايام الماضية في بلادهم — كقوة الضرائب الفادحة التي كان الحكام المستبدون يقرضونها على الفلاح المسكين الذي كان يجود ويتعب طول السنة ويصرف ثمرة آتياه لدفع ضرائب كعدمها. لا يعرف أبناء هذا الجيل الاشغال الجبرية إلا أجرة التي كانت يسخر فيها أجدادهم — لا يعرفون الصرب بالكرباج عيناً وشالاً الذي كان يستعمله الحكام في الناس حتى من باب مجرد المازاح والهزل — لا يعرفون ان المحصولات كانت تؤخذ وتلقى على الارض حتى تلف عن آخرها من نفسها لعدم وجود المال اللازم عند الفلاح لتقديم منه رشوة لمعاون الحكومة ليأتي ويجري شؤون وظيفته لتسييرها — لا يعرفون ان حتى ماء الحياة كان لا يعطى الا للغني والفقير يترك حتى يموت عطشاً كما كان في سنة ١٨٧٩. لا يعرفون ان كل هذه المظالم القديمة قد خيم عليها العدل في هذه الايام. ولكن لا يقدر المصريون أهمية تلك المزاي والاصلاحات العظيمة التي أتتها الانكليز في بلادهم قبل الاوان حيث ان المثل الانكليزي يقول اذا كان يلزم ثلاثة أجيال لايجاد رجل حقيقي فلا شك انه لا يلزم اقل من ذلك لايجاد أمه حقيقة



## الفصل الرابع والسبعون

الكنيسة القبطية في القرن التاسع عشر

سنة ١٨٠٩ مسيحية و ١٥٢٥ للشهداء و ١٢٢٤ للهجرة

كانت حالة الكنيسة القبطية في بدء القرن التاسع عشر في اسفل درجات الانحطاط سواء أن كان في عدد شعبها أو في الظروف والمصائب التي حلت بها. ومن اول فتوحات مصر المتابعة بواسطة كثير من الحكام المسلمين لغاية فتح الفرنسيين لها والاقباط البؤساء مسيحيو الكنيسة الوطنية المصرية هم اول من يقع على رؤوسهم مساويء القاهن والمصائب التي ترافق وتعقب كل فتح. وعلاوة على التفرق المتزايد في الممالك العثمانية فان الاضطهاد الديني المزمع يزيد الرعايا العثمانيين تعاسة على تعاسة وعلى الخصوص اقباط مصر الذين ولو أنهم كانوا طول حياتهم على أيام السلاطين المماليك عائشين عرضة للسلب والنهب والاضطهاد يومياً طبقاً لامزجه واميال مضطهديهم المسلمين فانهم على الاقل كانوا يستخدمون في التمرينات الفنية العظيمة الفائدة التي كانوا يمارسونها. فكان المسلمون يستخدمونهم في بناء الجوامع الجميلة التي تعتبر اعظم مثال لصناعة النقش الحجري الشرقي وفي كثير من الاحيان كانوا يستخدمونهم في تصوير خطوط اليد التي يوجد منها الآن مجموعات كثيرة معروضة في الكتبخانة



الخدوية ولا تنكر بلا شك أن المسلمين كانوا يميزون القبطي المسلم دائما عند ما توجد ظروف التمييز والتفضيل عن القبطي المسيحي لأن الأول اعتنق الاسلام والثاني باق مصر على اعتقاده فالمسلمون كانوا يستخدمون الاقباط المسيحيين أكثر من الاقباط المسلمين . ولكن اغلب الاقباط الذين أضاعوا دينهم المسيحي يظهر انهم ايضا أضاعوا معه المعارف الصناعية والفنية التي ينبذها دينهم الاسلامي الجديد وينهي عن ممارستها ومحرمها . الا أن صناعة الاويمه ( النقش على الخشب ) والنقش على النحاس والترصيع كانت لم تزال تستخدم بنسبة قليلة في المنازل الخصوصية . لكن صناعة النقش والرسم ( التصوير ) ماتت بالكلية وبعد فتح العثمانيين لمصر ما كان يوجد الا قليل من المباني العمومية المهمة ذات النقوش الثينة كما ولا يوجد أيضا أي كتابة يدوية على الحجارة مثل تلك الكتابات الجميلة التي كان يكتبها الصناع المصريون من القرن الثاني عشر الى الخامس عشر منذ كان يدفع لهم أجور عظيمة توازي قيمة اتعابهم . ومنظر منزل أو اثنين من المنازل الخصوصية في القرن السادس والسابع عشر يدل على ان ذلك ال اثر الذي عاش زمنا طويلا من أجل صناعة بني الانسان التي كانت في الاجيال الغابرة كثيرة الوجود أو هي من العادات في الديار المصرية . وحتى لما أصبحت دولة محمد علي المقدوني هي الحاكمة للبلاد الآن لم تلاحظ صد طيار عوامل تخيير ومحو الآثار المعمارية العظيمة بل أيضا عجبت في اخلا السبيل لذلك الطيار حتى يسرع

في ازالتها . والدوق الفرنسي ساوي باردا معانيه ساد الآن في البلاد وأصبحت مبانيها وصناعاتها على النسق الحديث . وقلت الرغبة والاميال عن ذي قبل لطلب الحرف والصناعات اليدوية الفنية التي برع فيها الاقباط براءة عظيمة . وأصبح الناس لا ينظرون بعين العظمة والوقار الى المهارة صناعة أسلاف الاقباط وهم المصريون القدماء ولذا صار الاقباط يتدهورون في درجات الهبوط حتى أفقدوا تلك المزية العظيمة من أيديهم بالمرّة وأصبحوا لا يصلحون الا كتبه في مصالح الحكومة . وفي زمن ارتقاء محمد علي على الاربكة المصرية كان تعداد الاقباط المصريين قليل جدا اذ لما أراد محمد علي ان يحصر تعدادهم وجددهم ١٥٠٠٠٠ نفس فقط لكن عمال التعداد نسوا حاره من القاهرة لم يحصروها وهذا أقل عدد وصل اليه الاقباط بعد ان كانوا يعدون بعشرات الملايين في مصر والسودان . ولم يوصلهم لدرجة التلاشي من الوجود تقريبا الا تلك الاضطهادات الدينية العظيمة التي أتتها معهم الاسلام منذ الفتح الاسلامي . الا انه في سنة ١٨٥٥ قد أحصاهم البطريك فوجد عددهم لا يقل ولا يزيد عن مائتان وسبعة عشر ألف نفس ( ٢١٧٠٠٠ ) بينما كان كل تعداد سكان القطر المصري في ذلك الحين خمسة ملايين من النفوس . وقد تلاحظ انهم تحسنوا تحسنا يينا من ابتداء أيام محمد علي باشا فصاعدا . وبالرغم عن غيبتهم وخسارتهم وشبوب وانفجار الاضطهادات التي كانت تقع عليهم كل آونة وأخرى فانهم كانوا ثابتين في خطة التحسين المضطرده .



وبينما كانت الكنيسة القبطية الوطنية في احط درجات الموت اوائل القرن التاسع عشر فاز الكنيسة اليونانية ( الملكية ) كانت اردأ منها بكثير . وقد كانت على وشك الفناء في القرن الثامن عشر . ويوجد كثير من اسماء البطارقة الذين تعاقبوا رئاستها ولكن لم يشتهر من سلسلة تلك الاسماء الا واحداً فقط وهو البطريرك فموثيل الذي ترأسها سنة ١٧١٠ مسيحية اما الباقون فكانوا كلهم من الاجانب ولم يبق منهم في مصر الا القليل جداً ولم يكن لهم اساقفة بل عدد قليل من الكهنة ولكن بعد جلوس محمد علي على العرش المصري ابتدأت روح الحياة تتحرك في عروقهم كالاقباط . لان بطريركهم هيروثيوس الذي قام بين ظهرانيهم على خلاف عادة اسلافه كان على جانب عظيم من التقوى والجهاد في خدمة امته التي كان عددها نحو خمسة الاف نسمة وكانت ميالة اليه وشبه له . كان وقد تولى هذا البطريرك رئاسة الكنيسة اليونانية عام ١٨٢٥ فاحسن الصلات مع الكنيسة القبطية حتى انه لما توفي عام ١٨٤٦ وشيئت جنازته باحتفال عظيم جدا كان رجال الاكليروس القبطي جميعا من ضمن مشيعة . وعلى اثر وفاته حدث شقاق وتزعاع عظيم بين هيئات الاكليروس في القسطنطينية الذين كان بعضهم حزب قوي في الديار المصرية وحزب اخر من الملكيين المصريين ( المصريين الذين يتبعون الكنيسة اليونانية ) الذي وان كان قليلا لكنه كان عظيما ومحترماً ولم يكن منشأ هذا النزاع الا الاختلاف على من يجب تعيينه بطريركا في مصر بدل المتوفي . الا

ان ذلك النزاع اوقع الطائفة اليونانية في حالة الارتباك والاحبال وكان الجالس على عرش ماري مرقس الانجيلي طول مدة النصف الاول من القرن التاسع عشر هو البطريرك بطرس السابع الذي اخلف البطريرك مرقس سنة ١٨٠٩ ولم يمض بطرس الا في سنة ١٨٥٤ مسيحية وكانت مدة جلوسه أطول من كل مدد البطارقة الذين تقدموه في التاريخ . وقد كان ذلك الرجل سامي الاخلاق واسع العقل كثير الانشراح والسرور من التحسين العظيم الجديد الذي تم على أيامه . كثير الرغبة باخلاص ليرفع كنيسته وشعبه من وهدة الانحطاط . ولكن مشروعات المرسلين الكاثوليك الذين قاموا في القرن الثامن عشر أخيراً لتدبير طريقة لتأسيس كنيسة متحدة حقيقية في مصر كانت تحتوي بالاخص على المسيحيين الملكيين . لكنها تجرأت أيضا على سحب واغراء كثير من شعب الكنيسة القبطية الى حظيرتها فدعى ذلك الى ايجاد سوء الفطنة عند انبا بطرس بطريرك الاقباط في النفوذ والتيار الغربي

ولكن حصل اثناء ذلك ان شعباً غربياً قام لتعصيد الكنيسة القبطية (١) المصرية حتى تتقدم وتنمو بدلا من ان يزداد ضعفها بواسطة المساعي التي قام بها الكاثوليك لتبديد أعضائها واغرائهم على الدخول في المذهب الكاثوليكي وقد بدأ تلك المساعي العظيمة جناب المحترم المستر

(١) قام الانكليز قبل هذه المزم ببذل المساعي لمساعدة الكنيسة اليونانية ( الملكية ) ولم يفتتوا للكنيسة القبطية الوطنية بالمرّة



هنري تاتام الانكليزي الذي وجه التفاهة خصوصا في اثناء بحثه على  
الكتابات اليدوية القديمة التي كانت كلها من صنعهم فكتب الى المحتشم  
المستر هولي رئيس الاساقفة بانكلترا يحضه على القيام بواجب الكنيسة  
الانكليزية نحو الكنيسة القبطية القديمة التقيسة وابتدأت المخبرات بينهما  
سنة ١٨٣٦ مسيحية ودامت متواصلة بضع سنوات. وكانت شركة التورات  
قبل ذلك قد طبعت أربعة أنجيل باللغتين العربية والقبطية قامت شركة  
طبع الكتب المقدسة بطبع ترجمات عربية من التفسير المصرية القديمة.  
ولم يكن المستر تاتام أول من هلم له البحث في الكتابة  
اليديوية المصرية القديمة ولو انه أول رجل انكليزي حض الكنيسة  
الوطنية الانكليزية للمجيء وأخذ بيد الكنيسة الوطنية القبطية المصرية  
المداينة تحت الاقدام ومساعدتها. وفي سنة ١٨٣٣ م جاء أيضاً المستر  
كرزون الى الشرق للبحث على الكتابات اليدوية القديمة وزار أكثر واما  
الصوامع والاديرة المصرية (١). ولوء الحظ فانه كان مجبوراً مثل باقي  
(١) وجد المستر كرزون في دير وادي النطرون تلك المصاييح الزجاجية  
الجميلة لم نزل معالمة في الكنائس وهي المعروفة عند العموم انها من صناعة العرب  
وقاصرة على تزيين الجوامع فقط الآن مع ان العرب نقلوا تلك الرسوم البديعة عن  
اشكال ورسوم القناديل التي كان يصنعها الاقباط وخصوصاً أجمل أشكالها ما كان  
يستعمل عندهم للكنائس واللوازم الدينية ولكن المستر كرزون رأى ان كل المعامل  
القديمة التي كانت تصنع فيها تلك القناديل في وادي النطرون قد اندثرت بالكلية  
من زمن طويل وتلاشت الأعمدة التي نقل منها العرب شكل قناديلهم.

السواحين الذين تقدموا ان يأخذ كل معلوماته بواسطة مترجمين من  
المسلمين أكثروا من اجتماعهم بالسواحين حتى صار الاقباط يسيثون  
فيهم الظن. ولكن ملحوظاته الشخصية عما رآه والاتفاقات الغربية  
التي صادفها والمملوءة بكثير من الفائدة واللذة وعلى الخصوص بعد  
عدة اكتشافات كان المستر تاتام قادراً على الحصول على كثير من الكتابات  
اليديوية الثمينة من الاديرة القبطية. وكانت زيارة المستر تاتام للدير  
المصرية من سنة ١٨٣٨ الى سنة ١٨٣٩ م وصادقه مشاق وآتاعب عظيمة  
جداً حتى تمكن من معرفة ودرس بعض الشيء عن الكنيسة القبطية  
وايجاد أصحاب له واصدقاء من أهلها. وقد جاء مصر أيضاً عام ١٨٣٠  
المستر ليذر موند من قبل جمعية التبشير فأوجد الصلات الحية بينه وبين  
الاقباط وتمكن بذلك من ان يعضد ويفيد المستر تاتام وجناب  
رئيس الاساقفة بانكلترا فوائداً جمة وقد زار المستر تاتام اديرة وادي  
النطرون وتحصل على تصريح بأخذ كثير من الكتابات اليدوية الثمينة  
منها. ومن ضمن ما أخذه كتابة الثالث الاقدس بخط البطريرك  
كيرلس الاكبر الذي نسخها في سنة ٦١١ م فيكون مضي عليها الآن  
(سنة ١٨٩٧ م) ١٢٨٦ سنة فهي من الآثار القبطية العظيمة وأيضاً  
وجد أكثر من ثمانمائة قطعة من الخطوط اليدوية السورية القديمة غاية في  
الجمال ومكتوبة على رفوف الغزال بخلاف عدد عظيم من الكتب المهمة  
المهمة والمفقود منها أوراق كثيرة. وهذه الآثار التي لا تقدر قيمتها هي



الآثار الباقى للمكتبة القبطية القديمة التي كانت بدير السوربان تم حلت  
بعدئذ الى دار الآثار البريطانية

وبعد ان وصل المستر تاتام الى انكلترا في مارس سنة ١٨٤٠ م قدم  
الى سيادة رئيس الاساقفة مذكرة عظيمة ومهمة للغاية مبينا فيها حال  
الكنيسة القبطية المصرية بالاختصار وذيل تلك المذكرة بالالحاح  
بحرارة على الكنيسة البريطانية طالبا منها مساعدة تلك الكنيسة التبسية  
وأسهب في أقواله حتى أبان ان هذه المساعدة يمكن اتخاذها فرصة  
ساححة للتأثير على المصريين الاقباط

وزار مصر أيضا قسيس انكليزي آخر يدعى ت. جريمشو في شتاء  
سنة ١٨٣٩ - ١٨٤٠ تصادق مع كثيرين من أعضاء الكنيسة القبطية المصرية  
وكانت نتيجة هذه الصداقة انه كتب الى رئيس أساقفة انكلترا يحضه على  
مساعدة هذه الكنيسة المصرية. وفلا عرض عليه رساما عن إيجاد كلية  
لشبان الاقباط الذين يرغبون تعلم اللاهوت الاندماج في سلك  
الكليروس ويصبحون قسوسا متعلمين ينفعون كنيسهم القبطية. وقد  
أنشئت فعلا تلك الكلية وظلت فائحة أبوابها للطلاب عدة سنوات  
بإدارة المستر ليدر لكن بعدئذ همدت عزيمته ووهنت شجاعته لما آتت  
الضعف في هذا المشروع وكان نجاحه قليلا ولسوء الحظ أبطل الكلية  
وغلقها سنة ١٨٤٨ م. مع ان البذور التي بذرها المستر ليدر في بضع  
سنوات قد أثمرت حتى في نسل الذين يتعلمون فيها. ولو كان يعلم المستر ليدر

له لو لم يتم رسامة قسيس واحد من تلاميذ مدرسته لكنها أخرجت  
فقط بعد تهادى الوقت البطريرك العظيم المعروف كيرلس (بأبى الاصلاح)  
الذي كان من تلاميذها لربما كان تشجيع وواظب على عمله ولم يعطل  
المدرسة.

ومما يحسن ذكره ان الكنيسة القبطية مع ما سر عليها من الأيام  
الظلمة السوداء على أشدها لم تهمل أبدا تعليم أبنائها. فقد كان لها في كل  
إبرشية مدرسة يتعلم فيها أبنائها الكتابة والقراءة ولكنها أهملت البنات  
من عدة أجيال وتركهن يلتقطن حسب رغبتهم من ثمرات التعليم كل  
ما يعثرن عليه كالعصفور الذي يلتقط الحبوب التي تصادفه غفرا حينما يسعى  
طالباً غذاءه لان الكنيسة لم تضع لمن طريقة تعليم منتظمة في المنازل  
أو في المدارس. ولكن قد لاحظ البطريرك المشهور كيرلس أبو  
الاصلاح الذي خلف البطريرك بطرس سنة ١٨٥٢ رداءة هذه الحالة  
وعرف ما ينتج من المساويء فأسس مدرستين منتظمتين الاولى للبنات  
والاخرى للبنين وقد كان التعليم فيها عظيما والعلوم التي تدرس من أرقى  
ما يدرس من نوعها في المدارس العالية والراقية

وقد كان الانبا كيرلس المعروف بأبى الاصلاح قبل ان يتولى  
السدة البطريركية رئيساً منذ سنوات لدير أنبا انطونيوس الشهير وعند  
دعوته من الدير ليشغل العرش البابوي أتهيج به الشعب القبطي لدرجة  
فوق التصديق ولما علم أقرانه الذين كانوا يدرسون معه ان له رغبة في



اصلاح الكنيسة صاروا يلفظون بتعيينه حتى لما اجتمع مجمع الاساقفة في القاهرة لانتخاب بطريرك وقد نقص عدده ١٢ عضواً عن المعتاد لم يسمعو الا اسم كيرلس في فم كل قبلي لانتخابه بطريركا. نعم ان هؤلاء الاساقفة بالنسبة لكبر سنهم وجبنهم غالباً قد ترددوا في تزكية وتسلم قوة عظمى ليد شاب غيور مثل كيرلس الذي تربى تربية اجنبية وقد اشيع وتأكد الناس انهم كانوا على عزم لانتخاب راهب الله جاهل راح اسمه عن ذا كرسي الآباء فثار عليهم الشعب ثورة حقيقية واستصحب معه جماعة من الاحباش المتسلحين وأسرعوا جميعاً الى الكنيسة الكاتدرائية حيث كان الاساقفة مجتمعين بها لاجراء الانتخاب فوجدوا عليهم وأبطلوا الانتخاب بالقوة الجبرية فما كان من هؤلاء الاساقفة الشيوخ المساكين العقول الا انهم هربوا من الكنيسة ثم التزموا ان يرضخوا ويقبلوا صوت نواب الشعب وبعده تم الاتفاق بين الطرفين (الاساقفة والعلمانيين) بطريقة تحكيم غربية وهي انه يصير تأجيل انتخاب البطريرك ويصير تدشين كيرلس مطراناً لبابليون (القاهرة) على شرط انه اذا أظهر كفاءة تامة في وظيفة الاسقفية ينتخب بطريركا. ولكن كانت مواد هذا التحكيم الغريبة غير اصولية للمرة لانه طبقاً لمواد القوانين الكنائسية القبطية لا يجوز تحليل أو تأويل تلك المواد التي منها عدم جواز انتخاب أسقف لوظيفة البطريركية ولكن بالرغم من ذلك فقد قام الاساقفة بمعاهدتهم مع الشعب بكل أمانة وانتخبوا كيرلس على العرش البابوي الخالي حتى قبل ان ينتهي

وقت التجربة .

غير انه من الاسف لم تدم رئاسة كيرلس الكهنوتية الا سبع سنوات صرف اثنين منها في الحبشة والباقية في مصر الا انه مع هذا الزمن القصير قد افتتح حركة الاصلاح العظيمة بنفسه ولم تقف هذه الحركة بعدئذ بل تقوت وانتشرت بقوة حية حتى استلما أبناء الجيل الحاضر ذلك عدا عن المدارس التي شيدها بجوار الكنيسة الكاتدرائية التي أعاد بناءها كلها مرة ثانية لانها كانت بالاقباب تستحق الذكر بالنسبة لسرعة تشييدها في بادئ الامر لتخريب وتهديم حي الاقباط القديم أيام عودة الترك للبلاد ثانياً سنة ١٨٠٢ مسيحية وخصوصاً وانهم بنواؤها على نفقة أحد اعيان الاقباط الكرماء على عهد البطريرك مرقس الثامن .

وقد كان كيرلس أبو الاصلاح عالماً بأصول دينه فلما ان ارتقى العرش البابوي رأي شعبه واقعاً في خطية عبادة الاصنام وذلك لسجودهم الايقونات التي يعتبرونها مقدسة ومرصوفة على جدران الكاتدرائية القديمة فعند ما شيد الكاتدرائية الجديدة لم يسمح بنقل تلك الايقونات اليها بل جمعها كلها ووضعها على بعضها وحرقها باحتفال كبير امام جمع عظيم من الناس . ووقف في وسط الجمع المحترق من رعيته وخطب فيهم مبيناً سبب هذا الحريق . ولما ان انتهى من وعظه أشار بيده الى كوم الحريق وقال ( انظروا لهذه الصور الخشبية التي تعودتم احترامها لدرجة العبادة -



ها هي صارت رماداً لا تنفعكم ولا تضركم ! فالله وحده هو الذي يستحق  
العبادة والسجود ) ولا يسعنا اظهار الاسف الشديد على عمل كيرلس هذا  
لانه قد اندثر شيئاً عظيماً من الآثار الفنية الجميلة العظيمة الصنع في سبيل  
مزمه (١) العظيم الذي ألقاه على شعبه ولكن فن التصوير أصبح تقريباً  
معدوماً بالكلاية في مصر من عهد الفتح العثماني حتى ان الصور التي  
رسمت لكاتدرائية البطريرك مرقس الثامن التي حرقها كيرلس كما تقدم  
كانت تدل على غشم المصور وأردأ صنعا من الصور التي كانت موضوعه  
على جدران الكاتدرائية التي جدد بناءها كيرلس المصلح . والدليل على  
ذلك انها لو كانت صور جميلة الصنع حقيقة لما سمح كيرلس مطلقاً بحرقها  
وتقول بالاحمال عن هذا الموضوع ان الاقباط في ذلك العصر لم يكونوا  
قد فقدوا شعور جمالهم حتى في أيام جهلهم لم يحرموا تقريباً من شعورهم  
التاريخي بالكلاية والبرهان الحسي لذلك والذي يستحق الذكر البناء العظيم

(١) والامر الغريب الذي نستنتج من هذه الحادثة ان الاقباط الذين  
كانوا في عهد البطريرك كيرلس كابوا مداومين على تأدية ذات الاحترام الزائد  
لصورهم المقدسة كبناء الكنيسة اليونانية . مع ان الاقباط في كل العصور الماضية لم  
يظهروا أي دليل أو برهان لاغقادهم بآية فائدة من عبادة الايقونات . ووابان  
الكنيسة القبطية هذه الايام لا يلتفتون للصور المعلقة على جدران كنائسهم اكثر  
منما تلتفت نحن للصور التي في الزجاج الملون على شبائيك منازلنا الانكليزية مع ان  
صور العبادة في المنازل القبطية اندر منها في منازلنا

الذي شيده نخله بك الباراني في الحصن الروماني ( قصر الشمع ) وهذا  
الببيل هو علماني بقي من أبناء الكنيسة الوطنية ( القبطية ) تعهد بتجديد  
كاتدرائية بايلونه القديمة المشهورة باسم كنيسة المعلقة ونحوها (١) أيضاً  
على ثقته الخصوصية . وكان يتحفظ جيداً على كل قطعة قديمة الصنع جميلة  
المنظر وبقي حارساً عليها حتى انه بعد اتمام البناء صار ينقلها بكل حذر  
ويوضعها في المحل المعد لها . وبعد ان تم البناء والترتيب صار يتعذر جداً  
على الناظر بعد امعان النظر والتفحص الدقيق ان يميز بين الكنيسة الجديدة  
والقديمة . غير اننا لما تذكر أعمال التخریب والتوحش الذي كنا  
مخطئين فيه بانكلترا عند ابتداء تجديد الكنائس ونعتقد ان كنيسة  
المعلقة هي أول مثال من نوعه في التجديد لا نقدر ان نوجب بانفسنا ومع  
ذلك فان علماء الآثار الانكليز بالكاد يشهدون شهادة حسنة لنخله بك  
الذي صرف ٦٠٠٠ ستة آلاف جنيه من ماله الخاص على ذلك التجديد

(٢) أغلب الكنائس القبطية تجددت منذ دخول الانكليز في البلاد الا  
ان ابتداء العمل في التجديد كان قبل دخولهم أي من ابتداء سنة ١٨٨٩ م . وبما  
يحسن ذكره بالاسف أن أعظم خسارة حلت بالاقباط كانت بسبب أحد السياح  
الانكليز . اذ قدم مائة جنيه انكليزي بصفة رشوة لاحد الرهبان الادباء ليسمح  
له أن يسرق بعض ابواب الكنائس الجميلة المقدسة المشغولة بالآيعة من خشب  
أرز لبنان ويأخذها معه الى باريس وقد تم ذلك . وبعدئذ صار يبيعها الى المتحف  
البريطاني وموجودة فيه الى الآن



وهو مبلغ عظيم لم يوقعه فيه الاضعف معارفه في التاريخ.

وكان السبب في كل هذه النفقات الباهظة أيضاً انه أتم ترميم طابية حصن  
تراجان التي تخرب نصفها تقريباً وقد كانت هذه الطابية أم حصن  
يخفي الاقباط وراءه آمن شيء لديهم حتى يحفظوه في مأمن من الاعداء. ولم  
يكن للكنيسة مدخل مناسب لها بل كان الانسان يصل اليها من داخل  
برياء ذات ممرات ضيقة تنفذ من البوابة الصغيرة الموجود على مقربة من  
الزاوية الشمالية الشرقية من الحصن. والتزم نخله بك ان يهدم كل ما في  
طريق السلام الجديدة وكل ما في أقرب نقطة من السور القديم وقطع  
له مدخلا جديداً من البناء الروماني الصلد الذي يبلغ عرضه نحو ثمانية أقدام  
ولم يكن هذا فقط أردأ ما فعل. فان أحد البرجين العظيمين المتاخمين  
لمدخل الحصن الجنوبي القديم قد هدمه حتى لا يعترض إقامة حائط  
جديد كما ان البرج الثاني كاد يلاقي نصيبه لو لم يكن حفظه سعيداً وتحولت  
انظار نخله بك عنه. ولما سمع اللورد كرومر بما هو جار في حصن الرومانيين  
أصدر أمره الذي لا يحلم أحد في مصر بنقضه أو المجادلة فيه. فلم يقدر  
أحد بعدئذ ان يمس حجراً واحداً من بقايا ذلك الحصن الروماني.

ومن ذلك الحين أصبحت الآثار القبطية تحت عناية لجنة حفظ  
الآثار العربية مما سر غالب الاقباط من حيثية حماية كنائسهم وحفظها  
من تطرق الخلل أو يد السالين اليها. وفوق ذلك فقد صادق البطريك  
أيضاً على عدم التصريح لاجراء اصلاحات أو ترميمات أو إعادة أبنية

قديمة دون موافقة اثنين من أعضاء لجنة حفظ الآثار تنتخبهما اللجنة لهذا  
الغرض. وحقيقي ان البطريك التمس من اللورد كرومر ان يوجه عنايته  
لهذا الامر وان يصدر منشوراً ينهي فيه السياح ان لا يغيروا أو يرشوا  
خفراء وحراس الكنائس كي يسلموا لهم السبيل في سلب بعض الذخائر  
الفنية القديمة التي لم يزل موجود بعضها في الكنائس فالتزم اللورد ان  
يعترف للبطريك الحالي ان سلطته لا تسري على السياح الذين يعتبرون  
الآن أساس الخطر الحقيقي الذي يهدق بأثار الكنائس القبطية.

وقررت جمعية التبشير الانكليزية ان العمل الذي أسسته الكنيسة  
البريطانية في مصر في سنة ١٨٤٨ م قد هجرته في السنة التالية لتولية  
البطريك كيرلس الرابع على العرش البطريكي وحلت محلها في ذلك  
العمل الكنيسة الامريكية بواسطة جمعية التبشير المشيخية التي كانت  
مشاركة على عملها قبل ذلك الوقت بزمان طويل ولكن هذه الجمعية  
الاخيرة قد حذت حذو جمعية التبشير الانكليزية ومع ان مبدءاً عمل  
الجمعيتين في هذه البلاد هو لبث روح الديانة المسيحية بين المسلمين وليس  
للتبشير بين الاقباط فانهما كانتا كباقي الارساليات الدينية التي لهذه  
البلاد فلا تجد الا صعوبة وبطناً شديداً في نجاحهما مع المسلمين فلم تياس  
وتترك عملها بل كانت تجتهد في تلمذة تلاميذها من أبناء الكنيسة القبطية  
والحقيقة التي لا ريب فيها ان هذه الكنيسة تستقبح جداً وتكر على  
تلك الارساليات عملها.



وكنيسة المبشرين الانكليز الحديثة التي أنشأت في مصر سنة ١٨٨٤  
مسيحية لا يستقبلها الاقباط لان الكنيسة القبطية تعترف ان كنيسة انكلترا  
هي كنيسة أسقفية حقيقية ورسلها لا يقودون أبناء الكنيسة القبطية الى  
الهرطقة ولا يملكونهم الاعتراف بمظنة باباروميه الذي تحتج عليه الكنيسة  
القبطية بمزعة راسخه من منذ أكثر من أربعة عشر جيلا ولكن مع  
ممنونية الاقباط وشكرهم الزائد الى المشيخين الاميركان لانعطافهم  
نحوهم والساعة المرضية التي يلاقونها منهم - فانهم أي الاقباط يحزنون  
حزنا شديداً من أعماق قلوبهم لا تتشاور مذهب المشيخين بين الخائنين  
والمثقفين من الاقباط

ولا بد ان يكون دائماً منع أسف شديد عند أعضاء الكنيسة الانكليزية  
الذين عهد اليهم العمل في أول الامر وبتقصيرهم وانحرافهم عن جادة  
الصواب قد أنجز العمل عن يد أعضاء كنيسة أخرى التي يقضي عليها  
دستورها بان نجاحها يتوقف على ضرر الكنيسة الوطنية المصرية بمقدار  
الضرر الذي يصيبها فيما اذا خزلت في اتمام مأموريتها - فتحن الذين  
وضعنا يداً على المحراث ونظرنا الى الوراء أصبحنا آخر الشعوب ذوي  
الحقوق في انتقاد طرق الفيورين من الرجال والسيدات الذين قاسوا  
عبء الحمل الثقيل وحرارة شمس النهار في وسط كروم الرب

واجتهد البطريرك كيرلس بتقريب الاعتراف بالثلاث كنائس في  
مصر بين شعبه وهي الكنيسة القبطية والكنيسة اليونانية

والانكليزية . ولكن مساعيه هذه قد الفتت سوء المظنه به عند الحكام  
المسلمين في مصر فاعتبروا ذلك المشروع خيانة منه وخروجاً عليهم  
فدبروا طريقه لأعدائه فتوفي مسموماً . وبعد وفاته أصيبت مصر  
بحركة اصلاح لم اتصل اليه حتى الآن

وخائنه الابناء ديمتريوس على السند البطريركيه الذي كان رجلاً صالحاً  
وعادلاً ولكنه لم يكن كفواً للقيام بأعمال ومشروعات سلفه حتى انضم  
في عهده كثيرون من الاقباط الذين كانوا يرغبون في زيادة التعبد  
والجنوح الى الحياة السياسية الراقية الى الكنيسة المشيخيه الاميركيه اما  
باقي ابناء الكنيسة القبطيه الوطنيه الذين تربوا على معرفة زهاء ومجد  
كنيستهم الاصليه وطقوسها الاسقفية فوقعوا في بأس عظيم . وهذا  
العمل حدا البطريرك ان يحرم الكنيسة المروطقيه ( الاميركيه المشيخيه )  
التي كانت قد أسست لها دعائم ثابتة في الديار المصرية وعلى الخصوص  
في الوجه القبلي . ولكن ذلك لم يرق في عيني الطبقة المتعلمه من الاقباط  
العلمانيين لان الحرم في نظرهم لا يعتبر عمل ديني عظيم جادت به كنيسهم  
ولا هو من النجاح والفائدة على شيء البتة (١)

(١) وفي سنة ١٨٦١ مسيحية التي ارتقى فيها الانبا ديمتريوس على العرش  
البطريركي أنشأت مس هواتلي مدارسها المشهورة في القاهرة بافجالة . وكان  
قصدها من فتح هذه المدارس هو جذب أبناء المسلمين الى الديانة المسيحية ولم  
تكن تقصد ذلك مع الاقباط ولو أنها تصدت كثيراً في ذلك للسوريين المسيحيين



ولما توفي الانبياء ديمتريوس تشاور الشعب القبطي فيما بينه وافر قبل ان ينتخب بطريركا جديداً ان يطلب منه اعتماد مشروع سنه لاصلاح الكنيسة . وقد اجتمع كردينالات رومه ليقيدوا بابائهم المقبل بمثل ما فعل الاقباط وبذات النتيجة التي نوصلوا اليها هؤلاء

وقد بني الشعب القبطي عمله هذا مع البطريرك على أساس مادة في القانون الكنائسي الذي تمتشى عليه الكنيسة القبطية كما روي ذلك ابن العسال الذي عاش في القرن الثالث عشر ونص هذه المادة في القانون المذكور هي : —

يجب على البطريرك ان يشاور علماء واثقياء رجال شعبه من الاكليروس والعلمانيين ( وعلى الخصوص الاشخاص الملتقين حول الملك الحاكم ) جماعاً وانفرادياً في كل الشؤون الهامة المختصة بالشعب والكنيسة وما يتقرون عليه يجب تدوينه )

فاعتماداً على ما ذكر قد وضع نخبة الاقباط مشروعاً المقصود منه تأسيس مجلس ملي في ابرشيته مكون من فرعين اكليريكي والثاني علماني ويكون هذا المجلس تحت رئاسة أسقف الارشيته وينتخب أعضاؤه كل خمس سنوات من الحائزين على حقوق الانتخاب واعتمدوا هذا المشروع بامضاء وموافقة مطران الاسكندرية ووكيل الكرازة المرقسية والقائم مقام البطريرك وقعدت خلوة الكرسى البطريركي .

وقد صادق جميع الاساقفة على هذا المشروع ولكن الشعب لم يره

الدواء الشافي للاصلاح المنشود فتفاوض أحد الاعيان مع سعادة بطرس باشا غالى وهذا استصدر ذكرى توخديوي بتأسيس هذا المجلس بصفه قانونية رسميه . وبعد جدال واختبارات كثيرة مدة سنتين في شؤون الاصلاح اتخبوا انبا كيرلس الخامس البطريرك الحالي سنة ١٨٧٥ مسيحيه الذي تعهد عند تبوئه العرش المرقسي ان يوافق ويؤيد كل القرارات التي أقرها الشعب قبل انتخابه .

وفعلا ظل البطريرك والمجلس الملى يعملان بيد واحدة واتفاق تام في اصلاح الكنيسة والشؤون الملية الى درجه كانت من نتائجها انشاء المدرسة الاكليريكية في القاهرة ووضعها تحت رئاسة المتنيح الايغومانوس فيلوثاؤوس رئيس الكنيسة الكاثدرائية المرقسية بالقاهرة لانه كان رجلاً نادر المثال في كفاءته العلمية والشخصية . ثم تصادف عقب هذا الوفاق بين الشعب والبطريرك حصول تفور بين الطرفين الجأ البطريرك الى عدم الصبر والتأفف من احتمال قوة سلطة أخرى تعمل بجانبه لم يخضع لها أو يحتملها أحداً من أساقفه . فلما رأى نفسه غير مقتنع بنتائج أعمال وتعاليم المجلس أصدر أمره بفلق المدرسة الاكليريكية وكان من وراء ذلك اهمال الكهنة والقسوس بدون تعليم لاهوتي يؤهلهم لحفظ مراكم الكهنوتية ويمظم شأنهم في نظر الشعب الذي أصبح متتوراً عن ذي قبل بعد فوات أزمته الاضطهادات . ولما لاحظ أعضاء المجلس الملى ان نصائحهم لا يلتفت اليها وغير مرعيه انقطعوا عن



الاجتماع - وتركوا الجبل على غاربه لانبا كيرلس حكم الكنيسة والشعب بالطريقة القديمة لغاية سنة ١٨٨٣ م حيث ظهرت عثرات وفضائح ادارية ممتدجة بشطط في امتيازات الكنيسة أدت الى هياج الشعوب العام عند الاقباط . وفي ذلك كان قد نما جيل من الشبان الذين تعلم أغلبهم في مدارس الاميريكان أو الكاثوليك ( اليسوعيين والفرير ) ولو انه كان أيضا عدد عظيم من شبان الاقباط المتعلمين ثابتا في ايمانهم بكنيستهم الاصلية التي تربي أبائهم في احضانها الا انه نما فيهم أيضا الروح بعدم الميل لحالتها العامة . فصنخب كل شبان الطائفة عليها وصاحوا طالبين اعادة انتخاب اعضاء المجالس الي فسلم البطريك مطالبهم وأعيدت الانتخابات وفتحت الجلسات وأقرت جملة قرارات . ولكن أبي البطريك الا انكارها فظلت حبرا على ورق .

وفي سنة ١٨٩٠ اسس بعض صغار الشبان جمعية منهم غرضها اصلاح حال الكنيسة وسماها ( جمعية التوفيق القبطية الخيرية ) ولقطة توفيق ليس قصدهم تيمنا فقط باسم الخديوي توفيق الذي كان محبة المسلمون والمسيحيون على السواء بل هي كلمة عربية معناها تمديد الطريق . وابتدأت هذه الجمعية عملها بنشر نبذات ونشرات باللغة العربية الغرض منها استنهاض الرأي العام بين جميع الاقباط الذين يدرفون القراءة والكتابة - وقد ترجم مؤلفو هذه النشرات بعضها الى اللغة الانكليزية فكانت جميعها تستحق المطالعة والامان . فكبرت الجمعية وكبر عملها

بسرعة عظيمة وأثرت تأثيرا حسنا في الشعب حتى خافها البطريك وبطانته من طائفة الاكليروس الذين كانوا يرتعدون خوفا من تغيير الحالة التي هم عليها فنبذوا والبطريك اقصى جهدهم لحل تلك الجمعية . ولما كانت اعضاؤها كباقي الشبان والرجال المتوقدين حرارة وغيرة على ملتهم تحمصر قواهم هذه في حدود اختباراتهم العلمية والعالمية قد صدرت منهم بعض غلطات بطريق الاتفاق اتخذها رجال الاكليروس فرصة سانحة فكبروها وهملوا بها واولوها الى مقاصد سيئة . فوشى بهم البطريك عند الحكومة بتأويل اغراضهم الى خيانة الوطن والخروج على الحكومة . وغرض البطريك من تلك الوشاية هو غالبا تبرئة نفسه من عمل رجال الجمعية خوفا على حياته وخوفا من أن يصادفه ما صادف البطريك السابق كيرلس ابي الاصلاح كما تقدم . لانه ولو أن الاحتلال الانكليزي في هذه الديار قد يحول دون حصول ثورة عامة أو اضطهاد ديني ولكن لا يمكنه الضرب على ايدي من يهيجون الشعب المضطرب بوسائل سرية . واسس البطريك ايضا جمعية اخرى ضد جمعية التوفيق وسماها جمعية الحق ( الارثوذكس ) ومن ثم ابتدأت الملاقات في القنطرة بين البطريك وجمعية التوفيق .

وفي ربيع سنة ١٨٩١ قام الاقباط بمظاهرة عظيمة في القاهرة حضرها مندوبون من جميع طوائف الاقباط الساكنين ببلاد القطر المصري . وقام الخطباء يخطبون في جموعهم المحتشدة واخيرا اقروا على



انتداب وفد بقبال البطريك ويطلب منه بالحاج ضرورة اجتماع المجلس  
الملي وإيجاد الإصلاح المطلوب والالتفات لصوت الشعب

والبطريك كيراس الخامس يشبه في طباعه بابا روميه اذ يعتقد  
الاثنان بعدم ضرورة المجالس المليية . فلما مثل وفد الشعب امام ذلك الشيخ  
خرفت عيناه بالدموع وكر خارجاً من الغرفة . فافر الشعب على عقده  
اجتماع عام في ساحة البطاركة . فكتب البطريك لسعادة محافظ  
القاهرة يحظره بما كان وطالب قوة من البوليس للمحافظة عليه وحفظ  
النظام . وبعدئذ عقد مجمعا مقدسا من تلقاء نفسه ( مجمع اساقفة ) حضره  
جميع اساقفة البلاد ورؤساء الاديرة ورؤساء الكنائس الكبرى . ولما تم  
اجتماعهم قدم لهم ورقة ليوقعوا عليها ولم يتمكنوا معرفة موضوعها واسكننا  
نظن انه طلب فيها منهم مساعدته ضد طالبي الإصلاح . ولو أن اغلب  
الاساقفة اصلهم رهبان ويجهلون القراءة والكتابة فان بعضهم قد ختم تلك الورقة  
المقدمة لهم بدون قراءة ما بها الا أن بعض القسوس المتعلمين وذوي الدراية قد  
رفضوا التصديق عليها . وفي مقدمة اولئك القسوس كان ابونا فيلوثاؤوس  
رئيس الكنيسة المرقسية الكبرى المشهورين الاقباط بسعة علمه ودرايته .  
وابونا بطرس انغومانوس (١) كنيسة الفجالة . وابونا يوسف انغومانوس

(١) ويدعون الاقباط ايضا القمص . وتقريباً كلتهم واسماهم اليونانية محرقة  
وبالكدي يعرف الانسان معنى كلمة منها . ولغة قص معناها بالانكليزية يضاهي قيس  
اكبر أو رئيس ولكن لفظة قص وانغومانوس عند الاقباط تستعمل ايضا كرئيس الدير

بايلون وابونا بشوي انغومانوس كنيسة حارة الزويلة وابونا عبد الملك  
انغومانوس كنيسة ابوسيفين . وقد اصدر البطريك التعليمات اللازمة  
للقسوس ورؤساء الكنائس لقراءة تلك الورقة أو المنشور بصوت جهوري  
على الشعب بعد الصلاة في جميع الكنائس . وبعدئذ استصحب البطريك  
لقيناً من الاساقفة وتوجه لمفاوضة الخديوي توفيق باشا في امره الذي  
حقق المسألة القبطية بكل حذاق وهاضح البطريك بكل احترام بان يسلم  
لارادة ومطالب الشعب وبين له انه هو نفسه واقع في مثل هذه التجربة .  
وقيل أن الجناح الخديوي قال له ( قبل احتلال الانجليز لهذه الديار  
حكمت شعبي بمجرد ارادتي واميلي ولم يكن لواحد ان يسألني أو يحاسبني  
على ما افعل . لاني كنت اعد من الظلم أن يقاد الحاكم لسلطة تراقبه . اما  
اليوم فتدتيقنت أن طريقة الاحكام الجديدة وهي طريقة الشورى صالحة لامتني  
وعليه تراني لا اقاوم هذه الطريقة مطلقا بل اجتهدت في تعليمها وخضعت للذين  
يريدون مساعدتي لحكم امتي بطريقة توافقها فاذهب انت اذا وافعل مثلي  
واسوء الخط توفى توفيق باشا بعد ذلك بقليل جداً . فاستأنف زعماء  
الإصلاح قضيتهم ضد بطريركم في عهد سمو الخديوي المظم عباس باشا  
حامي الثاني وطلبوا من الحكومة اصدار قرار وزاري لاعادة انتخاب  
المجلس الملي . فكان لهم ما تمنوا ولكن لم يحضر البطريك وقت الانتخاب  
بل تم تحت رئاسة محافظ القاهرة غير أن الاحوال ازدادت اشكالا  
وتعقيدا وصارت في حالة معيية ومشينة لاطرفين لان الغرض الاصلي من



الاصلاح اصبح قائما مظلما وقت الجهاد مع اليد العليا أي البطريك وما وجه الاتهام الا التجاء الحزبين الاكليريكي والملي الى سلطة الحكومة الاسلامية وهو الامر المخالف تمام المخالفة لنص شريعة العهد الجديد ( الانجيل ) وكان من الذين يميلون الى حزب الاصلاح من رجال الاكليريكس انبا اثناسيوس اسقف صنبوخرمه البطريك فنزل الى القاهرة يستسمحه فوجد باب البطريكخانه مغلوقا في وجهه بامر البطريك الذي بعد ما امر بذلك سافر الى الاسكندرية . واخيراً تغلب حزب الاصلاح ونجح رجاله في تقي البطريك الى دير وادي النطرون وتقي انبا يوحنا مطران اسكندرية الى دير ماري بولص في البرية . ولكن بعد ذلك عاد في الحال زعماء الاصلاح وتأكدوا أن تصرفهم هذا حرك العواطف الدينية في الشعب ونحوات امياله عن حزبهم

اما انبا اثناسيوس مطران اسكندرية المحروم الذي كان من حزب الاصلاح وليس من الذين استحقوا النفي مع البطريك فقد استدعاه الحزب المذكور ليكون نائب البطريك مدة نفيه . ومع فساد وإطلاق حكم الحروم الذي اوقعه عليه البطريك ومخالفته للاصول الكنائسية فانه تحمله على نية التخلص والتبريء منه بالطريقة القانونية . وبحكمته واعتداله تمكن بارجاع حزب الاصلاح الى الصراط المستقيم . وقسم رجال المجلس الى اتقسم الى اربعة لجان . الاولى للنظر في شؤون المدارس وما يؤدي الى تقدمها والثانية لحصر ايرادات الاوقاف والنظر في ما يرقى حالة الكنائس

ونظامها . والثالثة لفحص حالة الكنائس واستئصال عيوبها الشائنة . والرابعة للنظر في حال رجال الاكليريكس وترقية احوالهم الدينية والعلمية والادبية . ولكن تصرفهم نحو البطريك والخوف من حرومه قد ازعج مجموع الشعب حتى تنحى مبتعدا عن حزب الاصلاح وحتى عن الكنائس فاصبحت لا يدخلها الا نفر قليل للصلاة . واجتهد انبا اثناسيوس وبذل كل الوسائل الممكنة لحل البطريك لرفع الحروم عنه فلم يفلح فعزم على عدم الاعتراف بذلك الحروم . وساعده فضائله الشخصية لاسترجاع ثقة الشعب به ونجح في ذلك نجاحا باهرا ولكن بعد ذلك بقليل كان رياض باشا قد انتخب رئيسا للوزارة المصرية . فكان ينظر لكل علامات النهوض الحيوي بين الاقباط بعين ملؤها النور التام . فبذل جهده في تأسيس مناعب كثيرة لهم واخيراً تمكن حزب الكنيسة القديمة من الاتحاد مع حزب الاصلاح بان اقوم طريق الواجب ساوكة هو الخضوع لبطريكهم بارجاعه ثانياً من منفاه . فتنازل انبا اثناسيوس بكل هدوء عن مكانته للبطريكية . وعاد البطريك من منفاه ودخل القاهرة في احتفال باهر عظيم جداً كدخول القادة الفاتحين . اذ تهافت المسلمون والاقباط من جميع انحاء البلاد لاستقباله والترحيب به بالموسيقى وهم يهتفون ويكبرون وحل الاقباط جياد المركبة التي نقتها الى الديار البطريكية وجروها بانفسهم تعظيماً له اما الازدحام فكان شديداً جداً في الطرق والمنازل والاشجار وعلى اعمدة مصابيح الشارع الموصل للدار



البطيركية حتى وقفت حركة الانتقال العمومية بالسكينة في ذلك الشارع.

وبالجملة قد كانت المظاهرة مؤثرة جدا وتدل على الاخلاص التام المتأصل في قلب الشعب القبطي نحو بطيركه. ولكن بقدر ذلك الشعور نتأسف لعدم اتخاذ كيرلس فرصة انتصاره هذا في استعمال الحكمة مع شعبه. لان اول مظهر منه بعد رجوعه عدم اتخاذه عادة الشرفي النفوس في مسامحة المخطئين اليهم ومصالحة من يعملون معهم لاصلاح شؤون الامة. لانه لم يتمكن رجال السلام بحمله على مصالحة ومسامحة انبا اثناسيوس وباقي رجال الاكليروس الذين كانوا في حزب الاصلاح الا بكل صعوبة شديدة جداً. وبعد ذلك أبى الاعتراف بالمجلس الملي كما ولم يسمح له بتكملة اعماله الاصلاحية التي كان قد ابتدا فيها بان أقر ان تكونه غير قانوني وحقيقة كان ذلك ثم جدد رابطة مع رجال الحكومة الامر المخالف لنص الانجيل. وقد قبل النيشان المجيدى الاكبر من سلطان تركيا الذي أنعم به عليه بعد رجوعه نظير مساعيه التي اتخذها في اهباط وهدم مساعي حزب الاصلاح وقتل روح النهضة الحيوية في شعبه قبل نموها في مهدها. ثم حل المجلس الملي. وانتخب أربعة من رجال هذا المجلس دعاهم اللجنة المالية تنظر معه في شؤون الطائفة حين تجديد انتخاب مجلس اكليريكي بدله. وأعاد افتتاح المدرسة الاكليريكية الا انه وضعها تحت ادارة قوم لا يلبقون بالمره لادارتها فمادت القضاة والغلطات

الاكليريكية القديمة على مثل ما كانت قبلاً بدون ان يستطيع احد التعرض لها

ويسرنا القول انه بعد عودة كيرلس من النفي بضع سنوات تغيرت أحوال الكنيسة المصرية الى أحسن من ذي قبل. فان البطيرك وحزب الاصلاح لاحظوا ان كنيسة المسيح لا يمكن المحافظة عليها ولا اصلاحها بدون اشراك روح المسيح في ذلك وظهرت رغبة كل من الطرفين الى السلام. وكان نتيجة ذلك الفكر ان مدرسي المدرسة الاكليريكية الغير الالاثقين للتعليم فيها تغيروا بآخرين من ذوي الكفاءة والعقول الراجحة القابلة للنور الجديد نور الاصلاح والارتقاء الديني والاديني ثم صرح البطيرك لثغر قليل من طلاب هذه المدرسة للتبشير والوعظ في الكنائس. وبذلك أمل الشعب ان يخلق من هؤلاء الواعظين فريقاً جديداً ينشئ من طبقة قسوس أكثر تنوراً في مهنتهم من الجيل السابق وبالطبع لا يمكن اجراء أو حصول اصلاحات أكثر مما تقدم في عصر ذلك البطيرك الشيخ الهلوع. لانه يخاف من جهة من اتهامه بمواطئته مع الانجليز ومن جهة أخرى من الأميال الهرطوقية التي نمت في عقول الجيل المرتقى الذي تعلم في مدارس الامريكان وانحرف بجمل لاحتقار كنيسة الاصلية.

ومما يجب ذكره قليلاً في هذا المقام المساعي الانجليزية التي بذلت في مساعدة الكنيسة القبطية فنقول.



بعد احتلال الجنود الانكليزية لمصر تأسست حالا جمعية (زيادة انتشار المسيحية في مصر). ولكن تعقدت أعمالها منذ أول افتتاحها لأنها رفضت الاعتراف بأن الكنيسة القبطية هي الكنيسة المصرية الرسمية. ومن الغريب أنها سمعت لدى بطريرك الاقباط لمعاونتها بينما كانت تشكر عليه حقوقه الرسمية وارثوذكسيته التي هي عقيدته حتى ان أحد كبار خطبائها اتخذ في أول اجتماعاتها فرصة الشائه خطبه دينيه ليعلم من ان الجمعية ترفض كل هرطقة تؤدي الى ملك النفس عند الاقباط ومع كل فقد تمكنت هذه الجمعية في بدء أمرها من التأثير بعملها في البلاد قليلا ولو أن كلا الحزبين في الكنيسة القبطية المصرية كانا ينظران اليها بعين المقت والكرهه. <sup>(١)</sup> وأخيراً يمكن القول انه يوجد في مصر حقل

(١) نوضح هنا تعاليم الكنيسة القبطية الحقيقية في هذا الموضوع مأخوذة من كتابهم التعليم المسيحي :-

سؤال — هل هو (المخلص في تجسده) ينفصل عن الاب والروح القدس؟  
جواب — معاذ الله انه ينسب اليه اي انفصال أو انتقال لانه (اي المخلص) كلمة الله الازلية الغير محدودة الذي لا يقدر بانصاف ان يصير منفصلاً عن الله وروحه. ويتنازله اي قبوله ولو انه ازلي ان يظهر على الارض في شكل بشري كي يخلص الانسان خليقته وينيله بتجسده مركز النعيم العظيم في مملكته السماوية. ومع ذلك لم ينفصل ابداً عن الاب والروح القدس

سؤال — ما معنى قولك هو واحد نفسه؟

جواب — معناه ان ابن الله اخذ ناسوته (اي الجسد والروح) وجعلها به

متسع الا رجاء للعمل وحياة في شديد الحاجة للمساعدة ولكن لا يتمكن من السير في ذلك العمل الا اذا عمدت الى اظهار الحقائق كما هي مع أطراحك ظهرياً لكل تحمل حتي تحكم على الاشياء قبل فحصها وينتقد أنها مازالت من عوائد القرن الخامس النافذة على القرن العشرين ويتبع البطريركية القبطية ثلاثة عشر ابرشيسته منها في رتبة المطرانية.

ويوجد بها ٨٣٧ قسيساً أو كهناً و٣٧٥ كنيسة الآن وبإضافة كنائس القاهرة واسكندرية اليها يصير المجموع ٤١٨ كنيسة قبطية في الديار

واحداً — شخصي واتحاد مادي. بلا او فوق الامتزاج. والاختلال او التعقيد ولا استحالة (اي بلا تحول لجوهر اخر) ولا انفصال وبهذا الاتحاد الحقيقي للمادة صار شخصاً واحداً. ومادة ممتازة بطبيعة واحدة ومثبته واحدة وعمل واحد :- وهو الابن الوحيد المتجسد

سؤال — ما هو المثل التقريبي لهذا الاتحاد المقدس؟

جواب — هو اتحاد النفس المتكلمة مع الجسد البشري لان النفس هي مادة روحية ظاهرة اما الجسد فمادة ترابية محسوسة. وبهذا الاتحاد المتبادل بدون امتزاج (اختلاط) او استحالة صاروا شخصاً واحداً ومادة واحدة وطبيعة واحدة واتحاد النفس والجسد في كل انسان هو اعظم مثال وبرهان حي لاتحاد اللاهوت الازلي مع الناسوت في شخص المسيح الاله وفي وحدة المادة.



المصرية وبخلاف هذه ايضا الصوامع والاديرة المهمة وثلاثة اديرة  
للراعيات (١)

﴿ انتهى الفصل ويليه الفصل الخامس والسبعون وهو آخر الكتاب ﴾



(١) عنوان بطريرك الكنيسة المصرية التام هو: البابا الكلي القداسة  
بطريرك الاسكندرية وجميع الديار المصرية وبلاد النوبة والحبة والخمس مدن  
الغربية وجمع الكرازة المرقسية

الكنيسة المصرية يقال لها عند الاقباط ( الكنيسة ) والاجانب يسمونها  
الكنيسة القبطية. ويسمى الاقباط الكنيسة اليونانية ( كنيسة الاروام ) والكنيسة  
الرومانية يسمونها ( كنيسة الكاثوليك ) اي الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية.  
والكنيسة البريطانية يسمونها ( الكنيسة الانجليزية او الانجليكانية ). ولما  
الكنيسة المشيخية وكل المنشقين منها او الشيعيين فمعروفة عند الاقباط بالاصطلاح  
العام ( كنيسة البرتستانت ) .

## الفصل الخامس والسبعون

العوائد والمعيشة الاجتماعية

سنة ١٨٩٧ . مسيحية وسنة ١٦١٣ للشهداء و ١٣١٥ للهجرة

تمتع الاقباط بانتشار الحرية والتعليم في السنين الاخيرة فكان ذلك  
سبباً لنسخ كثير من عوائدهم الدخيلة عليهم التي اقتبسوها من أبناء  
الشعوب الغربية التي تقلبت على بلادهم في أزمنة الاضطهادات الدينية  
وخلت عليهم من احتلال المسلمين بينهم واتخذت كمثل ترى القبطي منذ عشرين  
سنة مضت يخجل كالمسلم ان يراء أحد الناس سائراً في الطريق مع  
زوجته أو إحدى قريباته لما اليوم فترى شبان الاقباط قد عادوا  
الى سابق عاداتهم وعرفوا ان المرأة المصرية يجب ان تتمتع بحريتها كما  
كانت في عصر افراعنة والعصر المسيحي الاول وانه يجب ان تعامل  
وتحترم على مثل أخوتها الغربية ولذا أصبحوا ميالين لنبد تلك العوائد  
الرديئة التي اقتبسوها من المسلمين ظهرياً ومن سوء الحظ ان تلك  
الحركة الاصلاحية قد نجحت بين الاقباط كثيراً وسيستمررون مثابرين  
عليها على مهل وحكمة حتى تتوصل المرأة المصرية الى بلوغ مركزها  
الاصلي والحقيقي في الهيئة الاجتماعية . وجل ما توجه اليه المرأة القبطية  
اهتماماً اليوم هو تقليد أخوتها الانكليزية في الطريق المستقيم وفي حرية الفكر



وفي ضبط مركزها الادبي واقتفاء أثرها في الازياء والملابس المعتدلة اللطيفة البعيدة عن كل ضروب الزينة والتخفة. على انه كان ينتظر ان يخرج عن الحد في حرمتها فلا تدير مع زوجها أو أخيها أو أي حارس لها ولا تنقيد بأي قيد من قيود زوجها بل ولا تسلط عليه تفوذها تقليداً للنساء بعض الطوائف المحيطين بها لانها لحسن الحظ أظهرت الحكمة والرزانه فلم تجنح الى الخروج عن الحد المطلوب للحرية. وهو عكس ما حصل لرجالها من حيثية تصوره انه يجبس جسده داخل الزي الاوروي الغير الصحي والغير اللائق قطعياً بالطقس بلاده وتطرفه في الحرية وبذلك يكون قد اقتبس التمدن الاوربي بأكمله.

وهناك عوائد كثيرة بين الاقباط والسكنها قديمة اتصلت بهم مع الزمان من عصر الوثنية وما تبقى منها قد اوجدوها بأنفسهم ومنها تلك العادة الممقوتة الموجودة غالباً عند كل الشعوب وهي عادة الحزن على الاموات تلك العادة الوثنية التي تأخر درجتها في كنفها الى هذا الحين. ذلك انه ما تكاد الروح تفارق جسد الانسان حتى يهرع أهله لاستئجار الندابات اللواتي يلين الطلب في الحال ويحضرن الى منزل المتوفي بالاطارت ويحتلن مخادع النساء ويتدنن بتمثيل منظر من أرفع وأرعب المناظر ويترنن بالفاظ مشيرة ومهيجة للحواس والعواطف. ويجلس في الطريق امام منزل المتوفي أقاربه الحزاني من الرجال أو يجلسون في زاوية إحدى غرف الطبقة الارضية من المنزل مكتئين ساكنين صامتين كأن على

رؤوسهم الطير يستقبلون وفود المعزين الذين عند دخولهم يضعون يدهم في ايدي اصحاب المتوفي فسقط بدون كلام ثم يجلسون باحترام صامتين والعادة الوحيدة التي يختلفون فيها عن عادة اسلافهم انهم يصرفون الوقت كله في التدخين. اما في الحريم فتكون جملة المتوفي مطروحة على الارض ومنظاة بشال ومزدحمة حولها نساء عائلته لا بسات انخرما عندهن من اللبوسات (١) ويهيجن بعضهن بالتصويت والولولة لدرجة الجنون والاختبال العقلي. ويحلقن جدائل شعورهن ويقطعنها ويلطمن خدودهن بشدة بايديهن المنصوغة بالنيلة ويصوتن بأعلى قوة في حنجرتهم مع الندابات اللواتي يصفن عنصراً آخراً من الاصوات بصوت طاراتهن (٢) فيتكون ضجة مفرقة مختلفة بين اصوات النساء وضرب الطارات.

واحياناً تسقط إحدى الولولات مغشياً عليها من شدة خوار قوتها. وبالرغم عن ذلك يستمر هذا المنظر المربع المنزع حتى تحمل الجثة الى المدفن. ونساء الطبقة الاخيرة يخرجن وراء الجثة في صوات وعويل

(١) نساء عائلة المتوفي يلبسن اخر الملابس الغالية القيمة المفتوحة الالوان مدة الثلاثة الايام الاولى من تاريخ الوفاة وفي اليوم الرابع يلبسن ثياب الحداد الاعيادية ويداومن على لبسها مدة سنة وتلبس ارملة المتوفي الثياب السوداء مدة سبع سنوات حداداً على زوجها

(٢) الطار هو طيلة هندية تستعمل في الهند والممالك الشرقية وتعرف باللغة الهندية باسم (تام تام)



هائل الى أن تصل القبر وفي غالب الاحيان يحسمون بنوع من الرقص  
المحزن الوحشي حول الجثة عند القبر بينما يكون الرجال جالسين متأثرين  
بتصبر حول حجارة القبر . ولكن هذه العادة نادر حدوثها الآن ويتنظر  
درجها في خبر كان بالكلية . لان الكنيسة وحتى الحكومة طالما اجتهدتا  
بالتدخل في منع وابطال هذه المناظر الممينة من الجنازات ولكن بالاسف  
ليس عندهما القوة الكافية للتأثير على أي اصلاح حقيقي دون أن ينضج  
الرأي العام في الاصلاح ويساعد الكنيسة والحكومة في ابطال هذه  
العيوب الرديئة

اما الاحتفال بالجنائز في الطريق فلي العموم يكون بالترتيل الاتي :-  
في مقدم الاحتفال يمشي القندلفت ( خدام الكنيسة ) حاملاً صلياً (١)  
كبيراً من الفضة ثم الشماسة للرتلين حاملين الاعلام ثم الكهنة  
ثم النعش وخلفه عائلة الفقيد في وسط جمع كثير من المعزين .

وموتى الاقباط يدفنون دائماً في اكفان . ولكن هذه الاكفان  
تصنع الان على شكل (٢) الاكفان الاورباوية الاعتيادية . وتقرأ صلاة

(١) لم يسمح المسلمون للاقباط باستعمال صلبانهم في الطريق لمثل هذه الظروف الا  
من مدة ثلاثين سنة فقط

(٢) ما زال سكان الوجه القبلي يدفنون موتاهم بملابسهم واغلب حلائم  
وادوات زينتهم . وقد ابطلت هذه العادة في القاهرة الا أنهم غالباً لا ينزعون حلي  
اوداات الزينة من المتوفي قبل دفنه .

الموتى على الجثة في الكنيسة قبل حملها الى المقبرة للدفن . واهل المتوفي  
يصومون طول الوقت ما بين الوفاة والدفن . وبعد ذلك يمدهم اصحابهم  
حالا بالطعام ويستمعرون على ذلك الى اليوم الثاني . ويستمر النساء في  
الدور الاعلى من المنزل والرجال في الدور الارضي يستقبلون المعزين من  
اصحابهم ولكن عند النساء يستمر البكاء والنحيب مدة ثلاثة ايام والمغنيات  
المأجورات ( المعدادات ) ينشدن نشيدا مؤثلاً في مدح الرجال ويسمى  
عندهن ( تعديدا )

وفي اليوم الثالث يأتي الكاهن ليعزي العائلة فتتجد معه في الصلاة  
ثم يرش كل الغرف بالمياه المقدسة التي صلى عليها والنساء يسمين هذا  
الاحتفال ( الذي هو في الغالب تقاليد قديمة ) احتفال صرف روح  
الفقيد من المنزل على اعتقاد انها تكون هائلة فيه حتى ذلك الحين وفوق ذلك  
كله فلا يزال كثير من الاقباط يعتقدون كاجدادهم ان الروح تبقى هائلة  
مدة اربعين يوماً قبل القرار بالحكم على مقرها الاخير . وانها توزن في  
ميزان بمعرفة الملاك ميخائيل الذي ينوب في هذه الامور عن السيد  
المسيح وما بقاء الروح مدة اربعين يوماً في انتظار المقاضاة الاشكال  
المظهر الذي يعتقد فيه الاقباط اعتقاد الكاثوليك . ثم هناك فريق  
من الاقباط يعتقد ان الارواح تخرج من عالم الغيب ( مقر الاموات أو  
مساكن الارواح في السماء ) وتظل هائلة مدة اربعين يوماً في انتظار حكم  
الدنيا النهائي بعد الصيام الكبير . وتوجد خرافة قبطية قديمة أيضاً تدل



على اعتقاد بعضهم في مطهر ليس من نوع مطهر الكنيسة الكاثوليكية ومؤداها ان الملك ميخائيل تكون له السلطة التامة في يوم واحد من أيام السنة يفتح فيه أبواب المطهر ويخرج منه كثير من الارواح المثلثة ويحمل منها على قدر استطاعته ويطير بها على أجنحته بسلام .  
انتهينا من سرد عوائد المآتم والاحزان وننتهي الآن بسرد عوائد الزواج والافراح فنقول :-

احتفالات الزيجة عند الاقباط تعتبر في الحقيقة من اعظم واجمل الافراح المستعارة من الشعوب الاخرى . واسوء الحظ نقول ان تأثير العوائد الاسلامية حتى في مثل هذه الشماثر قد أخذت عند الاقباط مأخذها فكانوا الى وقت قريب يعتقدون ان من الخطأ القاصح السماح لشاب بمشاهدة خطيبته التي سيقد زواجه عليها حتى ولا يسمحون بوجود تعارف شخصي بينهما بالمرة كما ولم يكن لاحدهما صوت أو رأي أو ابدأ اي فكر بالمرة في امر زواجهما بل وفي غالب الاحيان كانت تعقد صيغة الزيجة قبل بلوغ الزوج والزوجة سن الزواج لانهم كانوا يعتقدون ان الولد يليق للزواج في سن الخامسة عشر والنبت في سن الثانية عشر . ثم تحول رأي الاقباط العام عن هذه العادة بتأثير نواهي الكنيسة ونصائحها فانلموا عنها وصاروا لا يسمحون اليوم بالزواج الا عند بلوغ الشاب السنة العشرين من عمره والثلاثة السادسة عشرة . ولا يعقد الكاهن صيغة الزيجة الا بعد حصوله على رخصة من البطريرك أو من أحد الاساقفة

وفي سنة ١٨٩٥ اصدر البطريرك منشوراً عمومياً لكل رجال الكليروسه يذكرهم فيه بالقوانين الكنائسية المحتمة بعدم قبول عقد الزيجة قبل أن يرى الخطيبان بعضهما بعضاً ويتعاشرا زمناً ما يقف فيه كل منهما على اخلاق وصفات الاخر ثم قبل البدء في عقد الاكليل يجب على الكاهن ان يدعو اهالي العروسين ليتحقق ويتأكد ان كان الخطيبان قد عرفا بعضهما معرفة تامة ويسأل كلا من العريس والعروس على انفراد أن كانوا راضيين بالاقتران من عدمه . وعند تمهيد طريق الزيجة يرسل القتي للفتاة بواسطة الكاهن خاتماً من الذهب أو الماس بصفة هدية يقال لها ( الشبكة ) . ثم يعين الكاهن يوم الاحتفال بالخطوبة ويقال له عندهم ( جانيوت ) قتي عصر ذلك اليوم ( نهار جانيوت ) يذهب الخطيب مصحوباً بعدد من اقاربه واصحابه واحد القسوس الى بيت العروس حيث يكون اقاربها ايضاً مجتمعين في منزلها لاستقبال العريس وآله وبعد أن يتكامل عدد المدعوين يتقوا جميعاً مع الكاهن ويلتون الصلاة الربانية . ثم يلقي القس خطبة أو موعظة حسب ما يناسب المقام ينود فيها عادة الى خطوبة رفيقه لاسحق

ثم يجلس الجميع ويتناقشون في تدوين الشروط المدنية ( محضر الزيجة ) ثم يدفع العريس مهر العروس ثم يتفقون فيدونون في المحضر اليوم الذي يعين لعقد الزيجة . ويختلف المهر بحسب مقدرة العريس المالية انما المهر يكون عادة متراوحاً ما بين العشرين والمائة جنيه ووالد العروسة



عادة يدفع ضعف المهر ويصرف كل هذا المبلغ في شراء حلي وملبوسات  
واجر خياطات . وبعد أن يقدم آل العروس المرطبات والحلوى  
للحاضرين يهتفون العريس على الاقتران القادم المبارك وينصرفون .  
واذا كان اليوم الذي يتعين لعقد الزيجة بعد زمن طويل من تاريخ  
الخطوبة يلتزم العريس أن يرسل لعروسه المتخبة من وقت لآخر  
المهدايا ( نفقة ) من زهور وفواكه . وإذا تصادف قبل تاريخ عقد الزيجة  
عيد الميلاد أو الفصح مثلاً يرسل لها العريس فستاناً وكية كبيرة من  
الكعك والحلويات ولكنه لا يزورها بشخصه ولا يرسلها الا ما ندر  
وأكليل الزواج يعقد في ليالي السبت والاحد ولكن محرم في  
الصيام الكبير وفي كل صيامات الكنيسة اللهم ان لم تقض بذلك ظروف  
استثنائية في غاية الاهمية — فأول ليالي الفرح ليلة السبت ويقال لها ليلة  
العروسة ( ليلة الحناء ) وفي بحر ذلك اليوم تخرج العروسة الى الحمام مع  
بعض صاحباتها وأهلها . وفي المساء يلبسونها أنحف الملابس وتجلس  
لاستقبال المهتئين والمهتئات من جميع أهلها وأقاربها وصاحباتها ثم يخضبون  
يديها ورجليها بالحناء مثل المسلمين . ثم يجلس الجميع الى وليمة العشاء وبعد  
يصرفون الليل في سماع المقنيات أو المعنيين الذين يؤجرونهم لغرض  
الانشراح وتسلية النفس . لان العادة عند الشرقيين انه تكون المظاهر  
فوق الطاقة والكرم فوق المجهود أي ان تعمل كل ما في وسعك لتسلية  
ضيوفك بنفسك فوق الهمة التي تبدلها الزين بيتك بالزهورات والبارق

والاعلام ولا تارته ليلاً بالثريات التي تصف على شكل جميل . غير ان النساء  
يكن منفصلات عن الرجال مثل المسلمين . وفي الغالب لا يدخل  
المدعوون الى البيت للمرة بل يقام لهم سرادق عظيم في حديقة المنزل  
لاستقبالهم وهذه السرايدات وما يتبعها من أدوات الاطعمة والمقاعد  
والخيم تجهز بواسطة مقاولين يسمونهم (بالفراشين) اما العشاء فيقدم على  
الطريقة الشرقية الاعتيادية توضع الاطعمة على صينية من المعدن  
مستديرة وكبيرة ليجلس حولها عشرة رجال بالراحة يعطى لكل منهم  
فوطه وملعقة ورغيف من الخبز — ولكن لا تعطي سكاكين ولا شوك  
غالباً كما انه شتم على الجميع ان يغسلوا أيديهم قبل تناول الطعام كمادة  
المسلمين ثم يأكلون باصابعهم بعد ان يمد أعظمهم مقاماً يده أولاً  
واذا حضر قس على المائدة فله الافضيلة في مد يده للطعام أولاً  
دون جميع الجالسين معها كان بينهم من كبير المقام . ويتديء بالفاظ  
البركة والنعمة ثم يأخذ رغيفاً من الخبز ويباركه ويقطعه الى قطع صغيرة  
يوزعها على الحاضرين معه . ثم يحضر الفراشون موائد أخرى بقدر ما يسمع  
المكان يجلس عليها عشرة ضيوف كما تقدم . وهكذا يتعشى كل الضيوف بتجديد  
هذه الموائد . وفي أول ليالي الفرح (ليلة العروس) يختفي فيها العريس بعد ان  
يرسل اثنين أو ثلاثة من أقرب الناس اليه يحملون باقة من الزهور وشعلة كبيرة  
يشترط ان تكون طول العروسة . وتوقد هذه الشعلة في غرفة نوم  
العروسة طول الليل حتى الصباح



وفي ليلة الاحد يقال لها ( ليلة العريس ) يذهب الشين ( أصدق صديق للعريس ) مصحوباً باثنين أو ثلاثة من أقرب أهل العريس ليحضر العروسة بالحرس اللازم في احتفال كبير الى بيت زوجها . ومن يضع سنين مضت كان الاقباط لا يتجاسرون على السير في الطرق بمثل هذا الاحتفال الا ليلا فكان أكثر تأثيراً للابتهاج من السير به نهاراً . اذ كان يتقدم الاحتفال جوقة الموسيقى ثم جمع كبير من حاملي المشاعل فكثير من الشبان يحمل كل منهم شمعه في وسط باقة من الزهور ثم صفوف أخرى تحمل المبخار الموقدة التي يتصاعد منها البخور ثم حملة القمام المملوءة بالروائح العطرية يسارن بانجاء نحو العروس السائرة على قدميها والمتكئة على ذراعي اثنين من أقرب المقربين اليها ومحتشد حولها جمع كثير من السيدات وخلفهن الخادومات

أما الآن فتنتقل العروس ومن معها من السيدات في عربات مقفلة ( كويل ) ويحرسها الشين وأعوانه ويتقدم العربات جوقة الموسيقى اما مركبة العرس فتغطى بشال من الكشمير أو بسجاده غالية الثمن

وبوصول هذا الموكب لبيت العريس يذبحون خروفاً أو عجلاً على عتبة البيت ويفرقون لحمه على الفقراء وقد ورثوا هذه العادة من المصريين القدماء — ثم يحمل الشين العروس ويطلع الى مخدع الحريم وعندما يبارح الموكب منزل العروس وعند دخولها بيت العريس يرشها النساء بالملح وأحياناً بالورد اعتقاداً منهن بطرد تأثير العين الشريرة

( الحسد ) عنها . وبعد الانتهاء من الاكليل يرتاح القوم قليلاً من الزم يأخذون في اثنائه شيئاً من المرطبات والملبس والحلوى .

وقد كانت العادة أن يعقد الاكليل في الكنائس . ولكن في أيام الاضطهاد وهجوم المتعصبين على الاقباط اصبحت مثل هذه الاحتفالات خطره فصارت العادة الآن من زمن طويل أن تقام هذه الشعائر في منزل العريس . فيجهزون التجهيزات اللازمة ويتمون احتفال الاكليل بكل احترام حيث يضع الكاهن المعين طاولة في وسط احدى غرفه في البيت ويضع عليها الانجيل المقدس مقفول مختوم (١) في علبة من الفضة ويرص حوله ستة صلبان من الفضة المصقوفة في كل منها ثلاث شمعات ليكون نورها رمزاً عن الثالوث المقدس . ثم يضع مقعدين امام المائدة لجلوس العريس والعروس عليهما براحة وما عداهما من الحاضرين يظل واقفاً على قدميه طول وقت الاكليل . ثم يلبس العريس في غرفة اخرى حلة عرس ( برنس الاكليل ) وهو عبارة عن قانسوه

( ١ ) بعض هذه الكتب المقدسة لم تفتح من اربعمائة سنة ومن المؤكد ان هذه العلب الفضية تحتوي على نسخ من الانجيل المقدس ذات قيمة أثرية عظيمة مختوم عليها لعدم امكان استعمالها . وهي طريقة لطيفة جداً في وضع الانجيل المقدس في علب من الفضة التي يمكن تنظيفها لهذا الغرض ويحسن بنا اذا اقتربنا من الاقباط في هذا الامر ونضع الانجيل المقدس الخاص بمكاننا المحلية داخل علب فضية



أو عبايه من حرير ابيض غالية الثمن كثيرة التطريز تغطي جسمه كله حتى راسه وهذه البرانس هي ملك الكنيسة ويميرها الكاهن للعريس في مثل هذه الظروف كالتيجان. وبعد ان يلبس العريس هذا البرانس من الرأس الى القدم مع أن عادة عدم كشف الرأس محترمة عند جميع الشعوب المسيحية. فانه يشوه أيضا منظر هذه الحلة البيضاء بسبب لبس الطربوش الاحمر الغير اللائق على راسه تحت طرف البرنس. اما العروس فتزين بلبس حلة حريرية بيضاء ويتنع وجهها بنقاب حرير رفيع جداً على مثال العروس الانكليزية الا انني في بعض الاحيان نظرت عروس قبطية لابسة فستان عرسها من حرير احمر على مثال المسلمين.

وكان من الواجب أن تجلس العروس على يمين العريس قبل كل شيء الا أن الافكار والمعتقدات الاسلامية قد أثرت جداً في العوائد المصرية حيث يتفق كثيراً أن يقام عقد الزيجة لعروس قبطية وعرسها امام مائدة الاكليل خاليا منها أي أن يجلس العريس على كرسيه فقط اما العروس الصغيرة المسكينة فتظل من وراء باب غرفة اخرى وتفرج على كيفية عقد زواجها. ولا يخرجونها من سجنها الا لما تحل جل القول ورسوم الطقوس التي لا يمكن للقسيس اجراؤها بدون حضورها — فتمتد خروجها لغرفة الاكليل لا يصحبها أحد مطلقاً من السيدات القبطيات وفي بعض الاحيان يكون الزوج متنوراً مثقفاً يحجز زوجته بجانبه بعد الاكليل ويقدمها لاصحابه من الانكليز الذين يتصادف حضورهم.

وطقوس الاكليل عند الاقباط مثل طقوسنا ولكن عادة تتويج العروس والعريس (أي اللذان لم يسبق لهما زواج) وتغطية رؤوسهما بوشاح مطرز رمزاً عن اتحادهما في خيمة واحدة كرفقه واسحق لم تزل تتبعه عن اقباط مصر وينتظر استمرار اتباعها (١) وبعد الانتهاء من حفلة الاكليل ينتظر الضيوف حتى طعام العشاء ثم يصرفون بقية الليل في سماع المغنين والالخان اما صاحب المنزل فيفتح ابوابه لمناسبة فرحه الى المدعوين وغيرهم أي انه لا يرفض ضيافة أي فرد سواء كان غريباً أو قريباً حيث يعد ذلك من آيات الشرف. وكثيراً من المسلمين الذين يشتغلون تراجهم للسواحين يرتكبون على هذه العادة ويدعون كثيرين من السواحين الى ليلة عرس بدون انتظار دعوة من صاحب الفرح لثقتهم التامة انه معها كانت احساسات صاحب الفرح الداخلية لا بد وان يستقبل ضيوفه السواحين الغير المدعوين بكل تبحر واکرام. والقاعدة المضطربة عند كل السواحين الذين يلبون دعوة ترجمانه المتطفل يكونون على جهل تام من معرفة ما اذا كان صاحب الفرح مسلماً أو مسيحياً فتصرفهم هذا مما يدعو صاحب الفرح للشك في الاعتقاد بسمو تربية وتعدن الاورباوين

(١) الطلاق نادراً جداً عند الاقباط وغير مسموح به الا لعلة الزنا ففي هذه الحالة يسمح الاسقف او البطريرك لمن لم يظهر عليه الخطية من احدهما ان يتزوج ثانياً ولكن الطقوس الدينية تختلف قليلاً في الزواج الثاني الذي لا يحذف منه التتويج ويكون كزواج دمل او ارملة



الذين يزورون مصر. فيدخل اولئك السواحين الى سرادقات الافراح او صالونات المنزل في وسط الحضور بذات ملابسهم الحفيرة المملوءة بالتربة من شدة جولانهم في المدينة طول النهار ثم يجولون هنا وهناك وسط المنزل كأنهم يتفرجون على معرض صور شمعية ويبدون ملاحظات وانتقادات بصوت عال يدل على سوء التريه دون ملاحظة ان اغلب المحترمين من الرجال الوطنيين الحاضرين يفهمون اللغات الانكليزية والفرنساوية وغيرها ولا أنهم لسوء الحظ لا يمكنهم دائماً التمييز بين (الانكليزي والامريكاني) وبالاختصار فانهم بذلك يسببون كسواً واشمئزازاً عند الانكليز الذين يتصادف وجودهم في الاحتفال من اوله بدعوة من اهل الفرح وحتى ان السواحين الذين لا يذهبون الى الافراح الا بعد طلب دعوة حضور اليهم فانهم يأتون اموراً مكدره لا تليق بهم ولا يجب ان يسلكوها عند وجودهم في اية حفلة وطنية كانت لان اعمالهم هذه يتسبب عنها ان ابناء البيوت العالية من المسلمين قرروا فيما بينهم عدم دعوة السواحين الاورباويين قطعياً في احتفالاتهم

لنرجع بعد ذلك الى يوم الاثنين وهو ثالث ايام المرس عند الاقباط ويعرف عندهم (بنهار الصباحية) يحضر فيه اقرب المقربين للعروسين ويصرفون معظم اليوم في بيت العريس حيث تقابل العروس كل منهم شخصياً ليعطيها هدية بقدر مقامه وتختلف قيمة الهدية من خاتم الماس الى نقود وغالباً تكون قيمة الهدية من النقود من جنه انكليزي الى

عشرة جنيهات وتعرف هذه الهدية عنهم (بالنقطة) وكل من يمنح العروس هذه النقطة تقدم له بدلها مندبل حرير مطرز من شغل يدها كما ان اصحاب العائلة ايضا يقدمون لها هدايا تستعمل في وليمة الفرح على ان الاقباط ميالون الى الذريه جداً وتظهر علامات البشر عليهم والفرح حينما يولد لهم ابن او ابنة ويزداد سرورهم على الاخص اذا كان المولود ذكراً ولقد تبقى الوالدة والمولود في غرفتهما مدة اسبوع بعد الولادة مهما كانت العائلة في حالة الفقر حيث تتطوع لخدمتها كثيرات من صاحباتها وقرباتها ثم في اليوم السابع (الاسبوع) يقرون على الاسم الذي اختاروه للطفل بواسطة اجتماع جلسة من افراد العائلة. واذا كان المولود هو البكر قدم اهل الوالدة مائدة الغذاء لجميع صاحباتها. ثم يتدأون بوضع الطفل التمس في جملة تجارب واختبارات. فاول عذابه ومضايقته ان يدقوا هوناً من نحاس اصفر قرب اذنه الى ان تكاد تشق. ثم يهزونه في غربال ولقد يستحب الانسان اطفال الاقباط لطيفهم ودقهم ومتعهم الجاذبية التي تكون فيهم واحسن الاطفال طبعاً وجمالاً طفلاً قبطياً رأيت في الشهر الخامس من عمره انه شعر كثيف لطيف وعينان لامعتان زرقاويتان ويهدر ويقرقر ويبقي (يناعي) بالشرح طول النهار مع انه يتنقل من يد يفت الى اخرى بطريقة يجيها الطفل الانكليزي امام ذلك الطفل فقطة مسكينة لا يتجاوز عمرها الخامسة عشرة والسكني افرح بان اقول انها المتزوجة الوحيدة في وسط اربع او خمس من صاحباتها واقربائها اللواتي من



سنا او اكبر منها قليلا .

وبعد ان يتم ازعاج الطفل المسكين في اليوم السابع من عمره بتلك الوسائط الخرافية . تلبس امه ثوبا ابيض وتأخذه على ذراعيها وتدور به في كل غرف المنزل في شكل موكب . ويؤلف هذا الموكب من اولاد المدعوين بان يحسك هؤلاء الاولاد الشمع في ايديهم وحيانا المباخر ويمشون صنفين امام الوالدة ويرتلون غناء الولادة وحولهم جميع المدعوين . اما والد ووالدة الام الصغيرة فيعملان كعكا يقال له ( ككاجه ) ويوزع جزء من هذا الكعك مع بعض حلويات وفواكه ناشفة الى كل العائلات التي لها صلة تعارف بالمروسة والعريس . ثم بعد هذا يحضرون في مساء اليوم المذكور قارورة ماء فارغة ويكسونها بالحرير ويزينونها بالخلي والجواهر وتوضع في طشت من النحاس مسطح وتلصق ثلاث شموعات في حافته على ابعاد متساوية وتسمى كل شمعة باسم ينتخبه احد اعضاء العائلة ثم يوقد هذا الشمع والشمعة التي لا تذوب الا في النهاية بعد الشمعتين الاخيرتين يسمون الطفل باسمها . ثم يضع كل من الضيوف الحاضرين شيئا من النقود في الطشت ومجموع هذه النقود تعطى للوالدة علاوة على ما يعطيه لها والدها .

وطبقا لقوانين الكنيسة المصرية القبطية يجب تعميد الولد حينما يبلغ اليوم الاربعين من عمره والفتاة حينما تبلغ اليوم الثلاثين ولكن لسوء الحظ فان المنفذين لهذا القانون قليلون جدا حيث كثيرا ما يترك الاطفال

بلا عماد حتى الشهر الخامس أو السادس . وتمارس رسوم التعميد في الكنائس ان لم يكن الطفل على وشك الموت فيعمد في البيت . ويتم بهذا التعميد بواسطة تغطيس الطفل ثلاث مرات في حوض مملوء بالماء البارد الرائق المرشوش بقليل من الزيت الذي يقال له زيت المعمودية ولا يشدون الطفل الان بالزنار أو الحزام الذي كان يستعمل بصفة علامة يميز بها المسيحي المصري ( القبطي ) من سواه .

ويتخذ في الكنيسة المصرية مثل كنيسة روما الاشيشية ( الكفالة ) واسطة لتأسيس علاقة مادية وروحية بين الكفيل وعائلة المولود ولذا خطر على الاقباط أن لا يتزوجوا بنات اشيشه أو اشيشته طالما يعتبرون كاخوة لهم واخوات

وبعد تغطيس الطفل ثلاث مرات في المعمودية يمسح بالزيت المقدس ( الميرون ) ويقدم لتناول السر الالهى . ومن عوائد الاقباط أن يسموا الطفل وقت المعمودية باسم آخر خلاف الاسم الذي اختير له في اسبوع الميلاد وانتخاب الاسم الجديد يكون على العموم على اسم قديس يكون عيدہ في ذلك اليوم الذي يعمد فيه أن لم يفضل والديه تسميته باسم قديس محبوب عندهم . وفي الغالب اسم جرجس ومريم عام عند كل الاقباط

على ان كثيرا من الاقباط المستخدمين في دوائر الحكومة يتخذون اسما ثالثا خلاف الاسم المسيحي ويستعملونه لقباً اعتياديا وفي الغالب هذا الاسم الثالث لا يكون مسيحياً فيصبح الشخص غير معروف بين الناس



لا بهذا الاسم الاخير اما اسماؤه المسيحية فتسعمل فقط في الاحتفالات والرسوم الكنائسية ولذا فان الطفل الذي يعمد باسم مرقس يصير معروفا عند كل الناس باسم (اسكندر) أو الصبي الذي يعمد باسم باسيلي يرسل للمدرسة باسم (زكي) الخ. وبعض الاسماء اليونانية القديمة قد تحرفت وتغيرت تغيراً غريباً من عهد ما ابتدأ الاقباط يفقدون استعمال لغتهم الاصلية فاسم فيلوثاؤوس تحرف الى العربية باسم عبد المسيح. واسم فيكتور اصبحت الآن بقطر. واسم تيودوروس اصبحت تدرس الخ.

والختان متبع على العموم عند الاقباط خصوصاً في الاريايف. ولكن لا يوجد شيء يميز الاقباط من المسلمين عند مظاهرتهم المعقونة بالاختان — كما ولا يوجد عند الاقباط ما يثبت أن اتباع الختان هو تنفيذ لطقس ديني. بل هو فقط احتياط صحي يتبع وقت ما يجب اتباعه. ويتبع أيضاً الاقباط العادة القديمة المتعلقة بتضحية خروف أو كبش عند ما يريدون وضع حجر الاساس الاول في بناء عمارة عظيمة وهكذا يفعلون أيضاً على عتبة البيت الجديد بعد تمام بنائه.

واكثر الاقباط مواظبة على حضور الصلاة في الكنائس رجالهم اما النساء اذا ذهبن فلهن يقضين الوقت في محادثة بعضهم بعضاً بغوغاء وضوضاء بدلا من الانتباه للصلاة. ولا شك انه لا يوجد علاج شافي لهذا المباديء العيبة الا اذا سمحوا للسيدات بالجلوس في وسط الكنيسة عوضاً عن تقيهن في اروقة مقامة في اعلى الكنيسة

وعالية علوا يستحيل عليهن أن ينظرن منه أو يسمعن ماذا يحصل أو ماذا يقال في دار الكنيسة ومن الواضح أنه قبل اشتداد خوف الاقباط من المسلمين كان النساء يجلسن منفصلات عن الرجال كما هو جار الآن في كثير من الكنائس الانكليزية وان كان الانكليز وسيدانهم يجلسون في ساحة واحدة بلا أدنى حجاب ولا حاجز بين الفريقين على اني وجدت في كنيسة قبطية قديمة اربعة حواجز يقف خلف الاول المترشحون للتعميد ثم تقف النساء وبين هؤلاء واولئك يجلس الرجال ثم القسوس ففسد الهيكل وخلقه معابد يحتوي كل منها على مذبح لا يستعمل الا بعضه الآن.

والقاعدة المتبعة في الكنيسة المصرية هي نفس المتبع في الكنيسة البريطانية من ضرورة تناول النوعين من الاسرار المقدسة وان تناولها الاقباط ثلاث مرات في السنة منها مرة في عيد الفصح. ويتناولها الانكليز مرات عديدة غير أن عدم الاعتناء والاهمال الشديدين هما اللذان يمنعان غالباً ابناء الكنيسة من تناول الاسرار المقدسة في المواعيد المقررة لها حتى اصبحت اعضاء الكنيسة المصرية على الغالب لا يتناولون الاسرار الا في كل سنة مرة. ومن الغريب انهم يقولون أن مرة واحدة فيكفي في الصيام الكبير. ويستعمل الاقباط في الاسرار المقدسة خمرًا خصوصياً معتقاً يقال له (اباركه) ويضمونه لهذا الغرض داخل الكنائس. اما كيفية استخراجها فهي انهم يقومون الزبيب في الماء ثم يهرسونه هرساً ثم يكررون عصيره حتى يصير رائقاً وبعدئذ يتركونه في اوعيته حتى



يختمر . وقد أصبحت هذه العادة ضرورية جداً بالنسبة لكثرة  
الاضطرابات المريعة . وفي القرن التاسع والقرن الحادي عشر ( انظر  
الفصل الحادي والاربعين من الجزء الثاني والفصل السابع والاربعين من  
الجزء الثالث ) قد خربت كروم العنب واصبح استخراج الخمر أو جلبه  
من الخارج من الامور المحرمة قطعياً على الاقباط . وقد كان غرض  
المسلمين من ذلك التضييق هو انهم يعطون على الاقباط ممارسة اسرارهم  
المقدسة . وقد نجح المسلمون تدريجاً في استئصال زراعة الكرم  
بالكلية من البلاد ومنع جلب العنب من الخارج . فصار  
الاقباط يلتمسون في جلب الزيت من الخارج ويعملون منه الخمر  
الذي يرغبونه داخل الكنيسة بطريقة سرية . اما الآن فقد الغيت بالطبع  
هذه التحذيرات التي تستوجب عمل الاباركة من الزيت . غير ان الاقباط  
استمروا في اتباع عادة استعملت في اول ابتدائهم بواسطة بعض رجال  
الاكليروس المتحمسين لكي يفسدوا الاسرار المقدسة . اما عن ملابس  
وترتيبات الكنيسة القبطية فاننا لا نكتب عنها شيئاً لان المستر يقتدر  
كتب عنها في كتابه ( الكنائس القبطية ) بغاية الاعتناء والتفصيل .  
وضمنها بعض التعبيرات التي يعير بها الاقباط جماعة من الغربيين الجهلاء  
الذين يحكمون على الامور قبل فحصها ويجب على الاقباط ان يحتجوا عليها  
احتجاجاً شديداً ليوقفوهم عند حدهم وعند اسناد الوساخة والنقوضي اليهم

في بيوتهم وفي كنائسهم<sup>(١)</sup> نعم ان كنائسهم على الغالب غير نظيفة  
وناقصة كثيراً من النظام بوجه عام مع وجود خادم خصوصي  
مؤجر لتنظيفها وترتيبها وقد لا انسى في هذا المقام ان من مائة سنة  
تقريباً كانت كنائسنا في انكلترا على حاله كنائس الاقباط الان .  
وامامي الان تأليف عجوز انكليزية تصف فيه الوساخة والقذورات  
وعدم النظام في الكنائس الانكليزية مما ينطبق وصفها على حالة الكنائس  
القبطية في هذه الايام غير اني اتغنى كثيراً ان لا اسمع عن الكنائس  
القبطية شكاوي من قبيل ما سمعته من ان النساء يستعملن اوراق كتب  
الصلاة لتزيين رؤوس اولادهم الذين يجلسون معهم . وقد ابتداء الاقباط  
ان يستيقظوا من سباتهم ويقوموا لاصلاح كنائسهم وانا مؤملون كثيراً  
ان يحىء اليوم القريب الذين يعرفون فيه كيفية المحافظة على  
كنائسهم وابقائها على الدوام النظيفة

والكنائس القبطية كغيرها تقدم لها الهدايا والندور من ابقائها حسب  
طريقة الكنيسة الانكليزية . وتكون التقدّمات عموماً صغيرة . ولكن  
البيتر برك المعري ( القبطي ) له سلطة وقوة كالسلطة التي يستعملها العاسرة

(١) ان العدل يلزمني ان اذكر شيئاً من اعداء الاقباط فاقول ان القاهرة كائنة على  
شاطئ نهر غزير لا ينقطع ماؤه . ولكن احياء الفقراء فيها يتألمون لقلة المياه . لان  
من اعمال اساميل باشا الخيثة ايام حكمه انه ترك المدينة في قبضة شركة اجنبية  
واحدة هي شركة المياه التي يتألم منها السكان كثيراً



الاكلير يكون في انكلترا . فبارادته ومشيتته يعين ناظراً او امين الخزينة لكل ابرشية . فهذا الموظف يجمع كل الاموال المستحقة للكنيسة وابعادات الوقف الخ ويسلمها للبطريرك الذي يدفع ماهية معينة للكهنة المخصص لهذه الوظيفة ويصرف الزائد من النقود على لوازمات الكنيسة بحسب ما يراه ضرورياً . وقد قامت منازعات وخصومات ما بين البطريرك وحزب الاصلاح بسبب رغبة الاخير في استلام زمام ايرادات الكنيسة وتأييد رغبته بادلة أهمها انه لا يجوز لاي شخص واحد حتى ولا البطريرك نفسه ان يتولى ادارة ايرادات الكنيسة تحت تصرفه الشخصي المحض دون ان يقدم حساباً عن ذلك لعموم الشعب ومنها انتخاب مجلس علماني (مجلس ملي) لاستشارته في توزيع الايرادات بالطرق الثلاثة لها بحسب احتياجات الكنيسة والشعب ومنها وجوب صرف أغلب الايرادات في سبيل التعليم . أما البطريرك فانه واقف حجر عثرة في سبيل مطالب هذا الحزب . تمسك بحقوقه الشرعية مثل باباوت روميه ويقول ان فكره اكثر عدلاً من فكرهم . ولكن قد اتفق الرأي العام القبطي على انه ولو ان البطريرك الحالي غير حكيم ومفرط في ايرادات الكنيسة تحت ايدي رجال الاكليروس فانه امين وغير محب للذات في التصرف لما هو مؤتمن عليه . وينتظر الاقباط انه بمجرد دخوله الكرسي البطريركي منه يرجعون حالاً الى عوائد المسيحية القديمة بان ينتخبوا بطريركهم الجديد رجلاً يكون كاهناً معلماً تزوجاً محكماً في التجارب والاختبار بدلاً عن رجل

قديس جاهل من رهبان وادي النظرون يصبح بطريركاً عليهم والحق يقال انه مع وجود فقر كثير عند الاقباط الا انه لا يوجد في الحقيقة نوع الاحتياج او الشحادة بينهم الا القليل لان ذوي الاحسان منهم لا يجهلون حالة ابيائهم المحتاجين . حتى ان المثرين منهم او اصحاب الرواتب العالية يعتقدون بالبداهة الطبيعية ان من الضروري مساعدة اقربائهم الذين لا يعملون ما عدا تلك الجهة التي يقطنها الاقباط عند الحصن الروماني (بمصر القديمة) حيث علمهم السياح درساً شريراً بكثرة هبائهم عليهم فاتخذوا الشحادة مهنة في تلك الجهة النيلية اما في سائر البلاد وفي كل مكان يغمر فيه السياح الاهالي بهبائهم فقلما نجد قبطياً واحداً يخرج اليهم او مديده ليطلب كسرة خبز او درهم من اي كان وانما كثيراً ما رأيت ان بعض الاولاد الاقباط يطلبون كتباً من السياح ولا يطلبون منهم نقوداً ولما سعت لآخر مرة عام ١٨٩٤ في اعالي النيل رايت صياح الناس والاولاد علي وعلى باقي السياح طالبين البقشيش ثم احتاطوا بنا بشكل لا يطاق وبالبحث والملاحظة لم اجد بينهم قبطياً ثم لما اتجهت الى الاحياء القبطية في اسنا واصون لاحظت ادباً كثيراً وسكوناً عظيماً ولم اسمع قبطياً واحداً يطلب بقشيشاً على مثال احوال المسلمين البحتة التي أصبحت عندهم عادة . وفضلاً عن ذلك فان كل الاقباط تربوا على احترام بعض الحرف والصناعات اليدوية او التجارة التي تغني فقراءهم عن عيشة الكسل وعلى الاعتماد عدم الشحاذة وذلك بعد ان يخرلوا من الاستغدام في دوائر



الحكومة . من النادر حينما نجد الاقباط يشتغلون خدمة في المنازل أن لم يقبل عليها واحد منهم ببساطة وسذاجة وليس عند الاقباط الذكاء اللازم لعمل أي شيء آخر خلاف ما تقدم .

ومنذ سنة ١٨٨٤ قد تحرر الاقباط من كل المضعفات القضائية ولم يبق من ظلمهم وشكواهم الحقيقية الا مواظبتهم على موالاتهم للمسلمين علنا بواسطة اغلب كبار الموظفين الانكليز أو الاتراك لانه تقريبا كل الموظفين الكبار الذين يختلط معهم الانكليز من الحزب الذي تسر افئدته كثيرا من الخط على الاقباط . فضلا عن يعملون دائما في اظهار الاقباط بمظهر غير محبوب ومقبول لا يدفعوا الانكليز الى مديدا لاذي ضد الاقباط بكل بساطة وسذاجة — أي أن الانكليزي يقتنع بذلك كقاعدة عمومية — أن لم ير ضرورة امتحان القبطي شخصا — فيتكلم عنه بحسب اختياره اياه ونادرا لما يتفق للانكليزي أن يتخذ براهيه للقبطي على اساس الانجيل والمسلم على اساس آخر او طيء كثيرا من البراهين التي يستعملها لنفسه . وقد تكلمت كثيرا على الصعوبات والعثرات الملقاة في طريق ترقية الاقباط في الجيش ومثلها تقريبا في كل دوائر الحكومة . وفي الحقيقة أن انكليزيا عظيما انى مصر « نمني به لورد كرومر » على تصميم النية على أن لا يستخدم في المصالح الاميرية الا المسلمين « باعتقاده ان المسلمين أصحاب الاكثرية من المصريين الحقيقيين » وتقد غرضه بقدر امكانه ويظهر انه من عهد محمد علي الى الآن لم يتعين قبطي في وظيفة مدير أو

وكيل مديرية ولوانه ارقى من المسلم واذكى واشدهاء وولاء . ولكن على كل حال هذه مصاعب صغيرة يكابدها شعب عظيم تألم شديد الالم اكثر من الف سنة ومعظم الاقباط ممتنون من الحماية التي يتمتعون بها في عصر جلالة ملكتنا فيكتوريا

انتهى بحمدته تعالى الجزء الرابع وهو خاتمة أجزاء الكتاب ﴿ في اول نوفمبر سنة ١٩١٠ ميلادية ﴾

## خاتمة اضافية

بقلم صاحب جريدة مصر الذي تولى ترجمة وطبع هذا التاريخ قد تم والله الحمد ترجمة وطبع هذا التاريخ النفيس الذي هو تاريخ اقدم الحوادث لا قدم الامم وهو التاريخ الثابت المحقق لجميع حوادث مصر السياسية والاجتماعية والمالية ايضا التي وقعت فيها من اول ايامها الى الاحتلال الانكليزي مقترنا ايضا بتاريخ جميع بلاد الشرق في تلك الحقبة الطويلة من الدهر وفيه الايضاح الوافي لاشهر الحوادث التي وقعت ايضا في بلاد الغرب اثناء تلك الاجيال الطويلة وكان لها اتصال او علاقة ببلاد الشرق

فهو من هذا القبيل تاريخ عام لاهم الحوادث التي وقعت في العالم كله في الازمنة القديمة والحديثة وتاريخ خاص لذلك الشعب النشط المعجيب الذي نشأ منذ اول عمران المسكونة بالجنس البشري وقطن هذه



البقعة الشمالية من قارة افريقيا على ضفتي النيل حيث لعب ادواراً مهمة فيها وفي سائر الممالك والبلدان المجاورة له عادت بالرقى السجيب والتقدم الغريب على جميع سكانها كما عادت عليه بالفلاح والنجاح قرونا طويلة بل هو الشعب الذي اثار الدجى بعصايج العلم والهدى في العالم كله كما تدل على ذلك اثار رقية الباقية الى اليوم تناطح السحاب رغما عن اعتداء جميع امم وقبائل الارض عليه وعليها حديثا . ذلك الرقى الذي قال عنه اشهر علماء اوربا في هذا العصر هذه العبارة الماثورة ( اننا لو افتخرنا بها افتخرنا بعلوم واختراعات اوربا الحديثة نقف مبوهتين امام ما كان للمصريين القدماء من ذلك مما تظهره اثارهم العجيبة كل يوم )

فهذا الشعب هو الشعب القبطي الذي لبث من عصر الرومانيين الى الان عرضة لاضطهادات ونكبات وويلات لا حد لها ولا نهاية ورغما عما عملت فيه السيوف وانيران في كل تلك الازمان من القطائع التي افنت قواه وانقصت عدده الى ما دون العشر بقي الى اليوم وهو شعب قوي امين لله والناس وثابت على مبادئه القويمة الاصلية لا تزغزه عنها اي كارثة ولا يثني عزيمته اي اضطهاد مهما طال زمانه وتعددت انواعه ولا شك ان حضرة السيدة الفاضلة والكاتبة المحيطة البارعة المسماة بتشر التي قضت عدة اعوام تعاني المشاق والايصايب في جمع هذا التاريخ الذي عجز عنه جميع الاقباط انفسهم لجديرة بالشكر الوافر والحمد المتواصل من جمهور مجموعهم وافرادهم بل من المصريين اجمعين على هذه

الخدمة الجليلة التي خلدت لها اعظم ذكر لا يمضي مدى الدهر هذا ومن الذين لهم الفضل الاكبر على ترجمة هذا الكتاب الجليل الى العربية سعادة مرقص بك سميكة والمرحوم الطيب الذكر رقبه بك جرجس والذين باثروا الترجمة بالذات هما حضرتي الفاضلين اسكندر افندي نادر من زارعي السودان الان ونسيم افندي فهمي احمد موظفي ادارة سكة الحديد فقد ترجم اولها الجزئين الاول والثاني وثانيهما الثالث والرابع وتحملا في ذلك اتعابا تذكر لهما بالشكر الوافر والثناء العاطر . ولا يفوتنا هنا ان نشير الى القراء التشجيع العظيم الذي لقيناه اثناء مباشرة ترجمة وطبع هذا الكتاب على نفقتنا الخصوصية من عميد الامة القبطية المرحوم الخالد الذكر بطرس اشناغالي بعد ان علم بما تكبدناه في ذلك من الاتعاب الجمة والنفقات الكثيرة خصوصا بعد احتراق ما كان ترجم وطبع منه واضطرارنا الى تكرار ذلك بنفقات جديدة فقد كتب اليثامن الاسكندرية رحمه الله كتابا رقيقا بخط يده الكريمة يتضمن ارق العبارات واجملها يمتدح منا هذا العمل ويثني علينا لاجله اطيب الثناء مما دل على ما كان له من الاهتمام بكليات الامور وجزئياتها طيب الله نراه هذا وبما ان هذا التاريخ يقف عند بداية ايام الاحتلال الانكليزي لمصر ولا يشتمل لايام التي تليها ونظراً للحوادث الكثيرة التي وقعت في هذه الفترة وهي ليست بقصيرة قد اخترنا الله في وضع جزء تاريخي مخصوص لها حسب ما لدينا من المعلومات التامة عنها وبالله المستعان وله الحمد على نعمائه في كل حين وكل ان (تأدرس شئوده المنقباضي)



# فهرست

تاريخ الامة القبطية وكنيستها

## المجلد الاول

صحيفة

|     |                                       |     |
|-----|---------------------------------------|-----|
| (١) | مقدمة المؤلف                          | ١   |
| (ج) | فهرست المجلد الاول                    | ١٤  |
| (د) | مقدمة صاحب جريدة مصر                  | ٢٣  |
| (و) | جدول بطاركة الكنيسة القبطية           | ٣٣  |
|     | الفصل الاول — مجي قيصري الى مصر       | ٤٣  |
|     | » الثاني — مجي المسيح الى مصر         | ٥٢  |
|     | » الثالث — كرازة مرقس الانجيلي        | ٦٢  |
|     | » الرابع — بطريك واحد وسبعة قياصرة    | ٩٦  |
|     | » الخامس — رواد النيل في القرن الثاني | ١٢٣ |
|     | » السادس — المدرسة اللاهوتية الاولى   | ١٤٦ |
|     | » السابع — اوريجانوس                  |     |
|     | » الثامن — اضطهاد ديشيوس للمسيحيين    |     |
|     | » التاسع — اضطهاد فاليريان للمسيحيين  |     |
|     | » العاشر — مار آمون ومار انطونيوس     |     |

صحيفة

|     |                                              |
|-----|----------------------------------------------|
| ١٥٥ | الفصل الحادي عشر — الجهاد في سبيل الحرية     |
| ١٦٩ | » الثاني عشر — تاريخ الشهداء                 |
| ١٩٦ | » الثالث عشر — جدال اريوس                    |
| ٢٠٨ | » الرابع عشر — البدعة والانشقاق              |
| ٢٣٣ | » الخامس عشر — غريغوريوس وجورجيوس من كيدوكيه |
| ٢٥٨ | » السادس عشر — اوبه اثناسيوس ووفاته          |
| ٢٧١ | » السابع عشر — انتحار الامة المصرية          |
| ٢٨٥ | » الثامن عشر — اخر اسقف اريوسي في الاسكندرية |
| ٣٠١ | » التاسع عشر — سقوط هيكل سيرايس              |
| ٣١٨ | » العشرون — الاخوة الطويلو القامة            |
| ٣٣٩ | » الحادي والعشرون — سينثوس                   |

## المجلد الثاني

|    |                                              |
|----|----------------------------------------------|
| ٢  | الفصل الثاني والعشرون — شهوده الاخيمي وغيره  |
| ٢١ | » الثالث والعشرون — كيرلس الكبير             |
| ٣٥ | » الرابع والعشرون — منافسة الباباوات         |
| ٤٥ | » الخامس والعشرون — مجمع خلکیدونية           |
| ٥٧ | » السادس والعشرون — نتيجة الشقاق بين الكنائس |
|    | ومركز الاروام في مصر                         |



|     |                                                         |
|-----|---------------------------------------------------------|
| ٧٢  | الفصل السابع والعشرون — زمن اراحة والسلام               |
| ٨٢  | » الثامن والعشرون — كل اول وله اخر                      |
| ٩٩  | » التاسع والعشرون — ثورة الثلاثة اخوة                   |
| ١٠٤ | » الثلاثون — الفتح الفارسي                              |
| ١١٦ | » الحادي والثلاثون — مشروع الاتحاد                      |
| ١٢١ | » الثاني والثلاثون — الفتح الاسلامي                     |
| ١٤٤ | » الثالث والثلاثون — المسلمون في مصر                    |
| ١٥٢ | » الرابع والثلاثون — فتح السودان                        |
| ١٥٨ | » الخامس والثلاثون — عبدالعزیز                          |
| ١٧٢ | » السادس والثلاثون — ظلم ولاية مصر وجورهم               |
| ١٨٣ | » السابع والثلاثون — عصيان الاقباط وسقوط الدولة الاموية |
| ٢٠٢ | » الثامن والثلاثون — ظلم الدولة العباسية للاقباط        |
| ٢١٦ | » التاسع والثلاثون — اخر ثورة هائلة للاقباط             |
| ٢٢٧ | » الاربعون — مقابلة ولي عهد السودان للخليفة             |
| ٢٣٧ | » الحادي والاربعون — احمد بن طولون                      |
| ٢٥١ | » الثاني والاربعون — العمري واعماله الخطيرة             |
| ٢٦١ | » الثالث والاربعون — مدينة ابن طولون الجديدة وجامعه     |
| ٢٧٦ | » الرابع والاربعون — الدولة الاخشيديه                   |

## المجلد الثالث

|     |                                                                             |
|-----|-----------------------------------------------------------------------------|
| ٢   | الفصل الخامس والاربعون — فتح الفاطميين لمصر                                 |
| ١٠  | » السادس والاربعون — بناء القاهرة                                           |
| ٢٣  | » السابع والاربعون — اضطهاد الحاكم بامر الله                                |
| ٣٦  | » الثامن والاربعون — شنوده وخرستودوس                                        |
| ٥٠  | » التاسع والاربعون — بدر الجمالي الارمني                                    |
| ٧٦  | » الخمسون — تأثير مبادئ الحروب الصليبية في مصر                              |
| ٩٣  | » الحادي والخمسون — انشقاق مرقس بن قنبر                                     |
| ١٠٣ | » الثاني والخمسون — حريق بابلون                                             |
| ١١٧ | » الثالث والخمسون — الفتح الكردي                                            |
| ١٢٩ | » الرابع والخمسون — سلطنة صلاح الدين يوسف                                   |
| ١٤٧ | » الخامس والخمسون — النزاع والفتن بين الكنيسة الحبشية وامها الكنيسة المصرية |
| ١٧٢ | » السادس والخمسون — الصليبيون في مصر                                        |
| ١٩٥ | » السابع والخمسون — البطريرك المذبول                                        |
| ٢١٨ | » الثامن والخمسون — القديس لويس في مصر                                      |
| ٢٣٣ | » التاسع والخمسون — مصير ملكة مسلمة                                         |
| ٢٦٢ | » الستون — فتح السودان مرتين                                                |



# المجلد الرابع

مصر

| صفحة |                                                         |
|------|---------------------------------------------------------|
| ٢    | الفصل الحادي والستون - تخریب الكنائس وهدمها             |
| ٣٥   | » الثاني والستون - أطول أزمة الاضطهاد                   |
| ٥٦   | » الثالث والستون - الممالك الشراكية                     |
| ٧٣   | » الرابع والستون - الفتح العثماني                       |
| ٩٧   | » الخامس والستون - من ردى الى اردأ                      |
| ١١٥  | » السادس والستون - تأثير الاصلاح في مصر                 |
| ١٢٩  | » السابع والستون - مصر في القرن السابع عشر              |
| ٢٠٧  | » الثامن والستون - المسيو دي مايه في مصر                |
| ١٧٨  | » التاسع والستون - استبداد البكوات المماليك             |
| ٢٣٢  | » التاسع والستون - استبداد البكوات المماليك             |
| ٢٥٥  | » السبعون - علي بك الكبير                               |
| ٢٧٨  | » الحادي والسبعون - دخول الفرنسيين                      |
| ٣١٣  | » الثاني والسبعون - محمد علي باشا                       |
| ٣٥٠  | » الثالث والسبعون - الاحتلال الانكليزي                  |
| ٣٧١  | » الرابع والسبعون - الكنيسة القبطية في القرن الثامن عشر |
| ٤٠١  | » الخامس والسبعون - العوائد والمعيشة الاجتماعية         |
| ٤٢٥  | خاتمة صاحب جريدة مصر                                    |
| ٤٢٨  | فهرست الكتاب                                            |